

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية في الإسلام

تأليف :

الأستاذ حسن كامل المعلم

الجزء الثاني

القاهرة

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

اهداءات ٢٠٠٠
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -
وزارة الأوقاف

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

الصوفية فالإمامهم

تأليف الأستاذ

حسن كامل المطاوى

الجزء الثانى

القاهرة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يسر المجلس الاعلى للسنن الاسلامية ان يقدم للمكتبة الاسلامية الجزء
الثانى من كتاب ((الصوفية فى الهامهم)) للأستاذ حسن كامل المطاوى وكيل
وزارة الخزانة السابق .

ويشمل هذا الجزء المقالات اللاحقة لما تم نشره بالجزء الاول فى سنة ١٣٨٩ هـ
— ١٩٦٩ م من سلسلة المقالات الشهرية التى تنشرها مجلة منبر الاسلام
بعنوان الصوفية فى الهامهم » .

ويرجو المجلس ان ينتفع القارئ بهذا الجزء كما انتفع بالجزء الاول .

والله ولى التوفيق

١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

رجال الله وأشرهم في التربية الروحية

(ان القلوب لها معان في مناجاتها ، تتعارف بها الأرواح الخاصة ، وتتفهم دقائقها في صفاتها ، اذ تنعكس أشعة الأرواح على بعضها ، فترى بنور الايحاء الرحمانى ما لا يراه غيرها ، اذ تتفاوت الأرواح بين الاحباب وأولى الالباب ، واللييب من لبي أى أجاب هولاء فلباه ، وأعطاه قوة ادراك النفوس ، فيدرك من معانى القلوب ما تتناجى به ، سواء بين العبد وأخيه ، أو بين العبد وربّه وهناك في القلوب خبايا وخفايا وأسرار لا يعلمها الا الله ، ولو شاء لأطلع بعض الأخصاء على بعض القلوب لحكمة يعلمها ، وبالجمله فهو ستار غفار) •

جاءت هذه السطور في رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جهمه مد الله في عمره ، وفيها يتعرض سيدى الشيخ الى ارتباط الأرواح ببعضها ببعض ، واتصالها من وراء حجب الغيب بخواص جعلها الله في الأرواح ، والزوح من أذر الله ، وسر من أسرارها العليا ، وقد أودعها الله الأجساد فتحرّكت بالروح بعد سكون وفكرت بعد جمود ، وقامت بها الحياة حتى اذا استرد سبكانه الروح عند انتهاء الأجل ، كان الموت ، فعادت الروح الى عالم الملكوت الذى هبطت منه ودفن الجسد فى الأرض التى خلقه منها بقدرته تعالى •

وسبحان ربى ، الذى قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، فقد جعل سبكانه الأرواح متفاوتة فى أنوارها ومعارفها ، ورقائقتها ودقائقها ومذاقاتها ومشاربها ، والله يؤتى فضله من يشاء • والعباد متفاوتون فى صلتهم بالله تعالى ، مؤمن وكافر ، والمؤمنون عوام وخواص ، وليست مفارقات العباد فى الأجساد ، انما افترقوا فى الأرواح ، أما الأجساد فخادمة للأرواح ومنقادة لها ، انقياد الأعمى للبصير •

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

وينوه سيدي الشيخ بأثر طاعة الله في الأرواح ويقول ان اللبيب من عباد الله من أجاب مولاه فلباه ، ولا يكون ذلك الا بنور في بصيرته يريه الحق حقا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه ويأتيه ذلك النور من سلوكه الى الله تعالى ، وفق ما رسمه شرع الله ويستترشد في سلوكه بدليل من أئمة الهدى ، الذين يعالجون أمراض النفوس الخفية بسر الله ، يودعه الله أرواحهم الصافية ليكونوا أئمة للمتقين ومنارة للمساكين (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين) •

وهذا السر ، يكشفون به ما غاب عن غيرهم مما شاء الله أن يكشف لهم من العلم والمعرفة وذلك السر يعاونهم فيما أقامهم الله فيه من تربية المرئيين تربية صحيحة في جنب الله ، تخرجهم من الظلمات الى النور بأذن ربهم • وقد كان سيدي العارف بالله الامام المرسى أبو العباس رضي الله عنه يقول تحدثا بنعمة الله عليه ، والله لو علم أهل العراق والمغرب والشام ومصر ما تحت هذه الشعيرات (ويشير الى لحيته) من العلوم والأسرار لأتوها ولو سعيا على الوجوه •

وكان شيخه ومربيه سيدي الامام أبو الحسن الشاذلي ، رضي الله عنه يتحدث بنعمة الله ويقول : ما بقي بحمد الله عند غيرنا من أهل عصرنا علم نستفيد ، وانما ننظر في كلام غيرنا لنعرف ما من الله به علينا دونهم بما هو فوق مقامهم ، فنشكر الله على ذلك •

وكان شيخى العارف بالله سيدي الشيخ على عقل رضي الله عنه يقول في الهامه المرتجل الذي نقلناه عنه :

نحن في عالم اليقين رجال
قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شربنا

ويقول أيضا رضي الله عنه

محبة خالقي مشكاة قلبي
على أنوارها ألقى وصولي

وان الحب أشواق وصبر
يعز على المنافق والكسول
وان السور يذبل بعد وقت
وورد الحب كان به ذبولي
أدارى الحب حتى لو يرانى
أخو وجد تشكك في نحولى
وبى نثار لو استقمى لظاها
لحتر وجده وحذا سبيلي
ولولا العلم والايمان حظى
وعون الله يمنع من ذمولي
لقلت كلام ذى جذب وشطح
لما أدركت من فضل جزيدي
ولى من مشرق الايمان علم
سموت به على كل الفحول
علومى فى الورى نفحات ربى
فما بلغوا مذاقى أو شمولي

وقد جرى أكابر العارفين على التحدث بنعمة الله عليهم ، وكان سيدى
الامام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول كثيرا لأصحابه : اعلنوا
بطاعتكم اظهارا لعبوديتكم ، كما يتظاهر غيركم بالمعاصى ، وعليكم بالاعلام
للناس بما منحكم الله تعالى من العلوم والمعارف •

ويحكى سيدى الامام الشعرانى ، رضى الله عنه أن
شيخه سيدى على الخواص رضى الله عنه كان يقول : انتحدث
بنعمة الله تعالى من غير فتنة ولا أغراض نفسية خاص بالاكابر من الاولياء
فى كل عصر ، بخلاف غير العارفين ، فربما دخل الرياء على أحدهم فى تحدثه
بما أنعم الله به عليه •

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : وهناك فى القلوب خبايا وخفايا
وأسرار لا يعلمها الا الله ، فيشهد بصدقه الخبر : (انتقوا فراسة المؤمن
فانه ينظر بنور الله تعالى) أى باليقين ، وقول الله تعالى (قد بينا الايات
لقوم يوقنون) أى بينها بنور اليقين •

وروى الامام أبو طالب المكي ، رضى الله عنه عن امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قوله ان لله فى أرضه آنية وهى القلوب ، فأحبها اليه أرقها وأصفها وأصلبها ثم فسرهم فقال : أصلبها فى الدين وأصفها فى اليقين وأرقها على الاخوان •

وروى كذلك عن سيدى أبى بن كعب ، رضى الله عنه ، انه كان يفسر قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة • •) انه مثل نور المؤمن • وقال : قلب المؤمن هو المشكاة فيها مصباح ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ويتقلب فى نور ثم قال فى قوله تعالى (أو كظلمات فى بحر لجى) قال قاب المنافق ، فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ويتقلب فى ظلمة •

وقد دعا سيدنا ومولانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لسيدنا عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) وقال امامنا على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ما عندنا شئ أسره إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله تعالى ، الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه • وقال تعالى (ففهمناها سليمان) فخصه بفهم منه سبحانه ، أظهره مع حكم أبيه سيدنا داود عليهما السلام فحكم أبوه بالعدل ، وحكم هو بالفضل •

وقد كتب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أمراء الاجناد : احفظوا ما تسمعون من المتعظين ، فانهم ينجلي لهم أمور صادقة • وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) قيل نور تفرقون به بين الشبهات ويقين تحلون به المشكلات •

وقد جاء فى مناقب سيدنا حذيفة بن اليمان الصحابى ، رضى الله عنه ، انه خص بمعرفة المنافقين وبسرائر العلم ودقائق الفهم ، وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان سادتنا عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسألونه عن الفتن العامة ، والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى خص به ويسألونه عن المنافقين ، وكان سيدنا عمر يستكشفه عن نفسه ويقول له : هل تعلم فى شئ من النفاق ، فبرأه منه وكان سيدنا عمر رضى الله عنه اذا دعى الى جنازة ليصلى عليها نظر ، فان حضر حذيفة ، صلى عليها وان لم ير حذيفة لم يصل عليها • وكان سادتنا الصحابة يسمون سيدنا حذيفة صاحب السر ، وكانوا اذا سئل أحدهم عن علم يقول : تسألوننى عن هذا وصاحب السر فيكم •

والإيحاء الرحمانى الذى يثبته اليه سيدى الشيخ فى صدر عبارته يكون
وحيا لسادتتنا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، ويكون الهاما
للأولياء من أهل اليقين ، ومن هذا الأخير قول الله تعالى فى شأن أم موسى
عليها السلام (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه
فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين)
فانظر ، رعاك الله ، كيف رسم الله لها طريق الأمن على ولدها الطفل
فألقته فى اليم ، مطمئنة الى حفظ الله الذى يتولاه ، ثم كيف أخبرها برده
اليها ، وكيف بشرها بأنه سيكون من المرسلين الكرام ، حين يبلغ أشده ،
فأنهمها رب العزة أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين فى آن واحد فما أكرم
ربى وما أجله •

ولما علمت أم موسى عليهما السلام ، أن وليدها وقع فى يد فرعون عدو
الله ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، كادت بشريتها أن تغلبها
بالخوف على وليدها فكادت أن تقول انه ابنى وكان ذلك خافيا على عدوه
اللعين ، فثبت الله قلبها من اضطرابه وربط عليه بسر الهى ، لتكون من
المؤمنين الموقنين ، ولتعلم بالمشاهدة ، ان وعد الله حق ، وذلك ما تحكيه
الآية الكريمة (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن
ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) والآيتان الكريمتان « فردناه الى
أمه كى نقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم
لا يعلمون • ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي
المحسنين » •

وبنور الله الذى يودعه قلوب أوليائه من المتقين يحسون ما تحتاجى
به بعض القلوب ، سواء بين العبد وأخيه أو بين العبد وربّه ، كما يقول
سيدى الشيخ وذلك لحكمة يعلمها الله وقد شاهدنا ذاك بالتجربة العملية
كثيرا فيما بين سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه ، وأحبابنا من
المريدين ، ووقع لى شخصا من ذلك معه شئ كثير ، وليس هنا مجال
لسرده وعده. ولكن من المؤسف حقا أن أكثر الناس الذين يلتقون بواحد
من أهل اليقين ، يجعلون همهم أن يسمعوا منه فى أمور دنيوية تافهة
فان لم يسمع أحدهم منه ما يريد من أمر دنياء ، انصرف عنه ، وأفلتت منه
فرصة ذهبية سنحت له لتقوية يقينه وتهذيب مسلكه وتنوير قلبه ، وتزويد
معارفه لو أراد بصحبته طريق الآخرة وهذا ما يعلل لنا قلة السالكين فى
طريق الحق وندرة الساعين للآخرة سعيها ، فى حين يتزاحم الناس على

ابواب المنجمين والعرافين حتى كأنهم هم الذين أتوا علم الغيب ، وإنما الغيب لله وحده ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء لاتقيائته وأصفيائه ، تأييدا لهم في دعوة الحق •

على انى أود ان انبه القراء الأعزاء الى أنه مع التسليم بعلم القلوب الذى يؤتيه الله بعض أوليائه المتقين ، ليس حتما أن تظهر الكرامات الخارقة على يد الولي الصادق وليس حتما أن يخبر مريديه بشيء من الغيب ، بل من لوازمه صدق انهم في طلب الله تعالى ، وعلى منهج الشرع الشريف • وعلامة داعي الحق أن تنجذب قلوب المؤمنين اليه وتهفو لسماع كلامه ، وتأنس بالجلوس معه ، وتذكر الله بعد غفلة ، وتلين بعد قسوة ، وتلك علامات صدقه واخلاصه • وقد قال العارفون في هذا المقام : مشى على الماء رجال ، ومات بالظما من هم خير منهم •

هذا وان لم يستطع المؤمن أن يستدل بنفسه على واحد من هؤلاء الصادقين المخلصين ، فليقلد في اختياره مؤمنا من أهل الرشد ، ممن يوثق بدينه ، ويتبع معه امامه الذى سبقه في الاخذ عنه والانتفاع به • ومن لوازم المريد السالك الى ربه أن يكون صادق النية صادق العزم في طلب الله وفي الاسترشاد بالشيخ العارف ، كما أن من لوازمه طاعة الشيخ فيما أمر به الله أو نهى عنه ، ومادام الشيخ أداة اتصاله بالله ورسوله ، فقد صارت طاعته من طاعة الله ورسوله ورضاه من رضا الله ورسوله وسخطه من سخط الله ورسوله ، والشيخ عبد من العباد ولكنه من عباد الرحمن ، فمن والاه والاه الله ومن عصاه فقد عصى الله «ولله جنود السموات والأرض» «وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر» • وقد قالوا ان الياقوت حجر ولكنه ليس كالحجر وكذلك هم بشر ولكنهم ليسوا كالبشر بل فاقوهم بالمعرفة واليقين •

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه : علم سبحانه أن العباد يتشوقون الى ظهور سر العناية فقال (يختص برحمته من يشاء) وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل ، اعتمادا على الأزل ، فقال (ان رحمة الله قريب من المحسنين) والاحسان ، كما عرفه مولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك • ولمثل هذا يعمل العارفون •

ويشوقنا سيدى ابن عطاء — رضى الله عنه — الى كسب اليقين فيقول:
« لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب اليك من أن ترحل اليها ،
ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها » .

ويقول أيضا — رضى الله عنه — ان آداتى المعرفة بالله هما العقل
والقلب . والمعرفة بالله قد تكون اثبات وجوده وتقديسه عما لا يليق به ،
ووصفه على ما هو عليه ، وبما وصف به نفسه . وهذه معرفة عامسة
المكلفين ، وهى مفروضة عليهم ، وتسمى بالمعرفة العامة . وقد تكون حالا
يحدث عن شهود ذوقى ، ويكون العارف هو من أشهده الله ذاته وأسماءه
وصفاته وأفعاله ، وتسمى هذه بالمعرفة الخاصة ، وهى معرفة الصوفية
التي تستند الى الذوق لا الى العقل .

ويستطرد — رضى الله عنه — قائلا : وسواء أكانت المعرفة بالله عقلا
أم ذوقا ، فان موضوعها هو الذات الالهية من حيث صفاتها وأسمائها
وأفعالها ، ولما كانت مداركنا البشرية ، سواء أكانت حسا أم عقلا أم
قلبا ، مدارك محدودة مقيدة كانت المعرفة بالله أعسر المعارف .

ويرى سيدى ابن عطاء الله — رضى الله عنه — أن القلب كلما زهد فى
الدنيا ، وانعدم منه الهوى والحرص والأمل ، وازداد ايمانه ثم توحيده ..
امتلا بالتوحيد فصار عرشيا وشرفت فى الملأ الأعلى صفاته وعلت فى الملا
الأسفل معرفته .. واكتملت بنور اسم الذات بصيرته ، وتخلق باخلاق
الله ، وصارت الأسماء الحسنى وصفه ونعته ، وصار محققا مستبصرا
فانيا فى شهود المذكور عن ذكره ، وفى هذا القلب ، ورد الحديث القدسى:
« لا يسعنى عرشى ولا كرسيى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى » .

ويفسر ذلك سيدى ابن عطاء — رضى الله عنه — فيقول فى ابداع :

« ان قلب الانسان لا يسع الله مساحة ولا حلولا ولا حسا ولا حكما
وانما يسعه توحيدا ، وايمانا ، وعلما ومعرفة وايقانا ومحبة واخلاصا ،
فضلا من الله وتخصيصا » .

ويقول الامام الشعرانى — رضى الله عنه — فى التذليل على ضرورة
الاسترشاد بشيخ عارف فى السلوك الى الله تعالى : ان الامام الغزالى
طلب لنفسه شيئا يدل على الطريق ، مع أنه كان حجة الاسلام ، وكذلك

طلب الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخا مع أنه كان يلقب بسلطان العلماء ، وكان شيخ الامام الغزالي الشيخ محمد الباذاغاني ، وشيخ الشيخ عز الدين ، الشيخ أبو الحسن الشاذلي •

ويستطرد الامام الشعراني قائلا : ولما اجتمع الامام الغزالي بشيخه المذكور قال : ضيعنا عمرنا في البطالة ، يعنى بالنسبة لما ذاقه من أحوال أهل الطريق ، وكان الشيخ عز الدين — رضى الله عنه — يقول : ما عرفت الاسلام الكامل الا بعد اجتماعي على الشيخ أبي الحسن الشاذلي — رضى الله عنه وأرضاه — •

وساق الامام الشعراني — رضى الله عنه — حكاية طريفة جاء فيها أن ابن سريج الفقيه ينكر على الامام أبي القاسم الجنيد، فقال للجنيد طريقنا — يقصد الفقهاء — أقرب الى الله من طريقكم — يقصد الصوفية — فقال الجنيد : لا بد أن تأتينا ببرهان ، فقال ابن سريج ، أثت أنت لنا ببرهان فقال الجنيد : يا فلان : خذ هذا الحجر فألقه في حلقة الفقهاء فألقاه فصاحوا كلهم الله ، الله ، الله •• ثم قال له ، القه بين هؤلاء الفقهاء ، فألقاه فصاحوا كلهم : حرام عليك ، أزعجتنا •• فقام ابن سريج وقبل رأس الجنيد واعتترف بفضله ، فقال له الجنيد : انما الفضل لكم ، فان أساس طريقنا مما معكم من العلم ، فقال ابن سريج : بلى لكم الفضل ، فأنكم زدتنا علينا بحسن معاملة الله تعالى •

ويقول أمانا مالك بن أنس في لزوم الشريعة والحقيقة للمؤمن :
من تصوف ولم ينتشرع فقد ترندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تشرع وتصوف فقد تحقق ، وقوله هذا قول فصل في الموضوع ، فان أكثر أهل الطرق الصوفية في زماننا لم يتقدموا في التصوف لجهلهم بفقه الشريعة ، فتلبسوا بشبه ضارة ، ظن المعتضون على التصوف أنها حجة لهم على الصوفية وليس العيب عيب التصوف واصوفية ، انما هو عيب السالكين والمسلكين انذين ينسبون زورا ، بلا نسب صحيح ، للتصوف وأهله ، والتصوف ثمرة الدين ولبابه الخالص وأهله هم المؤمنون حقا •

ولبيان أهمية الفقه الشرعي لسالك طريق الآخرة نذكر أن ابليس انلعين حاول أن يفتن الامام الكبير ، سيدى عبد القادر الجيلانى — رضى الله

عنه — فظهر له على شكل نور ملأ عليه خلوته ، وناداه على أنه الاله ،
حاشا وكلا ، يا عبد القادر لقد وصلت الى غاية رضاي ، فحططت عنك
العبادات ، وأتحت لك الشهوات ، فافعل ما يحلو لك ، ولا حساب
عليك ..

فأجابه سيدي عبد القادر — رضى الله عنه — اخساً يا ملعون ، فقال
بماذا عرفت أنى ابليس قال .. ان الله لا يأمر بالفحشاء ، فقال : يا عبد
القادر لقد نجوت منى بعلمك ، وما أكثر من زلت أقدامهم من الجهلاء بفتنتى
هذه .

لذلك يقول شيخى العارف بالله ، سيدي الشيخ على عقل في الهاماته
الفورية المهمة التى نقلناها عنه :

وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة
أصون به نفسى عن الزين والدس
وان شرب الناس الطلا وتصيبوا
فسنة خير الخلق فى شربها كأسى
تعشقت نور الله وهو بصصيرتى
وقد وضح البرهان من آية الكرسي
وان رفع المشرعون عجباً رءوسهم
رفعت بذكر الله فوق الورى رأسى
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس
والطلا فى البيت الثانى ، أى الخمر ، لأن العرب كانت تسميها الطلاء .
ويقول أيضا رضى الله عنه فى احدى تضرعاته :

يا حبيبى زاد ذلى	فادفع الأغيار، عنى
خذ يدى انى ضعيف	للتلقى متمنى .
رب فارحمنى فانى	قد جعلت الشرع حصنى
وأهدنى وأرحم مشيى	لا تخيب فيك ظنى

وانى أباهى بشيوخى العارفين الأجلاء صوفية العصور الأولى —
علما وعملا — فقد كان علم الشرع حليتهم ، وكان نور التصوف زينتهم ،

وقد تخرجت في كلية التجارة مثقفا في التجارة والمسال والمحاسبة جاهلا بالعلوم الشرعية ، ككل خريجى الجامعات ، فلما أسعدتنى العناية الربانية بلقائهم ، وما أبركه من لقاء ، أخذت عنهم الشريعة والطريقة والحقيقة . والشريعة هي أن تعبد الله ، والطريقة هي أن تقصده وتجاهد نفسك في سبيله ، والحقيقة هي أن تشهده ، فلا تغفل عنه لأنه ليس غافلا عنك .

وبفضل تثقيفهم اياى تشرفت بالمحاضرات عديدة بالازهر المعمور وغيره ، ونفع الله بمحاضراتى كثيرا من الشبان المثقفين ثقافة مدنية أو دينية ، وارتاد بعضهم مجلسى ، راغبين في فقه الدين ، فعلمتهم فقه العبادات على مذهب الامام مالك — رضى الله عنه — وهو الذى تلقينته عن شيخى العارف بالله الشيخ على عقل ، وكان اقبالهم على درس الفقه سببا في تأليف كتاب في الموضوع ، وهو الآن في سبيل الطبع ، وسأوزعه هدية دون ثمن ، حسبة لوجه الله تعالى ، وراعت أن يكون سهل العبارة ، خاليا من التفريعات الجزئية ، وقد تفضل بمراجعته الاستاذ الجليل الشيخ صالح شرف ، عضو جماعة كبار العلماء ، وسكتير عام الازهر سابقا ، وقدم للكتاب فأننى عليه بحمد الله ، وهو كتاب مبسوط تزيد صفحاته عن الثائمائة صفحة ، نفع الله به ، وجعله خالصا نوجهه الكريم . ثم انى لقينتهم التصوف على طريقة سيدى الامام الجليل الداج محمد أبى خليل ، قدس الله سره ، وهى طريقة الذكر الكثير والمدد الغزير .

ومن يمن طالعى انى صحبت شيوخى الصوفية الأجلاء ، في شبابى الباكر ، فأنىح لى أن أعائسهم طويلا ، فعاشرت شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — طيب الله ثراه — خمسة عشر عاما ، وعائس بعده تلميذه الأنور سيدى الشيخ على عقل نحو أربعة أعوام ، فبلغت صحبتى له نحو تسعة عشر عاما ، وكنت أحرص أن ألتقى باحدهما وبكليهما يوميا ، والمنهل العذب كثير الورود .

ومن عجب أنهما تدرجا بى في العلم والمعرفة بلطف وحسن مأخذ ، فقد استأذنت في مبدأ صحبتى في السفر الى قريتى ملاطية التابعة لمحافظة المنيا بصعيد مصر ، لأقضى أجازتى ، مع والدى وأهلى ، فبادرنى شيخى — الشيخ على عقل — رضى الله عنه — وقال لى : اقرأ بمسجد البلد درسا في الحديث أيام الأجازة ، فقلت في الحديث النبوى

الشريف ؟ قال نعم ، قلت وهل لمثل ذلك الشرف ، ولا علم لى بالحديث الشريف ، قال : لا شأن لك ، فقلت ساعتبر هذا أمرا من شيوخى أتلقاه بالمسمع والطاعة دون جدل ، والأمر لله من قبل ومن بعد •

ولم يكن لدى حينئذ أى مرجع من مراجع الحديث الشريف ، فطلبت الى أحد تلاميذ شيوخى من العلماء أن يوافينى ببعض الاحاديث فى رسالة يبعث بها الى بالبريد ، وسافرت ، وجاءتنى الرسالة متضمنة أربعين حديثا من الصحاح فحفظتها عن ظهر قلب ، وكانت هى باكورة البركات التى تواتت على بعد ذلك • وجاءت الاجازة التالية فاذا بتسديدى الشيخ على يأمرنى أن أعلم الناس بالمسجد فقه العبادات على مذهب الامام مالك ، واختار لى كتاب الشرح الصغير للامام الدردير — رضى الله عنه — فأدركت أن الشيخ يريد منى أن أتعلم وأتفقه قبل أن أعلم وأفقه غيرى ، واختار لى مذهب الامام مالك لأنه منتشر ببلاد الصعيد بوجه عام ، وأراد الشيخ أن أكون متعلما ومعلما فى آن واحد ، وهى من أعاجيب الشيخ •

وصدعت بأمر الشيخ ، وتففقت وفقهت غيرى فى آن واحد ، وأرجأت المسائل الصعبة حتى أتيتته وقلت له مازحا ما رأيت أحدا قبلك يعين مدرسا قبل دراسته ، فضحك • فقلت له : أما وقد أردت منى أن أخوض البحر الخضم ، فعلمنى كيف أعوم على أصول ، فأذن لى أن ألقاه كل عصر ، لأتلقى عنه الفقه والحديث والقراءة ، فكانت من أسعد أوقاتي ، جزاه الله عنى خيرا ، وكان يجول بى فى جميع المذاهب يبين لى سند الحكم عند كل امام ، وكان يغرف من فيض الهى •

وكان سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى — رضى الله عنه — مباركا أخذى عن سيدى الشيخ على — رضى الله عنه — وقد ذهبت لزيارته مرة ، فبادرنى بعد السلام عليه وقال : اجلس واقرا على بعض القرآن لانظر ماذا علمك الشيخ على ، فقلت مازحا : امتحان مفاجىء ، فقرأت بضعة أرباع من أول سورة البقرة ، ثم كان — رضى الله عنه — يأمرنى أن أتكلم فى بعض المناسبات ، كمولد النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم كان يعيرنى أو يهدى الى بعض مؤلفات والده العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى — رضى الله عنه — وكانت كثيرة وفى كل فنون انشريعة وما يتصل بها ، وقد انتفعت بها ونفعت ولة الفضل والمنة •

وهكذا كان التدرج ، التلقين حتى وقفت على ساقى ، وشققت بنفسى
طريق التوسع بالاطلاع والتوفيق ، وأرجو أن أكون على الدوام سالكا
دربهم ، ملتزما طريق الهدى والصلاح والفلاح ، الذى رسمه شيخنا
الأكبر قطب عصره ، ومجدد قرنه ، سيدى الحاج محمد أبو خليل ،
مربى الرجال ، فى طريق الوصال .. وباعث الهمة فى أهل المحبة ، والذى
بسر الليل فى نوره القلبى الوضاء ، ليكشف لتابعيه حجاب الغفلة فيجنتبوه
ويبين طريق الحق فيسلكوه ، بأنوار الشريعة وأسرار الحقيقة .
ويالها من أنوار ويالها من أسرار عند هؤلاء الاقطاب الابرار ، الذين هم
ودائع الله فى خليقته وصفوته فى بريته ، أمدنا الله بمددهم ، وألحقنا
بزميرتهم يوم يجسر المتقين الى الرحمن وفدا حين يكون ما قال سبحانه
« يوم ندعو كل أناس بإمامهم » .

ترقى الذاكِر

« ان للذكر نورا يظهر من الباطن الى الظاهر ، وتكون له بوادر وطوالع . فيكون هناك اشراق على الوجه يجذب الأرواح ، فتتلاصق الطوالع في الذاكِر ، وتكون دليل الذاكِر في أحواله وكلامه ومخاطباته ، وتكون باب الهداية للغير . »

فاذا ترقى انذاكر اشتد الهامه ، ويترقى بعد الاحوال الى مقامات القرب حتى يتحول من النظر للدنيا الى الآخرة ، فلا يكون بينه وبين الله حجاب وتصير روحه مع الله سبحانه وتعالى فلا يرى غيره ويتحول الاشراق من الظاهر الى الباطن ، حتى تتأجج نفسك أين النور الذي كنت أراه ولا تدري أنه مع الله ، زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله » .

جاءت هذه السطور في رسالة بعث بها العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك صديقى السيد سالم جمعة ، زاده الله فضلا وتوفيقا ، وهى ترينا أثر ذكر الله تعالى فى أرواح المؤمنين فى بداية سلوكهم وفى وسطه وفى نهايته .

أما فى البداية فان الذكر يخرج القلوب من غفلتها الى اليقظة فتكون أشبه بالنائم الذى استيقظ بعد نوم ثقيل وأخذ يستعيد نشاطه شيئا فشيئا ، حتى يتنبه لما حوله ، تنبه اليقظ فيعنى ما يقول أو ما يقال له فاذا تيقظ القلب بذكر الله بعد تمام الغفلة داخلته الأنوار وواتته الاسرار على قدر درجته فى اليقظة وما قدره الله له من رزق القلوب .

فاذا كان مقدرا له أن يكون داعيا الى الله باذنه ، خرج كلام قلبه على لسانه وله حلاوة يذوقها السامع بوجوده ويرجو منه المزيد ، وما خرج من القلب حل فى القلوب ، فكان سببا فى ارشادها وهدايتها .

واذا تكلم السادة الصوفية عن الذكر فانهم يقصدون به عموم ذكر الله وخصوصه ، والمقصود بذكر الله فى عمومه ، تجنب الغفلة عن الله

تعالى : والمقصود بخصوصه فراغ القلب من كل شيء الا من الله سبحانه حتى أنهم يقولون في معنى قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) أى سليم مما سوى الله •

فمن عموم الذكر ، جميع العبادات ، لأنها فرضت ليذكر العباد ربهم فيها ، اما مناجاة وخضوعا كالصلاة واما شكرا على نعمائه كالزكاة ، أو مراقبة له في اسرارهم كالصيام ، أو هجرة في سبيله ونفقة في مرضاته كالحج ، وهذا كله على أساس الشهادة بافراده وتوحيده ، والاعتراف برسالة رسوله الأمين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، نطقا باللسان ، وتصديقا بالقلب •

وما تستلزم هذه العبادات من فقه بأحكام الشرع فيها ، يدخل في عموم الذكر ، كما يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما حض عليه الاسلام أو أوجبه من اقامة الروابط بين المسلمين كبر الوالدين وصلة ذوى الأرحام وعيادة المرضى ، وتشجيع الجنائز وجهاد الأعداء والاصلاح بين الناس وكذلك اجتناب المعاصي من الزنا وقتل النفس وشرب الخمر والقمار والتجسس والغيبة والنميمة ... الخ الخ •

ذلك بأن المؤمن لا يقيم العبادات ولا يأتي الطاعات ولا يجتنب المنهيات الا تنفيذا لأوامر الله ونواهيه ، فهو في كل ذلك ذاك ربه ومراع حدوده • ولكن هذه الأمور وان تكاثرت لا تستغرق وقت المؤمن كله فالصلوات ذات أوقات وكذلك سائر العبادات والطاعات •

أما ذكر الخصوص عند السادة الصوفية فهو الذى يستولى على فراغ القلب بالكلية بالليل والنهار سرا وعلانية فلا يبقى معه حيز لغيره سبحانه ، وفى ذلك هم يقولون :

العابدون متصفون بطاعة الله مقبلون على عبادة الله محترفون باستشعار الخلوص فى تقوى الله •

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله ، معرضون عما يوجب التهمة فى ضمان الله •

والعارفون ان قاموا قاموا بالله ، وان سكتوا سكتوا بالله ، فكيف دارت أوقاتهم ، وتصرفت أحوالهم ، فالغالب على قلوبهم ذكر الله ،

لاح لأسرارهم منه علم فذهب عن احساسهم كل وهم ، أذاقنا الله مما أذاقهم شمة ، فهو ولى كل نعمة .

وتلك الدرجة العليا دونها عقبات لا يصبر على اجتيازها الا نفر قليل من أهل المجاهدات ، الذين لا تعرف هماتهم الملك ، ولا عزيبتهم الكلال وهم يقولون من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل . وانما يطلبون رضاء الله سبحانه ، ورضاؤه أعز مطلب ، وأعلى منال ولا ينال غاية رضاه من في قلبه سواء .

وأول عقبة يجتازها أحدهم ، عقبة هم الرزق ، ذلك الهم الذى الهى أكثر الناس عن طلب الآخرة ، حتى كأنهم خلقوا للعالم ولم يخلقوا للآخرة ، وفى ذلك يقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه :

كان ابتداء توبتى أنى رأيت غلاما فى سنة قحط يهرح زهوا ، والناس تلوهم الكآبة لمقاساة أثر القحط (قلة المحاصيل) فقلت له : يا هذا ، ما هذا المرح أما ترى ما فيه الناس من المحن فقال : ما يحق لى حزن ولسيدى قرية مملوكة يدخر منها ما أحتاج ليه .

فقلت فى نفسى ان هذا العبد مخلوق ولا يستوحش لأن لسيده قرية مملوكة ، فكيف يصح لى أن أستوحش وسيدى مالك الملوك فأنتهيت وتبت .

ولتقتهم بالله فى تدبير معاشهم يقولون: ان الله خص الأغنياء بالأرزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، ، وقد قيل لأحدهم من أين تأكل فقال من خزائن ملك لا تدخلها اللصوص ولا يأكلها السوس .

فاذا طرخوا عن قلوبهم هم الرزق ثقة بالله الذى كفل الأرزاق لعباده ومخلوقاته جاهدوا أنفسهم فى ترك المعاصى خوفا من سخط الله الذى نهاهم عنها وحذرهم منها ، ثم أقبلوا على الطاعات طمعا فى مرضاته سبحانه وهو الذى رسمها لهم ، وأمرهم بها . وفى ترك المعاصى مخالفة لهوى النفس وفى الاقبال على الطاعات إثارة لله تعالى على حظوظها ، ومخالفة هواها أهم عندهم من أعمال البر ، لأنهم يقولون : أعمال البر يعملها البار والفاجر ولا يجتنب المعاصى الا صديق .

ولأن النفس لا تستجيب لهم فى نبذ هواها بسهولة فانهم يدخلون معها فى معترك شديد ، لا يراه الناس وانما يراه الله سبحانه بعلمه الذى

لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولأنه سبحانه هو الحق ، فإنه ينتصر للحق على الباطل فتكون الغلبة لهم في نهاية الشوط على باطل نفوسهم ، فيثبتهم على الحق ، ويكشف لهم طريقه ويذيقهم بعد مرارة المجاهد حلاوة النصر ولذة التوفيق مصداقا لوعده الكريم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وبذلك الهدى الرباني يأمنون الزل حتى يلقوا ربهم على خير في إيمانهم •

ويقول السادة العارفون : إن أمان العبد على قسمين قسم مؤجل وقسم معجل ، فالمؤجل يكون يوم القيامة في الجنة كما يقول سبحانه (أولئك لهم الأمن) والمعجل يكون في الدنيا ويؤمنهم الله به من خواطر الشيطان التي تقدح في الإيمان ، بما يتيح لهم من واضح البرهان ، ويتيح لأسرارهم من لائح البيان •

فاذا عارضتهم بوارح الشكوك ، أو ناظرهم من هو في حكم المخالف للكتاب والسنة والجماعة ردوا بالحجج على أهل البدعة وغيروا وجه الشبهة ، قال تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فيكون المخالف في أسر التهمة وامتداد الظلمة ، وهم في روح اليقين ، والنور المبين لا يداخلهم شك ، ولا تنازعهم شبهة •

وهم يعنون عناية كبيرة بذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى ليذكرهم سبحانه كما يذكرونه (فاذكروني أذكركم) ويقول الامام القشيري رضى الله عنه في تعقيبه على قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) •

أراد به سبحانه التسميات ، ولذلك قال الحسنى وهي تأنيث الأحسن ، ففي الآية دليل على أن الاسم هو المسمى ، وهو سبحانه واحد والأسماء جمع فلا بد من صرف اللفظ عن الظاهر إلى المجاز فلماذا قلنا إن المراد به : والله التسميات •

ووصف أسمائه بالحسنى يرمى إلى ما تتضمنه وتدل عليه من صفات العلو ونعوت العظمة والكبرياء أو إلى ما يستحقه الذكور والداعي له بتلك الأسماء من جزيل الثواب وحسن المسآب •

واستطرد ، رضى الله عنه ، يقول بعد ذلك في ابداع واضح :

ولأن تكون بأسماء ربك داعيا ، خير لك من أن تكون بأسماء نفسك مدعيا فانك اذا كنت بك كنت بمن لم يبق ، واذا كنت به كنت بمن لم يزل ، وشتان بين وصف ووصف •

وأهل الهمة هؤلاء يضعون نصب أعينهم الآية الكريمة (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) ويقولون في تعقيبهم عليها :

دلت الآية على وجوب الاستقامة ، فان الاصطبار نهاية الصبر ، ومن صبر ظفر ومن لازم وصل ، وقد قيل : من أدام قرع الباب يوشك أن يفتح له وأنشدوا :

انى رأيت وفي الأيام تجسرية
للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد في شيء يطالبه
فاستصحب الصبر الا فاز بالظفر

وعندهم ان تعظيم العبد لربه انما يكون على حسب كماله ومعرفته ، ولذلك يقول الامام القشيري رضى الله عنه : لو كنت تعرف قدره لما كنت تنترك أمره • ويقول بعض العارفين : عجت لمن يترك الحلال مخافة الداء ولا يترك الحرام مخافة النار •

وهم يشددون في ترك المخالفات ويقولون لا يعرفه سبحانه عزيزا الا من أغز أمره وطاعته أما من استهان بأوامره فمن المحال أن يكون متحققا بعزة مولاه •

وفي المعنى المتقدم حكوا أن رجلا قال لبعض العارفين : كيف الطريق اليه فقال لو عرفته عرفت الطريق اليه فقال أترانى أعبد من لا أعرفه فقال المسئول : أو تعصى من تعرفه ؟

وهم يشجعون المريدين على التوبة من المعاصي في أول سلوكهم فيقولون انه تعالى قال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) أخبر سبحانه عن الذى يأتى السيئات بالفعل ثم يستغفر الله بالقول فانه يجد الله غفورا رحيما فقد سهل الله عليك الأمر حين رضى منك أن تستغفره بالقول من عمل سوء عملته بالفعل ، ثم

انظر في قوله تعالى (يجد الله ..) وأى نكتة لمن يعقلها ، طلبوا المغفرة فوجدوا الله رب المغفرة ، فالعجب من عاص طلب المغفرة فوجد الله تعالى .

ويقول في ذلك أستاذنا العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه الهاما لوقتته :

لو كان كالطود ذنبى فى ضخامته
وقلت يارب عنى الذنب قد مسح
الذنب يحزننى والعفو يفرحنى
فاعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحاً

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى يفتح للنفوس بركات التوفيق وللقلوب زوائد التحقيق ، فبتوفيقه تزين النفوس بالمجاهدات ، وبتحقيقه تزين القلوب بالمجاهدات ويقولون أيضا أنه سبحانه يرزق الأرواح والسرائر ، كما يرزق الأنسباح والظواهر .

أما ما يقوله سيدى الشيخ رضى الله عنه من أن الذاكر اذا ترقى اشند الهامه ، فيرقى من الأحوال الى مقامات القرب حتى يتحول نظره من الدنيا الى الآخرة فلا يكون بينه وبين الله حجاب ، وتصير روحه مع الله سبحانه وتعالى فلا يرى غيره الخ فيوضح ذلك لنا سيدى الامام القشيري رضى الله عنه فيقول :

اعزاز الله لعبده يكون فى الدنيا والآخرة ، فأما فى الدنيا فيكون بالمال والحال ، فالمال لتجميل الظواهر والحال لتزيين السرائر وبالمال يستغنى العبد عن الاشكال والامثال (أى من الناس) وبالحال يحصل له افتقار الى من لم يزل ولا يزال (سبحانه) فالاعزاز بالمال فيما بين الخلق والاعزاز بالحال على باب الحق .

ثم يقول رضى الله عنه : واعلم أنه سبحانه يعز الزاهدين بعزوف نفوسهم عن الدنيا ، ويعز العابدين بسلامة نفوسهم عن الرغائب والمنى ، ويعز أصحاب العبادات بسلامتهم عن اتباع الهوى ويعز العارفين بتأهيلهم لمقامات النجوى ويعز المحيين بالكشف والغنى عن كل ما هو غير وسوى ويعز الموحدين بشهود جلال من له البقاء والبهائم .

وأما ما يقوله سيدي الشيخ في ختام عبارته : زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه إلا الله ، فيبينه لنا سيدي الامام القشيري في ابداع واضح فيقول :

وصفة الجمع ألا يكون العبد لنفسه بنفسه ، بل يكون لربه بربه ، وإذا علم أن مولاه يسمع ما يقول ويرى ما يختلف به من الأحوال فإنه يكتفي بسمع الله وبصره عن انتقامه لنفسه وانتصاره بنفسه ، فإن نصرته الحق سبحانه أتم له من نصرته لنفسه •

ويستطرد رضى الله عنه قائلا : قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) ثم أنظر بماذا سلاه ، وكيف خفف عنه أثقال بلواهم بما شغله به عنهم فأمره به حيث قال تعالى : (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى اتصف أنت بمدحنا وثنائنا اذا تأذيت بسماع السوء فيك، فاستروح بروح ثنائك علينا •

ويقول أبو على الدقاق رضى الله عنه : ان الله تعالى قال مخبرا عن ابراهيم عليه السلام (انى ذاهب الى ربى سيهدين) كان ذاهبا في الله فلماذا صار ذاهبا الى الله : فذهابه في الله أوجب ذهابه الى الله •

ويقول السادة العارفون انه تعالى لطيف بعباده ومن لطفه بهم أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة قال سبحانه (واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) والأسباغ ما يفضل عن قدر الحاجة ، وقال تعالى في صفة التكليف (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال تعالى : (ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم) — والاصر الثقل والأغلال الشدائد — وقال صلى الله عليه وسلم (بعثت بالحنيفية السمحة السهلة) — الحنيفية أى الشريعة المائلة عن كل دين باطل — وقال صلى الله عليه وسلم (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) •

ويقولون كذلك : ان الله تعالى حين أوجب على العبد في اليوم والليلة خمس صلوات لم يكلفه أن يؤديها مرة واحدة ، بل جعلها عليه مجزأة ، فصلاة يومك لم يقبضها منك دفعة واحدة واعطاك من الرزق ما يكفيك لسنين كثيرة فلا تسخط ولا تتبرم •

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه في روعة بالغة :

ومن لطفه تعالى بالعباد حفظ التوحيد في القلوب وصيانة العقائد عن الارتياح وسلامة القلوب عن الاضطراب ، قال تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وبقاء المعرفة بين وحشة الذنب أعجب من اخراج اللبن من بين فرث ودم — الفرث تفل الكرش — ولكن جرت سنته سبحانه لحفظ كل لطيفة بين كل كثيفة ، بل أجرى سنته باخفاء الودائع في مواضع مجهولة ، فكما جعل الحجر الصلد معدن الذهب والفضة وكثير من الجواهر جعل كذلك القلوب معادن العقائد الصافية والمعادن الصحيحة. وكما جعل الغار للمصطفى والصديق مأوى والجب ليوسف مئوى والصدف للدر درجا والنحل للعسل مكانا والدود للحريز محلا كذلك جعل قلب العبد لمحبتة ومعرفته مستقرا .

ويقول الامام كذلك :

ومن لطفه بالعباد أنه يوفقهم لذكره والرجوع اليه ومناجاته ورفع الحوائج بحضرته ودوام المناجاة معه متى شاءوا مع كثير ما يتعاطونه من مخالفة أمره ، فسبحانه ما أحلمه على العاصين ، وأكرمه للمؤمنين .

ويقول إلسادة الصوفية : ان الله تعالى يجازي العبد على اليسير من الطاعات بالكثير من الدرجات قال تعالى : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) والله سبحانه أنعم على العباد بجميع ملاذ الدنيا وكرائمها ثم عد ذلك قليلا فقال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) ثم انه تعالى يقبل اليسير من طاعة العباد ويثني عليهم بالكثير قال تعالى : (.. والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) فكم كان عمرهم حتى عد ذكرهم كثيرا .

ويعقب سيدى الامام ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه على قوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) فيقول : يخرجهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان ومن ظلمة المعصية الى نور الطاعة ومن ظلمة الغفلة الى نور اليقظة ومن ظلمة الحس الى نور المعنى أو من ظلمة الكون الى نور المكون .

ويقول بعض الصوفية ليس في الدنيا ما يشبه نعيم الجنة الا ما يجده الذاكرون في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة .

وهم يقولون ان الناس في شهود الأنوار الباطنة على ثلاثة أقسام ،
قسم يشهدونها على البعد وهم أهل مقام الاسلام وقسم يشهدونها على
القرب وهم أهل المراقبة من مقام الايمان وقسم يشهدونها على الاتصال
وهم أهل المعرفة من مقام الاحسان . فأهل مقام الاسلام أنوارهم ضعيفة
كأنوار النجوم وأهل مقام الايمان أنوارهم متوسطة كجوار القمر وأهل
مقام الاحسان أنوارهم ساطعة كأنوار الشمس .

بل قال بعضهم أن نور أولياء الله أعظم من نور الشمس والقمر . وعللوا
ذلك بأن نور الشمس قد يعتريه الكسوف ونور القمر قد يعتريه الخسوف
أما قلوب الأولياء فلا تكسف ولا تخسف وفي ذلك قيل :

هذه الشمس قابلتنا بنور
ولشمس اليقين أبهر نورا
فأيننا بهذه النور لكن
بهاتيك قد رأينا المنيرا

ولهذا قال سيدي الشيخ زروق رضى الله عنه : شمس القلوب لا تغيب
أبدا بل هي دائمة لا تنقطع وباقية لا تنصرم لبقاء مددها ، وهي معاني
الأوصاف الربانية والمتعلق بها متعلق بحقيقة لا تنصرم ، ومن هذا الوجه
كان غنى القوم بالله لا بالأسباب ، وتعلقهم به سبحانه لا بشيء دونه .

وفي ذلك يقول شيخى العارف بالله سيدي الشيخ على عقل في الهامة
الفورى الذى أخذناه عنه :

فنشئت كل الخلق عن علم فلم
أر لى سوى رب السما من وال
فتركت كل العالمين وجئته
وجعلت ذكرى ذاته منوالى
يا نفس انى لا أمالى غيره
قومى الى حوض الكريم تعالى
ان الذى فهم المحبة قلبه
فى القدر من بين البرية عال

ويقول أيضا رضى الله عنه :

ان تكن نشوة الضلوع بخمر
قد جعلنا هداه للروح خمرا
ان ذكرنا وقد سكرنا بروح
فسكارى ولم نذق بعد سكر

ويقول كذلك رفع الله في أوليائه قدره :

أمسى على أرق اشتاق في حرق
بالدمع في غرق قصدى محيا
الحب يكسبنى عزى ويلبسنى
ثوب الوثار ويهدينى للقياء
وان أراد السهى بامرئ شرفا
يرى المحبة مبناه ومعناه
طال المدى وفؤداى لا يفارقه
والحب ان دام تذكينا حميا
لا أنثنى عن هواه لحظة أبدا
وكيف أسلو وقلبى بيت جدواه
أرواحنا قال فيها الحق من قدم
ها هم رجالى وان المقصد الله

والجدوى هي العطية .

وينوه رضى الله عنه بأن ذكر الله تعالى كان بابا الى محبة الله
تعالى فيقول :

ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى
ولكنهم بالذكر قد شغلونى
وكنيت خليا لست أعرف ما الجوى
ولكنهم بالحق قد شغلونى
خلا حبسه فهما ووجدا ورغبة
لذلك كل الخلق قد رغبونى
أطوف بوجدانى على كل عاشق
فألقى احتراما ان هو شهدونى
والجوى هو الشوق الشديد

ألا رضى الله عن أسلافنا الصالحين وعن شيوخنا المباركين ، الذين رأينا في مسلكهم لله تعالى مثلاً من الأولين وقدوة للآخرين والحق واضح والطريق لا تحج والداعى قد أسمع التخلف بعد ذلك إلا من قصور وتقصير . أما أهل العزم فمنهم الاقبال ولهم القبول وليس مع الهمة إلا بلوغ القمة ولا ظفر إلا بالصبر ولا حصاد إلا بالزراع ، ولأ حياة الأ بالقوت ولقد أقام الله الأسباب ليفتح بها لعباده الأبواب بابا بعد باب فمن طرح الفتور وأزال القشور كشفت له الحقائق وظهرت له القائق ووقف بعد جهاده على الدقائق وبان له الفرق بين البداية والنهاية وبين العبد الآبق والمحب الذائق فالأول يضرب فى أرض التيه ولا يهتدى سبيلا والثانى يرد بحار الجمال فيعرف ويعرف ويشرب ويطرب ثم يصدر عن رى لا ظماً بعده • وكيف يظماً من سقاء ربه شراباً طهوراً ولقاه نضرة وسروراً (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب) •

محاسبة النفس وتقوى الله

« وأنا أبرأ الى الله مما قيل بغير حق ، فأوصيك بالتقوى ، واطلب من الله المزيد من الأعمال الصالحة ، فهو المعطى سبحانه وتعالى ، وجد واجتهد ولا تقل عمت كذا ، بل خذ ساعة من نهارك وليك ، وحاسب نفسك بين يدي ربك ، وعلمها الأدب معه ، واستصغر نفسك أمام الله ، فلا تعرف سواه ، فهو العليم الحكيم القادر المقتدر ، وارض بقضائه وقدره ، وكن مع القضاء حيث أراده الله لك ، واترك أمورك بين يديه ، فانك لا تعلم الخير في تعجيل المسائل أو تأجيلها » .

ذلك مما كتب سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه مد الله فى عمره وزاده من فضله ، وهى نصيحة غالية كما تراها ونحن أحوج ما نكون للانتصاح بها ، فهى تدعو الى تقوى الله تعالى والهمة فى طلب مرضاته ومحاسبة النفس فى سلوكها معه سبحانه ، واستقلال الكثير من عملها فى جنبه تعالى ، والركون اليه ، والاعتماد عليه ، والرضا بحكمة ، لأن أفعاله كلها حسنة وان خالفت ما نريده ، وهو تعالى يعلم مالا نعلم .

وانما أراد الشيخ لتلميذه أن يسلك فى ايمانه طريق الخواص من عباد الرحمن الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاستقامت ظواهرهم وبواطنهم ، وساروا الى الله على نور من ربهم ، وتأسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله والفرق كبير بين هؤلاء وبين عوام المؤمنين الذين قال الله لهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) . وعلى الرغم من أن عوام المؤمنين لم يصدقوا الله فيما عاهدوه عليه فانه سبحانه حذرهم من غضبه ، ولم يسلبهم وصف الايمان بل ترك لهم فرصة لتوبتهم واصلاح شأنهم حتى تتفق أفعالهم مع أقوالهم والله غفور يقبل توبة التائبين ويعفو عن كثير .

فأهل الايمان ليسوا سواء ، فمنهم ذاكرا وغافل ، اما الذاكرون فانهم يسعون في تقوى الله ومرضاته وأما الغافلون فانهم مفرطون في الطاعات ومقيلون على الشهوات فاذا دهمتهم الحوادث هرعوا الى الله يجأرون ودعوه أن يكشف الضر عنهم ، فلم يعرفوه سبحانه على الدوام في العسر واليسر ، والبلاء والرخاء ، أما الذاكرون فافتقارهم الى الله قائم ودائم ففى الرخاء هم راضون شاكرون ، وفى البلاء هم صابرون مسلمون ومع ذلك هم فى معترك مع أنفسهم يستنهضون همتهما فى الطاعات والاجاهدات ، ويتهمونهما على مر الأوقات بأنها مفرطة فى جنب الله ، الذى أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وهم فى ذلك يقولون : كيف يصح لعائل الرضا عن نفسه ويوسف الصديق يقول (وما أبرئ نفسي ان النفس لأماراة بالسوء الا ما رحم ربي) •

فلا تعجب بعد ذلك أن ينصح الشيخ تلميذه ، فيوصيه بالتقوى وطالب المزيد من الأعمال الصالحة من ربه المعطى الوهاب ، كما يوصيه ألا ينسب لنفسه عملا ويمن به على الله صاحب المنة والفضل العظيم (وما بكم من نعمة فمن الله) •

والتقوى كلمة قليلة فى معناها ، كثيرة فى معناها ومما يدل على عظم معناها أن القرآن الكريم يدور كله حول قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله) فالتقوى اذن تتضمن — فى أساسها — الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره وسائر الايمانات •

ثم تتضمن بالتبعية طاعة الله ورسوله وذلك بفعل المأمورات وترك المنهيات ، وهو ما يقتضى مجاهدات ظاهرة وباطنة ، لا يحرص عليها ويوفق اليها الا السابقون بالخيرات باذن الله •

وانك لا تستطيع أن تدرك من التقوى عظم شأنها الا بعد أن تتدبر طويلا فى قول الله عز وجل (انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) •

والمقصود بالأمانة فى الآية الكريمة التكليف الشرعية التى حملنا الله اياها ، ولا يصل الانسان الى تقوى الله الا اذا أدى تلك التكليف كما يحب الله ورسوله ، وهذا يفسر لنا ما نبهنا الله اليه من العناية بفهم كتاب

الله الكريم والاصغاء التام لأوامره ونواهيه في مثل قوله تعالى (واذكروا ما فيه لعلكم تتقون) والمؤمن مخاطب بالقرآن الكريم كلمة كلمة وحرفا حرفا ، وقد يسره الله للذكر ، فهل من مدكر •

وقد كان أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه يتغير لونه اذا جاء وقت الصلاة ، فكانوا يقولون له :

مالك يا أمير المؤمنين فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان فلا أدري أحسن أداء ما احتملت أم لا •

والمأمل في قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) يرى ولا شك أن الله حاضر معنا ويرى ما يقع منا من خير وشر • فيجب أن نعامله معاملة الحاضر لا معاملة الغائب ، فان اجترحنا السيئات التى نهانا سبحانه عنها كان في اجتراحها الدليل القائم على غفلتنا عنه مع ما نهينا اليه في كتابه الخالد من أنه حاضر معنا ويرانا في منقلبنا ومثوانا ويعلم سرنا وجهرنا •

ومما تقدم تعلم كيف تفاوتت رتب المؤمنين في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) فالأولون ظلموا أنفسهم أو ظلمتهم أنفسهم الأمانة بالسوء حين أطلقوا لها العنان في الشهوات ، والأوسطون ذوو نفوس لوامة تغفل حيننا وتتيقظ حيننا ، واذا غفلت تابعت هواها واذا تيقظت ندمت على ما فرط منها وتابت الى الله فتابت الى رشدها بعد الغي ، أما السابقون فهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وفهموا عن الله فساروا الى الله وأعرضوا عما سواه ، فأنسوا به واستوحشوا من غيره ، فهم أجسام روحانيون وفي الارض سماويون •

وهؤلاء السابقون بالخيرات هم أهل السعادة الحققة ، فان لهم في الدنيا جنة المعرفة ، ولهم في الآخرة جنة الزخرفة التى ورد فيها حديث البخارى فقد روى بسنده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن الله تعالى « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا ان شئتم » فلا تعلم ففس ما أخفى لهم من قررة أعين » •

وما أبدع ما يقوله سيدي ابن عطاء الله السكندري رضى الله عنه في الفرق بين عوام المؤمنين وخواصهم حين يقول في حكمه : اهتدى الراحلون اليه بأنوار التوجه ، والواصلون لهم أنوار المواجهة فالأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم لأنهم لله لا لشيء دونه (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) •

والتقوى تقتضى المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن يحول بين المؤمن وبينها بعض المعوقات أو الموت ، وقد وعظنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بالغة حين قال لنا صلوات الله وسلامه عليه (بادروا بالأعمال سبعاً قبل طرء سبع ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر) وهو بهذا يشرح لنا قول الله تعالى (فاستبقوا الخيرات) •

ويقول الامام سهل بن عبد الله المسترعى رضى الله عنه : أول الانس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصاً ، فيأنس العبد بالله أى يسكن اليه •

ويدلنا السادة الصوفية على الميزان الذى نعرف به منزلتنا في سيرنا الى الله فيقولون : اذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فاعرف قدر الله عندك ، وهو كما ترى ميزان قسط ، وقد نبه اليه أستاذى العارف بالله سيدي الشيخ على عقل طيب الله ثراه في فتوحاته الشعرية المهمة التى سجلناها سماعاً منه فقال :

وإذا أردت بأن توازن بينهم فزن الرجال بحب ربك واصطف
ثم استطرده فدلنا على علامة حبه سبحانه فقال رضى الله عنه •
وإذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى حافظ على آياته بتلief
وانهض بروحك نهضة قدسية ولسنة المختار في السير اقتف
وأرشدنا رضى الله عنه الى اخلاص النية والصبر في العبادة وذكر الله تعالى فقال :

لا تذكر البارى بقصد ولاية أو أن تكون على السما لا تنطفئ
بل فابغ وجه الله جل جلاله من رام غير جنبه لم يشرف
واصبر فان الصبر عنوان الوفا لا يدرك التقوى سوى القلب الوفى
ليس التصوف بالكلام وانما صدق الفعال قرارة المتصوف

ولا يبلغ المؤمن درجات المتقين الا بالورع ، وقد قال الامام ابن سيرين ،
رضى الله عنه ، ليس شيء أهون على من الورع ، اذا رابنى شيء تركته ،
ولا شك أنه استضاء فيما يقوله بالحديث الشريف (الاثم ما حاك في
صدرك) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابي رضى
الله عنه (استفت قلبك وان أفتاك المفتون) وقد يفتى أهل الفتوى بشيء
لا يرتاح اليه القلب النقي فيترك المؤمن ما يريبه الى ما لا يريبه وقد قال
تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم
سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) والفرقان نور في القلب
يفرق به بين الحق والباطل وقد زكى مولانا رسول الله صلى الله عليه
وسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال ان الله جعل الحق
على لسان عمر وقلبه ، ولذلك لقبه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالفاروق أى الذى فرق الله به بين الحق والباطل .

ويحرص السادة الصوفية على أكل الحلال حتى يقبل الله عبادتهم
ويعرفون الحلال فيقولون : الحلال هو الذى لا تعصى الله فيه ، والحلال
الصافى هو الذى لا تنسى الله فيه . ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
رضى الله عنه فى دعائم العبادة : وجدت العبادة فى أربعة أشياء : أولها
أداء فرائض الله تعالى ، والثانى اجتناب محارم الله تعالى ، والثالث الأمر
بالمعروف ابتغاء ثواب الله تعالى ، والرابع النهى عن المنكر اتقاء غضب
الله تعالى .

وأما محاسبة النفس التى يدعو سيدى الشيخ اليها تلميذه ، فانها من
نهج السلف الصالح ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول :
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزن عليكم . وقد
شكا اليه جماعة من امام عينه عليهم وقالوا له انه يصلى بنا ثم يغنى فساله
أمير المؤمنين أحقا أنك تصلى ثم تغنى قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال ماذا
تغنى قال أغنى وأقول :

وفؤادى كـلـمـا عـائـتـهـ

عاد للذات يـغـنى تـعـبـى

لا أراه الدهر الا لاهـيـا

فى تماديه فقـد بـرح بـى

يا قرين السوء ما هذا الصبا
فنى العمر كذا في اللعب
وشباب بان منى فمضى
قبل أن أقضى منه أربى
نفس لا كتت ولا كان الهوى
اتقى المولى وخافى وارهبى

فنظر أمير المؤمنين للشاكين وقال لهم : من كان منكم مغنيا فليغن
هكذا ، لأنه رأى الامام يحاسب نفسه فيما يتغنى به . وقد كان الصحابي
الجليل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه يقول : ان قيامى بالحق لله تعالى
لم يدع لى صديقا ، وان خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدنى لحما ،
وأن يقينى بثواب الله تعالى ما ترك فى بيتى شيئا ، وقد كان سيدى
عبد الوهاب الشعرانى يقول : ومما من الله به تعالى على تفتيشى صباحا
ومساء لكل جارحة من جوارحى الظاهرة والباطنة لانظر ما فعلته
كل جارحة فى ذلك النهار أو فى تلك الليلة من الطاعات أو المعاصى لأشكر
الله تعالى أو أستغفره .

وقد نصح سيدى الشيخ تلميذه أن يجد ويجتهد فى مرضاة ربه مراعى
فى نصيحته هذه قول الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وفى
ذلك يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل الهاما لوقته من كلام كثير :

واسالك سبيل الأقدمين
من وخلص ذكر الله وردك
يا قلب انك ان ترد
باب الاله فلن يردك
البس لباس تقى وسر
تدرك بفضل الله رفدك
ودع الحيلة اذا دعت
وانظر لما خلدت بعدك
انا قد خلوت عن الورى
وجعلت حبى فيك وحدك

وأخذت ذكرك غبايتي
وتبعت بالايمنان جنـدك
يا قلب مالك غيره
بعد المات يعيد ذكرك
اياك أن تأوى الى
دنيا تضر ولن تمـدك
مهما أقمت بها فلن
تلقى على الأيام خلدك
ستزول عنك بصفوها
وسيضحك الباقون بعدك

وأما ما يوجه اليه سيدي الشيخ من الرضا والتسليم بقضاء الله فانه
من كمال الايمان ، لأن مايجرى به القضاء هو من حكم الله الذي يجب أن
يقابل بالصبر الجميل تنفيذا لقوله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه
وسلم (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) ويقول سيدي أحمد البدوي رضي
الله عنه : من وصل الى مقام التسليم فاز برياض النعيم • ويقول سيدي
أحمد الحلواني والد سيدي عبد السلام رضي الله عنهما :

أفعله محكمة وقل من يفهمها
يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها —

ويعلق على البيتين بقوله : ما فرحت بشيء من نظمى قط فرجى بهذين
البيتين ، وأرجو أن ينفعاني غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكرهما في
النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها •

ويقول القطب الكبير سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

ويقول السادة الصوفية : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ، ورضاء
الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل
ما سواه وهو كلام نفيس فاحرص عليه وانتفع به •

ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما يقول له : أما بعد فإن الخير كله في الرضاء ، فإن استطعت أن ترضى والا فاضبر . كما أنه رضى الله عنه كان يصف رضاء بالقضاء فيقول في استواء البلاء والرخاء عنده : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب .

ولا تعجب أن يقول أمير المؤمنين عمر ذلك فإنه كان يقول في فلسفته العالية التي يتحلى بها خواص الخواص : ما من بلاء يصيبني الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الأولى أن البلاء وقس في دنياي ولم يقع في ديني ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، النعمة الثالثة أن الله منحني صبرا عليه فاحتملته ، النعمة الرابعة أن الله ادخر لي ثواب الصبر عليه .

أما مولانا الامام أبو عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه فقد مات له ابن فلم ير الناس عليه الجزع الذي يروونه على الآباء حين يفقدون الأبناء فسألوه في ذلك فقال شارحا رضاء بقضاء الله تعالى : نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا فإذا أراد ما نكره فيما يجب رضاءنا . وبذلك دلنا رضى الله عنه على أننا يجب أن نشكره تعالى على العطاء وكما نشكره على العطاء يجب أن نصبر على البلاء لأنه سبحانه هو المقدر للعطاء والبلاء على السواء .

ويقول سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه : من عرف الله لا يكون له غم أبدا . وسئل في معنى تلك الكلمة فقال معناها كلمة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبح سرورى في مواقع القضاء والقدر ، ولذلك سمعوا سيدى الشبلى ينشد :

ذاب ممسا في فؤادى بدنى
وفؤادى ذاب ممسا فى البدن
فاقطعوا حبلى وان شئتم صلوا
كل شىء منكمو عندى حسن

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل في فتوحاته الملهمة .

رضاء الفتى بالله يشرح صدره
فلن يتأذى بالحوادث والخطب

ونحن أولو علم ولكن بوجدنا
شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب

كما يقول رضى الله عنه :

حياة الورى حلو ومر وانما
حلا المر بالتوحيد من رقة الحس
وانك لو عظمت دينك عالما
وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس
وكننت على الأحداث بالله راضيا
سواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدت من الدنيا بربك محسنا
ونلت من الأخرى العطاء بلا بخر
إذا قيل لى أطلب قلت ربي مطلبى
وان قيل اشرب قلت أنواره كأسى

ولا يظن القارىء الكريم أن ما قاله سيدى الشيخ بعيد المنال ، فقد
رأيت بنفسى منه صبر أولى العزم حين فقد أكبر آبائاه وكان فى نحو
العشرين من عمره فصبر صبورا جميلا حتى كأنه لم يصب بشيء ، وقد
أخبرت سيدى عبد السلام بعجبى من ثباته وصبره فى ذلك الحادث الأليم
فقال لى رضى الله عنه ، أنا والشيخ على هكذا تأتينا المصائب فلا ننترحزح
فقلت فى نفسى (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) •

وفيلسوف سيدى الشيخ على عقل علة نزول البلاء فيقول فى روعة
ظاهرة :

لولا التألم فى الحياة لما بدا
نور التأمل لامرئى قوام
لولا وقود النار فيما ينبغى
ما كان ينضج بعد أى طعام

وقد يسأل البعض وكيف يتأتى للإنسان أن يحمل هموم المسلمين اذا نزل بهم بلاء أخذوا بالحديث الشريف : من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم ، مع تسليمه ورضائه بما يجرى به القضاء ؟ والجواب على ذلك السؤال أجاب به الامام سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فقال : ان تحمل هموم المسلمين لا ينافى التسليم لله تعالى ، فيسلم العبد لله من حيث تقديره ويحمل همهم من حيث استحقاقهم ذلك كسببهم .

ومن بديع ما نصحنى به سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، حين كنت فى شرح شبابى وانتفعت به — فى حياتى — قوله لى فى احدى رسائله .

« أما عن الدنيا وما فيها ومن فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيها ، وفيها ما فيها : لأنك ان دبرت وصح التدبير وهو مطلوب شرعا ، فلا تدري كيف قضى فيه ، فان صح القضاء بالرضا فهو القضاء ، وان حصل الجفاء ، سألناه اللطف فى القضاء ، مع الرضاء على أنه الرضاء » .

وأخيرا وليس آخرا أريد أن أنبه الى ما نهى الشرع عنه من الجدل فى 'القضاء والقدر' : فقد حدث أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

(خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى أحمر وجهه ، ثم قال :
(أبهذا أمرتم ؟ أم بهذا أرسلت اليكم ، انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى الأمر ، عزمتم عليكم ألا تنازعوا) .

وسأل رجل الامام على بن ابي طالب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال طريق دقيق لا تمس فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال بحر عميق لا تخض فيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال سر خفى لا نفشيه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال ان الله تعالى خلقك كما شاء أو شئت ، فقال : كما شاء ، فقال ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، قال : كما شاء ، قال ألك مشيئة مع

مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله أو دون مشيئة الله ؟ أما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشراكة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبية على مشيئته .

وهذا الكلام منطقي ، كما ترى ، وهو درس قيم من امامنا على كرم الله وجهه . فمن تعلمه وحرص عليه تجنب السخط على المقدور ، وعاش في راحة من الرضا ، لأن قضاء الله وقدره من سلطانه المطلق الذي لا دخل لنا فيه ، ولا حيلة لنا معه ، فانما نحن عبيد ، والله يفعل ما يريد . سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

المسيب والأسباب

« اتخذ الأسباب اتباعا للأمر ، وهو المعطى عبلا ، قال صلى الله عليه وسلم (لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا) فالغدو سبب والعطاء من الله ، والطيح يغدو ملهما من حيث لا يدري ، والمؤمن اذا اتخذ الأسباب متوكلا على الله يكون كالطير الا يدري ما يتم به القضاء ، فلا يتحدى نظام الطلب ، ولا يذهب نفسه على رزقه حسرات وهو شديد الحرص على طلبه » .

ذلك مما كتب شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح التقى الصديق السيد / سالم عمر جمعة مد الله فى عمره ، وفى نصيحة سيدى الشيخ توجيه الى اتخاذ الأسباب مع حسن التوكل على الله فى ثمراتها ، وهذه قاعدة من قواعد التصوف الحق ، الذى يقوم على هدى الكتاب والسنة ، ولذلك دعم الشيخ توجيهه بالحديث الشريف : لو توكلتم على الله حق التوكل ... ثم بين لتلميذه ان الطير يغدو فى طلب الرزق ولا يقعد فى عشه انتظارا لرزقه ، لان الله ألهمه السعى عليه فى الفضاء الواسع خارج العش حيث يجد فى الزروع المختلفة ثمرات كل شئ ، وما يسره الله له أكل منه ما قدر الله أن يأكل ، فيعمود سبعان بعد أن كان غدا جائعا ، وسبحان من أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم « حق التوكل » يعلمنا ان نتوكل حقا ولا نتوكل جهلا ، فقد يترك شخص السعى على رزقه ، ويظن ان فى ذلك القعود توكلا على الله الذى تكفل بأرزاق عباده ، فى حين أنه ينتظر ان يعطف عليه الناس ، فيرسلون اليه طعامه ، فيكون متسوكلا على عطفهم من حيث يظن أنه متوكل على الله ، وقد قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم أرزقنى وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وقد قال رجل من هؤلاء الكسالى القاعدين للإمام الجليل أحمد بن حنبل رضى الله عنه : انى أريد أن أحج ولا آخذ معى زاداً لأنى سأخرج متوكلاً على الله ، فسأله الإمام : تخرج وحدك أو تخرج مع القافلة ، قال : لا بل مع القافلة ، فقال الإمام : أنت لا تتكل على الله بل تتكل على أخراج الناس .

ويقول السادة الصوفية ان التوكل محله القلب ، والحركة بظواهر الاجساد لا تنافى التوكل بالقلب ، ما دام العبد متحققاً من أن التقدير من الله تعالى ، فان تعسر شيء فبتقديره ، وأن تيسر فبتيسيره سبحانه وتعالى ، وهذا ما يفسر لنا كيف ربطت آيات القرآن الكريم بين التوكل والايمان فى مثل قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) وقوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

فالايمان بالله تعالى محله القلب ، وكذلك التوكل محله القلب ومقرن به ، والايمان بالله تعالى يستتبع الايمان بقضائه وقدره ، والايمان بالقضاء والقدر يستتبع الايمان بأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وقد أقام الله الأسباب بحكمته ، ولكن قد يتفق شخصان فى سبب من أسباب الرزق ، ويختلف رزق كل منهما مع اتحاد السبب ، ذلك تقدير العزيز العليم .

ومن هنا نفهم معنى ما يقوله سيدى ابن عطاء الله السكندرى : فلا بد لك من الأسباب وجوداً ، ولا بد لك من الغيبة عنها شهوداً ، فأثبتها من حيث أثبتتها تعالى بحكمته ، ولا تستند اليها لعلمك بأحدثيته .

وقد روى انس رضى الله عنه فقال : جاء رجل على ناقة له فقال : يا رسول الله أدعها وأتوكل ؟ (أى يتركها من غير قيد ويتوكل على الله فى حفظها) فقال صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل — فأمره ان يتخذ السبب ويتوكل على الله ، لان اتخاذ سبب الحفظ لا ينافى التوكل على الحافظ جل جلاله ، والعقل فيه حركة الظاهر ، والتوكل فيه اطمئنان القلب بالله تعالى .

ويقول الامام سهل بن عبد الله : التوكل حال الرسول صلى الله عليه وسلم والكسب سنته ، فمن بقى على حاله ، فلا يترك سنته ،

ويقول أيضا رضى الله عنه : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان • ويقول الامام الدقاق رحمه الله : للمتوكل ثلاث درجات ، التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، وقد شرحها رضى الله عنه فقال : التوكل صفة المؤمن ، والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص • وقد شرحها مرة أخرى فقال رضى الله عنه : التوكل صفة الأنبياء ، والتسليم صفة ابراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم •

ومن أروع ما يقول السادة الصوفية قولهم : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى إليه الا ثدى أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدى الا الى ربه • ولذلك هم يقولون : كن كما كنت في بطن أمك ، مدبرا (بفتح الباء) غير مدبر (بكسر الباء) مرزوقا من حيث لا تحتسب •

وهذا التفويض الذى يذهب اليه السادة الصوفية يكون بالجزم القلبي واليقين الروحي بأنه ليس مع تدبير الله تدبير ، والا مع ارادته ارادة ، ولا ينافيه اتخاذ الأسباب ، فانه تعالى يقول (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) فنسب المشى اليها سببا ورد الرزق الى تقديره جلا وعلا ونسبه اليه سبحانه ، ومع أنه عز وجل قال (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) فانه أمر باتخاذ أسباب النصر فقال تعالى مثلا (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم ••) ومن نصائح السادة الصوفية :

توكل على الرحمن فى الامر كله
ولا ترغبن بالعجز يوما عن الطلب
الم تر أن الله قال لمريم
وهزى اليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها
جنته ولكن شاء له سبب

وعلى قدر ايمان المؤمن وبقينه تكون درجة توكله ، وقد سئل أمانا على بن أبى طالب عن رجل أغلق عليه (بضم الهمة) باب الدار كيف

يأتيه رزقه فقال كرم الله وجهه : كما يأتيه أجله ، فهو لم يقعد عن طلب الرزق انما حيل بينه وبين طلبه باغلاق الباب عليه وحبسه ، فأتاه رزقه من حيث لا يحتسب ، لشدة يقينه بالله ، وقوة توكله عليه ، كما رزق الله مريم بغير سبب وهي في محرابها ، حين قالت لكافلها سيدنا زكريا عليه السلام : هو من عند الله . وذلك استثناء من ضرورة طلب الرزق من أسبابه ، ولا يصرفنا الله به عن اتخاذ الأسباب انما أراد الله به سبحانه أن يقوى بقصصه علينا حسن ظننا في الله تعالى وتثبيت توكلنا عليه ، ولا يجوز أن نفهم منه التخلي عن الأسباب ، فقد أمر سبحانه مريم عليها السلام باتخاذها في قوله الكريم (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) ، وهي بذاتها التي رزقها بغير سبب ، ومن ذلك نعلم أن الاستثناء لا يكون قاعدة متبعة في العادة .

وكما أن اتخاذ الأسباب لازم في أمر الرزق ، فهو كذلك لازم في سائر الأمور الدنيوية والدينية ، فمثلا العلم يكون بالتعليم ، والتقوى تكون بالطاعات والكف عن الشهوات ، والحياة بالطعام والشراب وهكذا ومع يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه ، وحسن توكله عليه ، وتفويض أمره اليه ، بما لا مطمع لبشر في مثله ، فانه قام الليل حتى تورمت قدماه ، وشد مؤثره وأيقظ أهله ، وقال لهم : لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم . ومن ذلك نعلم أن حسن الظن بالله تعالى والتوكل عليه ، يقتضيان أن يأخذ المؤمن دينه بقوة ، وأن يكون في عبادته من أهل الفتوة ، فلا يوسوس له الشيطان ان العبرة بالخواتيم وليس حتما ان ترتبط الخاتمة بالاعمال ، فهذا قول حق من جهة ما قضاه الله ، وما قضاه وأراد به بنا طواه عنا في غيبه ، وما أراد منا أظهره لنا وطلبنا به ، ومن ثم لا يجوز أن نهمل ما أراد منا وقد علمناه إستنادا الى ما أراد بنا ولم نعلمه ، ولا سبيل الى علمه ، وانما الغيب لله ، وهذا هو مناط التكليف .

ومما تقدم نرى أن القاعد عن طلب رزقه الدنيوى أو الأخرى انما يتحدى الأوامر الالهية ، لأنه يتحدى نظام الطلب ولذلك نهى الشيخ تلميذه عنه ، لأنه طيب الله ثراه كان يربينا على الآداب الشرعية الصحيحة التى تربي هو عليها على يد شيخه وأمام وقته القطب الكبير سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الأنور بالقازيق ، وكان

كل منهما يكسب عيشه بجهد ومن الأسباب المشروعة ، وأنفق كل منهما ماله على عياله وعلى الدعوة الى الله عز وجل ، فجاءهما المال من حله ، وانفقاه في مرضاة الله سبحانه ، وقد كان سيدي الامام ابراهيم ابن ادهم يقول : عليك بعمل الابطال ، الكسب من الحلال والنفقة على العيال .

ويقول السادة الصوفية انه اذا اشتغل الصوفي بالمكاسب ، فيجب ألا تلهيه عن أداء الفرائض في أوقاتها ، كما يجب أن ينوى بها معاونة المسلمين ، فاذا فضل شيء من كسبه ونفقة عياله أنفقه على المحتاجين فلا يجمع ولا يمنع ، وهم في ذلك يتأسون بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أعطى رجلا غنما تسد بين جبلين حتى قال الرجل أشهد أنه ما طابت بمثل هذا الا نفس نبي ، وحين كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، كان يعيش في بيته عيشة الكفاف حتى قالت سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : كنا نرى الهلال والهلال والالهلال ولا نوقد نارا ، أى انهم لا يطبخون ، ولما سئلت ماذا كانوا يأكلون ، قالت كنا نعيش على الأسودين التمر والماء .

وفي حين رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيشة الكفاف لنفسه ولآل بيته كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان أجود ما يكون في رمضان والبطون خاوية من أثر الصيام ، وفي حجة الوداع بلغ هديه الذي عقره للفقراء والمساكين في منى مائة ناقة ، وقد عقر منه بيده الشريفة ٦٣ ناقة وعهد الى امامنا على بن ابي طالب بعقر الباقي ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم منك واليك ، أى ان المال من عطائك وانى أنفقته في مرضاتك كما كان صلى الله عليه وسلم يقول للفقراء : من شاء فليقتطع أى يأخذ حاجته من اللحم .

فلا تعجب بعد ذلك أن يهب امامنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه كل ما ملك يده لله ، وحين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما الذى أبقيت لعيالك ، قال أبقيت لهم الله ورسوله ، وذلك الذى فعله لا يكون الا من أهل التمكن أى أهل الثبات واليقين . وقد وهب امامنا عمر بن الخطاب نصف ماله ، وقال : يا رسول الله هذا نصف مالى وأبقيت النصف لى ولعيالى . أما امامنا عثمان بن عفان فكان الخرج من ماله أحب اليه من الدخل ، وكان يقول : لولا أنى خشيت

أن يكون في الاسلام ثلثة أسدها بهذا المال ما جمعته ، ولذلك تراه مول جيش العسرة في غزوة تبوك بسبعمائة بعير محملة بالزاد هي وما حملت وأعطى المقاتلين عشرة آلاف دينار من ذهب ، وجاء بألف دينار أخرى فصبتها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ صلوات الله وسلامه عليه يقلبها بين يديه ويقول : اللهم أغفر لعثمان • أما امامنا على فقد أوقف أرضه التي كانت له في ينبع في سبيل الله وزهد في الدنيا وما فيها ، وكان يقف على خزانة بيت المال ويقول : يا صفراء ويا بينضاء غرى غرى لقد طلقنتك ثلاثا لا رجعة فيها ، وقد قنع بغيشة الكفاف •

هؤلاء هم الخلفاء الراشدون الذين ملكوا الدنيا ولم تملكهم ، وغلبوا الهوى ولم يغلبهم ، فكانت الدنيا في أكفهم لا في قلوبهم ، صبروا عليها حين فقدت ، وآثروا الله بأموالهم حين وجدت ، فتصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين ، لحسن فهمهم عن الله تعالى حين قال (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جمعكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) •

أما ما يقوله سيدى الشيخ : ولا يذهب نفسه على رزقه حسرات وهو شديد الحرص على طلبه ، فانما يوجه تلميذه فيه الى الرضا بما أعطى الله من الرزق وقسم ، فقد يجتهد المؤمن في طلب الرزق ويتوقع الكثير فيأتيه القليل فيسخط على قلته ولو في قرارة نفسه فيكون معترضاً على ما قضى الله وقدر ، وليس ذلك شأن المؤمن التقى أو الصوفى النقى ، بل تلك شيمة الجهلاء •

والرضا ، كما يقول السادة الصوفية — باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وقد عرفوا الرضا فقالوا هو أن يكون العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل ، وقال ابن عطاء رحمه الله : الرضا نظر القلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، بأن يعلم انه تعالى اختار له الافضل فيرضى به ويترك السخط • ولعل هذا الذى قالوه يقرب اليها فهم ما جاء في الحديث الشريف « لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فانفقوا الله وأجملوا في الطلب » •

والرضا أو السخط يتوقف على حال العبد ولا يتوقف على ماله ، فقد يكون كثير المال ساخطاً لانه يطلب الاكثر ، وقد يكون قليل المال راضياً لانه رد الامر في قلة ماله الى حسن اختيار الله له ، وكذلك

ليس الزهد سقطة المال في اليد أو بكثرتة ، فقد يكون كثير المال زاهدا
وقد يكون فقير المال غير زاهد .

ويحكى السادة الصوفية في هذه المناسبة ان رجلا بالمغرب كان من
الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده
من البحر ، وكان انذى يصيده يتصدق ببعضه ، ويتقوت ببعضه .
فأراد بعض أصحاب هذا الزاهد أن يسافر الى بلد من بلاد المغرب ،
فقال له الزاهد : اذا دخلت الى بلد كذا فاذهب الى أخى فلان ، وأقرئه
منى السلام ، واطلب الدعاء منه لى ، فانه ولى من أولياء الله تعالى ،

قال فسافرت حتى قدمت تلك البلدة وسألت عن ذلك الرجل ، فدلوني
على دار لا تصلح الا للملوك ، قال فتعجبت من ذلك ، وطلبتة فقيل لى
هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعد ساعة ، واذا هو آت فى أفر
ملبس ومركب ، وكأنما هو ملك فى موكب ، قال فازداد تعجبى أكثر من
الأول ، قال فهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به ، ثم قلت لا يمكننى
مخالفة الشيخ ، فاستأذنت فاذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من
العبيد والخدم ، وانشارة الحسنة ، فقلت له « أخوك فلان يسلم
عليك » ، قال :

جئت من عنده ؟ قلت نعم ، قال : اذا رجعت اليه قل له : الى كم
اشتغالك بالدنيا ، والى كم اقبالك عليها ، والى متى لا تنقطع رغبتك
فيها ، فقلت : هذا والله أعجب من الاول ، فلما رجعت الى الشيخ
قال : اجتمعت بأخى فلان ؟ قلت : نعم ، قال : فما الذى قال لك ؟
قلت لاشئ ، قال لابد أن تقول لى ، فاعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا
وقال : صدق أخى فلان ، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده
وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدى وعندى اليها بقايا التطلع .

وشدة الحرص فى طلب الرزق ليست مجلبة للرزق ، لان رزق
الانسان عن قدر من الله ، ورزقه لا يعطى لغيره ، كما أنه لا يعطى
رزق غيره ، وقد جاء فى الحديث الشريف عن أبى سعيد الخدرى رضى
الله عنه : « ان من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، وان
تخدمهم على رزق الله ، وان تدمهم على ما لم يؤتلك الله . ان رزق الله
لا يجره حرص حريص ، ولا يرده كره كاره ، ان الله بحكمته وجلاله

جعل الروح (بفتح الراء) والفرج في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » .

والحديث يجرنا الى حسن الاعتقاد في الله تعالى والاطمئنان الى عطائه ، ويحذرننا من أن ننظر الى الاسباب وننصرف بها عن المسبب ، ولا شيء عليك اذا شكرت من جرت نعمة الله لك على يديه ما دمت تعتقد ان العطاء عطاء الله ، وان الخلق أدوات يسخرها كيف يشاء لمن يشاء وقد قال تعالى (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم « ولا يرده كرهه كاره » نهى عن أن يحسد بعضنا بعضا على نعم الله ، لان الحسد لا يرد الله عما قضاة ويبقى وزر الحسد في صحيفة الحاسد ، ويأتى المصود رزقه من الله على رغم الحاسد .

ويعلمنا الحديث الشريف ان القانع غنى وان جاع ، وان الحريص فقير وان ملك ، لان حرصه على الزيادة يورثه الشره فيملكه المال ، ويكون كل همه فيه ، وقد يجره الحرص على كسب المال من حرام فيهلك نفسه من حيث لا يدري ، وعن انس رضى الله عنه : « من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به ، أف للدنيا وما فيها من البليات ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب » .

ويقول سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه : ميز بين ما تعطى (بكسر الطاء) وتعطى (بفتح الطاء) ، ان كان من يعطيك أحب اليك فانك محب للدنيا ، وان كان من تعطيه أحب اليك فانك محب للآخرة ويقول رضى الله عنه : عملت في القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة فأصبت في حرفين ، وهو قول الله تعالى : (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى) . وقد سئل رضى الله عنه : بأى شيء يعرف أن العبد واثق بربه ؟ قال : يعرف بأنه اذا فاتته شيء من الدنيا يحسبه غنيمة — واذا أبطأ عليه شيء من الدنيا يكون أحب اليه من أن يأتيه . ولذلك قال رضى الله عنه : اذا أردت أن تكون في راحة فكل ما أصبت ، والبس ما وجدت ، وأرض بما قضى الله عليك .

ويقول من الهامة الارتجالي استاذى وسيدى الشيخ على عقل فى
الرضا بمواقع المقدور وفى اتجاهه لله تعالى دون خلقه :

قلبى اصبر الا تكن تشكو
ونفسى لا تنى
ان اقل يا رب أنجح
فرضاء حسن ظنى
ان سألت الناس أحرم
ان سألت الله يغنى
ان سألت الناس أبعد
ان سألت الله يدنى
ان آيات التجلى
بالمعنى عرفتني
آية الوجدان روى
وشهود الله فنسى

ويقول رضى الله عنه مرة أخرى الهاما وارتجالا :

ولو ان الفتى فى الناس يبقى
عزيزا لا يمد يد الضراعة
ويذكر فقره فيقول ربى
ويذكر يسره فيقول طاعه
يتاجر فى الهدى بمقام صدق
ويجعل حبه البارى البضاعة
ويعلم أنما الدنيا متاع
وليس تدوم فى الدنيا جماعه
يظل مبيدا بالله ربى
عزيزا يرفع الرحمن باعه
وكم من مظهر علياء نفس
ويفسد حبه الدنيا طباعه

وكم من مدع فيها اقتتاعا
ولكن في شراسته فظاعه

فودع ما بأيدي الناس طرا
على خلق الكرامة والقناعه

أما والله ما للخلق إلا
رضاهم فالرضا كنز المناعة

الا رضى الله عن أسلافنا الصالحين ، الذين عملوا بما علموا ،
فورثهم الله علم ما لم يعلموا ، فنظروا الى باطن الدنيا حيث نظر الناس
الى ظاهرها ، وأهمهم آجلها حيث أهم الناس عاجلها ، وزهدوا في الدنيا
وان أقبلت عليهم ، وتحلوا بالرضا وان أدبرت عنهم (أولئك الذين
هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب) •

النور والظلام

« أما بعد فلك نظرتان ، نظرة في الدنيا ، ونظرة في الآخرة ، فنظرة الدنيا متابعة الحق ومسالة الخلق وحفظ الأمانة وحب من أحب الله اذ يقول الله يوم القيامة (أين المتحابون في) وأما الأخرى فمناجاة الله وتوجيه قلبك اليه وإلى نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعدم الركون إلى أهل الظنون ، وعدم الركون إلى ما لا يكون ، بل يسير عملك على مقتضى الهامك من باطن الأمر إلى بصيرتك التي تضاء أمام عقلك فتوصلك من دهليز الشهوات إلى دهليز الطاعات فتري بعقلك النور يزداد ضوءه أمام بصيرتك ، فتكون الرؤيا بالتدريج حتى لا تقع في أمر مريج، فتخرج بروح من عنده إلى عالم تتفرس فيه بنور الله فلا تكون عنه لاهيا ، بل تصير أواها ، فان شددت العزائم كنت الهائم في الغنائم فغفلت عن الظلمات ونسيتها في النورانيات » .

ذلك مما كتب شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد - سالم جيمعه، حفظه الله ورعا ، وهى نصيحة الشيخ العارف لتلميذه الطيع الذى حرص على وصايا شيخه كل الحرص وانتفع بها وسمح لنا بنشرها لينتفع بها كل من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، فيكون لسيدى الشيخ فضل الارشاد ، ولتلميذه أجر المناولة .

أما متابعة الحق فتكون في اتباع شرع الله ، فاذا تابع المؤمن شرع الله كفلت له متابعته الثمرات فسالم الخلق ، فلم يظلم أحدا منهم ، بل صان منهم حرمة الدم والمال والعرض كما علمه مولانا رسول الله صلى الله عليهم وسلم ، ثم خص الصالحين منهم بحب في الله تعالى ، لا تشوبه علة دنية ، أو فائدة دنيوية ، بل هو حب في الله وبالله ولله ، وقد أشار الشيخ رحمه الله إلى آثار ذلك الحب يوم القيامة فأشار إلى الحديث الشريف الذى رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله

تعالى يقول : يوم القيامة : اين المتحابون بجلالى اليوم اظلمهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى كما قال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله ، ومنهم رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، على ما رواه البخارى ومسلم .

وكذلك روى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب . كما روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم — متى الساعة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت . وفى رواية لهما قال أنس فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت ، فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى اياهم .

وروى أيضا البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه والمقصود فى ذلك الحديث الشريف أخوك فى الايمان لأنه تعالى أقام الأخوة بين المؤمنين رحما روحيا لا ينفصم عراها ، بينما قطع سبحانه رحم الدم بالكفر فقال تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » وقد حكى الله تعالى عن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام أنه تبرأ من أبيه أزر قال تعالى « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » وفى ذلك أقوى زجر عن مودتهم بسبب مخالفة الدين .

ويقول سيدى سهل بن عبد الله التسترى : من صحح ايمانه وأخلص توحيده فانه لا يأنس بمبتدع ولا يجالس ويظهر له من نفسه العداوة ، ومن داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن أجاب مبتدعا لطلب عز الدنيا أو غناها أذله الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك الى مبتدع فزعه الله نور ايمان من قلبه ومن لم يصدق فليجرب .

وقد روى الترمذى والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما دعاء طويلا كان يدعو به النبى صلى الله عليه وسلم من جملته : « اللهم اجعلنا هداة

مهنددين ، غير ضالين ولا مضلين ، صلحا لأوليائك ، وحربا لأعدائك ، نحب بحبك من أجبك ، ونعادي بعداوتك من خالفك » وهذا ونحوه تعليم منه صلى الله عليه وسلم لأئمة والا فهو في ذاته صلى الله عليه وسلم كان متصفا بذلك اليقين .

وقد كان امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يخض على مؤاخاة الصالحين فيقول : عليكم بالاخوان فانهم عدة في الدنيا والآخرة ، ألا تسمعون الى قول أهل النار « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » . وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول : والله لو صمت النهار لا أفطر ، وقمت الليل لا أنامه ، وأنفقت مالى في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبى حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ، ما نفعتنى ذلك شيئا . وكان يحيى بن معاذ رضى الله عنه يقول ولى الله ريحان فى الأرض فاذا شمه المريدون وصلت رائحته الى قلوبهم فاشتاقوا الى ربهم .

ومن نفائس ما أوصى به الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين ابن عربى — رضى الله عنه — فى كتاب الفتوحات المكية قوله فى احدى وصاياه :

« وعليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الاسلام بينهم فى أعبائهم . ولا تقل هذا ذو سلطان وجاء ومال كبير ، وهذا صغير وفقير وحقير ، ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا فى ذمته .

« واجعل الاسلام كله كالشخص الواحد والمسلمين كالإعضاء لذلك الشخص ، وكذلك هو الأمر ، فان الاسلام ماله وجود الا بالمسلمين ، كما أن الانسان ما له وجود الا بالأعضاء وجميع قواه الظاهرة والباطنة .

« وهذا الذى ذكرناه هو الذى راعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه من قوله فى ذلك : المسلمون تتكافأ دماءهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم . وقال صلى الله عليه وسلم : المسلمون كرجل واحد ان اشتكى عينه اشتكى كله ، وان اشتكى رأسه اشتكى كله .

« ومع هذا التمثيل فأنزل كل واحد منزلته كما أنك تعامل كل عضو فيك بما يليق به وما خلق له ، فتغض بصرك على أمر لا يعطيه السمع ، وتفتح

سمعك لشيء يعطيه البصر ، وتصرف يدك في أمر لا يكون لرجلك ،
وهكذا جميع قواك فتتزل كل عضو منك ما خلق له •

« فان اشترك المسلمون في الاسلام وساويت بينهم ، فأعط العالم
حقه من التعظيم والاصغاء الى ما يأتى به ، واعط الجاهل حقه من تذكيرك
أياه وتنبيهه الى طلب العلم والسعادة وأعط الغافل حقه بأن توقظه من
نوم غفلته بالتذكير لما غفل عنه مما هو عالم به غير مستعمل علمه فيه •

« واعط الكبير حقه من الشرف والتوقير ، فان من السنة رحمة الصغير
وتوقير الكبير ومعرفة شرفه ، فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا ، وفي حديث
ويوقر كبيرنا •

« وعليك برحمة الخلق أجمع ومراعاتهم كانوا ما كانوا فانهم عبيد الله
وخلق الله وان عصوا وفضل بعضهم بعضا فانك اذا فعلت ذلك أجرت •

« وافعل الخير ، ولا تبال بمن تفعله تكن أنت أهلا له ، ولتأت كل
صفة محمودة من حيث ما هي مكارم الأخلاق تتحلى بها وكن محلا لشرفها
عند الله وثناء الحق عليها ، فاطلب الفضائل لأعيانها ، واجتنب الرذائل
لأعيانها •

وأما ما يوصى به سيدى الشيخ عبد السلام من مناجاة الله تعالى
وتوجيه القلب اليه والى نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعدم الركون
الى أهل الظنون ، وعدم الركون الى ما لا يكون فقد بين فيما تلا ذلك من
كلامه أن ذلك انما يتم بترك الشهوات والنتزام بالطاعات حتى تستنير
البصيرة ويسير المؤمن بالهامه على نور من ربه •

والسادة الصوفية حين يتكلمون على ترك الشهوات لا يقصدون بها
شهوآت الجسد الحيوانية فحسب ، بل يقصدون الى جانبها أمراض القلوب
الخفية من الحقد والحسد وحب الرياسة ، وحب الثناء الخ ولذلك يقول
سيدى القطب الكبير ابراهيم الدسوقي رضى الله عنه :

« من شأن المريء ألا يكون عنده حسد ولا غيبة ولا بغى ولا مخادعة
ولا مكاذبة ولا كبر ولا شطح ولا سوء ظن •

« لا تقتنعوا ببوس اليد والرياسة ، ولا تغفروا بإجازة واعطوا بما فيها من النصائح ، واعلم أن إجازتك حسن سيرتك وإخلاص سيرتك وشرط المجاز أن يكون أبعد الناس عن الآثام ، محافظا على الصيام والقيام ، مواظبا على ذكر الله والعبد كلما خدع قدمه سيده ، وهذه هي الإجازة ، ومن قام بالاسحار ، ولزم فيها الاستغفار ، كشف الله له عن الأسرار والأنوار .

« كيف يدعى أهدكم أنه ابن طريق وهو ينام وقت الغنائم وفتوح الخزائن وتجلي الحق القيوم ، والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة ودخلوا تحت الأوامر لاستغنوا عن الأشياء ، ولكن جاءوا الى الطريق بعزل وأمرض فاحتاجوا الى حكيم والشيخ حكيم المريد ، فإذا لم يعمل المريض بقول الطبيب لا يحصل له الشفاء .

فصح عزمات عزمك ، ولج بحر الحقائق ، وسلم الأمر لله ، واقتف أوامر شيخك ، والى عصاك ولا تطلب خير نفسك من غيرك ، بل اعمل حتى تتكشف حقائقك .

« من أشغل قلبه بحب شيخ رثاه الله ، لأنه أحبه لذات الله ولولا أن الشيخ سلم لترقية المريد لمقت الله كل قلب وجد فيه محبة لسواه .

« أطلب العلم ، ولا تقف ولا تسأم ، فإن الله يقول لمسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم (وقل رب زدنى علما) وطلب الزيادة من العلم إنما هو طلب زيادة الأدب .

« ومن أراد أن يكون ابنى فليحبس نفسه في قمقم الشريعة ، وليختم عليها بخاتم الحقيقة ، وليقتلها بسيف المجاهدة ، وليتجرع مرارات الصبر في كل شيء امتثالا وأدبا » .

وأنت ترى مما تقدم أن المريد يتقدم في سلوكه على قدر جهاده وطاعة شيخه ، فتستثير بصيرته ، ويؤاتيه الهام قلبى صادق ، يفرق به بين الحق والباطل ، فيتبع الحق ، ويترك الباطل ، ويرث من وراء ذلك الورع وتجنب الشبهات ، فتقوى صلته بالله عز وجل ، فلا يكون عنه لاهيا ، بل يشند وجهه ويزداد في الله هيامه كما يثير سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله عنه .

والسادة الصوفية يعنون بتربية القلوب ، ويرون أن فقه المؤمن لا يكون بحفظ الأحكام الشرعية ودراستها فحسب ، بل يكون بتطبيقاتها وجنى ثمارها ، ويؤيدون حججهم بقوله تعالى في أهل الكفر (لهم قلوب لا يفقهون بها) ، كما أنهم يقولون :

« لا يوصل الى رعاية الحقوق الا بحراسة القلوب ، ومن لم يكن له سرف هو مصر ، والمصر لا تصفو له حسنة . كما أن السادة الصوفية يرون أن الحجب التي بين العبد وربّه لا ترفع الا اذا تخلق المريد بالأخلاق الحميدة . وهذا التخلق لا ينم الا بالمتابعة بهمة وعزم مؤكد وقد قال تعالى ان طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) .

وهم كذلك يقولون : « أصولنا سبعة أشياء ، التمسك بكتاب الله تعالى ، والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة وأداء الحقوق . كما يقولون : « صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء معرفة أربعة : فأول ذلك معرفة الله تعالى ، والثاني معرفة النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد الله ووعيده ، فمن عرف الله تعالى قام بحقه ، ومن عرف النفس استعد لخالفاتها ومجاهدتها ، ومن عرف الموت استعد لوروده ، ومن شهد وعيد الله تعالى ينزجر عن نهيه ويخضع لأمره .

والسادة الصوفية يعيشون في صلتهم بالله تعالى بين الخوف والرجاء ، وعندهم أن الخوف والرجاء بمثابة الجناحين للطائر ، لا يطير الا بهما معا ، ويفسر لنا سبب ذلك سيدى أبى سعيد بن الأعرابى فيما كتبه في صدر رسالة بعث بها لأحد أصحابه :

« كلاكُم الله كلاءة الوليد ، وألحقنا وإياكم بصالح العبيد ، الذين كشف عن قناع قلوبهم ، فشاهدوا الوعد والوعيد ، فمن كان منهم خائفا فالرجاء منهم غير بعيد ، ومن كان منهم راجيا فالخوف في قلبه عتيد .

« فهم بمحبته صائلون ، ولهيئته خاضعون ، بسطتهم المحبة والرجاء أن يكونوا قانطين ، وقبضهم الخوف أن يكونوا مخدوعين أو آمنين ، فهم بين الخوف والرجاء واقفون ، فقد ألقاهم الشوق ، وأزعجهم الذوق ،

فحسن الظن قائدهم ، وخوف القوت سائقهم ، والتوفيق رائدهم .
والحب مطيتهم ، طالبين مطلوبين ، منورة لهم أعلام الطريق ، معجورة
لهم المناهل تلوح لهم بالعوائد ، منقلبين بالطرف والفوائد » •

كذلك نرى السادة الصوفية في دعواتهم بين الخوف والرجاء فهذا
سيدي يوسف بن الحسين رضى الله عنه يدعو فيقول :

« اللهم انا نبات نعمك ، فلا تجعلنا حصائد نقمك ، اللهم اعطنا ماتريدك
منا ، يا من أعطانا الايمان به من غير سؤال ، لا تمنعنا عفوك مع السؤال ،
فانا اليك آيبيون ومن الاصرار على معصيتك تائبون ، فانا اليك ذاعنون
تائبون •

« اللهم تقبل ما مننت به علينا من الاسلام والايمان الذي به هديتنا ،
واعف عنا ، الهى نعمك محيطة بنا ، وأنت المذخور لشكرها ، وعزتك
أشكرك أحد الا بك » •

ومن دعاء سيدي يحيى بن معاذ رضى الله عنه •

« اللهم ان نجيتنى نجيتنى بعفوك ، وان عذبتنى عذبتنى بعدك •
رضيت ما بى لأنك ربي وأنا عبدك ، الهى أنت تعلم انى لا أقوى على
النار ، وأنا أعلم انى لا أصلح للجنة ، فما الحيلة الا عفوك » •

كما كان رضى الله عنه يدعو ويقول :

« الهى وسيدي ومولاي ، ومن جميع الأشياء مغناى ، ضيعت نفسى
بالذنوب فردها على بالتوبة ، أنت تعلم ان الكريم من عبادك يعفو عن
ظلمه ، وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم الأكرمين فاعف عني » •

« الهى انك تعلم أن ابليس عدو لك ولى ، وليس شيء انكى لكمدك
وأقطع لكيدك من غفرانك لى ، فاعفر لى يا أرحم الراحمين •

وكان شيخى وسيدي العارف بالله الشيخ على عقل يقول في فتوحاته
المهمة التى نقلناها استماعا منه :

يارب أنت علمتى لم تخف منى خافية
سقى يزيد وانما آيات عقوقك شافية

وكان رضى الله عنه يتعلق بمحبة الله ، ويراهها وقاية للعبد من عقاب
الله تعالى فيقول :

إذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى اليه
وما تثنى الذنوب عن الحب
حياتى حياة المذنبين ومهجتى
لهما أدب فى الحب جل عن الذنب
أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتى
فلمست كبعض الناس أنسب للتقرب
فيارب ان زادت ذنوبى فأننى
وثقت بأن الفضل أوسع من عيى
فان كان ذنبى مبعدى عنك لحظة
فأنك غفار الذنوب بلا ريب
وان كان لى مما فعلت جريمة
فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبرى
وما لذتى الا التجائى لوجهكم
فوجهكمو دون العوالم لى قطبى

ويبين من أبياته المتقدمة أن محبة الله كانت مغراجه الى الله فان كان
بحكم بشريته قد هفا وأذنب ، فانه بفضل محبته تمسك بمغفرة ربه ، فى
قوة يقين ، وسعة رجاء ، ويؤكد ذلك بقوله :

أملى عفوك الذى	منه أرجو متابى
أن روحى بحبه	قد ترقى ورقى
وتواصت بحقه	واستقامت وقامى
بالهدى صاننى وقد	بعث نفسى برغبى
بين عز وحكمه	أكمل الله نعمتى

وما دام شيخنا قد تمسك بمحبة ربه ، فهو لا يعبأ بملامة اللاتمين من
الجاهلين الذين لم يذوقوا طعم المحبة ، لذلك يقول رضى الله عنه :

من يطلب الرحمن جل جلاله	لم يخش بعد ملامة من شأن
ان حدثوا عنى مغرم	تمسك بالواحد الديان
أسموا بروحى فى حماه وأنتمى	فالعشق تاجى واليقين عيانى

وهو يتشرف بمقام المحبة وإن رآه الجاهلون مخطئا في محبته العارمة
فيقول :

إن كان حب الله خنبي عتدهم هذا لعمرك في المقام كفاني
ولمست أنسى خلوة لشهادته الفوري ، رحمه الله ، حين سأله سائل
في حفل كبير إن يأتي له بأبيات عن وزن البيت التالي وقافيته :
يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده
فقال فوراً في ابداع ظاهر :

يا ليل الصب متى غده	لسريض ملت عسوده
ما كان هواي لغانية	أ وكان لطبي أعهده
بل لاسم الله وفي أسم	الله وباسم الله أوحده
فيريني العفو فأعبده	ويريني الفضل فأحمده
إن عز الناس بما لهمو	عزى دين أنعمده
أنا فان منى عنى بل	بك باق يسلم سؤده
ولديك هداى ومنك	منى ومنك عطائى أشده
فمتى ألقاك وبى شغف	أقيام الساعة موعده

ولا تعجب أيها القارئ الكريم أن يكون وجد شيخنا كما وصف فهو
الذى يقول مرة أخرى :

سألت فوفانى رجوت فزادنى	وإن كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى	وأسرى على علم بقلبي أواصله
وهل يدرك الآيات إلا رجالها	وهل يعرف الوجدان إلا مزاوله
وذو الوجد لا يغفو عن الحب لحظة	به عاش حتى لو أصيبت مثائله
شهدنا وشاهدنا وطابت نفوسنا	فهاجت به أرواحنا اذ نسائله
أسامر ليلى خاليا بشهوده	وقلبي بنور الحق غاضت مناهله

ويقول السادة الصوفية أن أول الوجد رفع الحجاب ، ومشاهدة
الرقيب وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ومصادقة السر . ولذلك قال
سيدي الشبلى رضى الله عنه :

فلما أرائى الوجد أنك حاضرى شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت معلوما بغير تكلم ولاحظت موجودا بغير عيان

وقال سيدي أبو سعيد الأعرابي رضى الله عنه :

« الذى يحجب العبد عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب ، لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فإذا انقطعت الأسباب ، وخلص الذكر ، وصحا القلب ورق وصفا ، نجعت فيه الموعظة والذكر ، وحل من المناجاة فى محل غريب ، وخطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر طاهر ، فشاهد ما كان منه خاليا ، فذلك هو الوجد ، لأنه وجد ما كان عنده عدما معدوما •

أقول وسل فؤادك عن قوم قال فيهم جل جلاله «يحبهم ويحبونه» وقد اصطفاهم على غيرهم من البشر ، فعاشوا بأبدانهم بين الناس فى الأرض وبأرواحهم بين الملائكة فى عالم الملكوت ، وهو ما يعبر عنه سيدي الشيخ على عقل فى قوله :

نعم نحن من أبناء آدم عنصرا	ولكننا فوق السموات نكرم
إذا كانت الأجساد تروى من الثرى	فانا بنور الله نروى وننعم
أتصبنى أنساه فى العمر لحظة	وكيف وقلبي باسمه يترنم
أفاض على الحق من بحر نوره	فقلبي بغير الحق لا يتكلم
ولولا حجاب الغفلة اليوم فوقنا	تفانى على نور المشاهد مغرم

وقد رأينا له همة خارقة فى المجاهدات ، فسهر ليله قرابة أربعين عاما حتى قبضه الله راضيا مرضيا ، ولا يتم ذلك الا عن وجد لازمه وعاش به لله تعالى ، وقد قال العارفون بحق : حب الواجد افراد الواحد ، وقد كانت كلماته تنفذ الى قلوبنا فتحركها من سكونها ، وتشوقها الى العالم الأسنى ، جزاه الله عنا خيرا كثيرا •

وقد ذكر عن أبى الحسين النورى ، رحمه الله ، أنه اجتمع مع جماعة من المشايخ فى دعوة فجرى بينهم مسألة فى العلم وهو ساكت ، قال فرفع رأسه فأنشدهم هذه الأبيات :

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
فبكائي ربما أرقها وبكاهها ربما أرقني
هي ان تشكو فلا أفهمها واذا أشكو فلا تفهمني
غير اني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني

قالوا فما بقي في القوم أحد الا قام وتواجد لما أنشد التوري تلك
الآبيات •

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك ، واسلك بنا سبيل أصفياك وخاصتك
الذين جعلتهم حزبك وقلت فيهم « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم
المفلحون » •

التوكل

« توكلت وسلمت ، وأنا لا أملك التوكل والتسليم الا بأمره ، فلا نمجده ولا نستعين به الا بحوله وقوته ، فمنه واليه أمرى ، فهو الرب المجيد القادر ، توكلت عليه فى أمورى كلها ، فى رزقى ، وقيامى ، وقعودى ، وعبادتى ، وسعيا ، فان شاء وفقنى وجعلنى من المؤمنين الموفقين ، وان شاء حولنى الى ما يريد » ..

جاءت السطور المقدمة فى رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى - طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه ، مد الله فى عمره ، وزاده فضلا ونعمة ، وفى تلك السطور ، وهى أحرف من نور ، توجيه الى التوكل على الله تعالى فى الأمور كلها ، وكفى بالله وكيفا .

والتوكل عند السادة الصوفية مقام شريف ، ومعناه عندهم اعتماد القلب على الله تعالى ، ثقة بوعده (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ففى هذه الآية الكريمة رد سبحانه المتوكلين اليه ولم يردهم الى غيره ، وقد أمر عز وجل بالتوكل أحب أحبائه وأصفى أصفائه ، سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم) وقال أيضا (وتوكل على الله وكفى بالله وكيفا) .

والسادة الصوفية حين يدعون الى التوكل لا يعنون به ترك الاسباب بل هم يأخذون فى الاسباب معتمدين على فضل الله فى ثمراتها ، وراضين بالنتائج مهما كانت ، رادين الأمر له سبحانه ، فان أعطوا شكروا ، وان لم يعطوا صبروا ، لأن التوكل عندهم يقتضى الرضا والتسليم ، ومن ثم يتركون اختيار نفوسهم اكتفاء باختيار الله لهم ، فهم مع القضاء كالهباء فى الهواء يحركه كيف شاء .

ويساعدهم على التوكل قوة يقينهم بالله تعالى ، واليقين نور فى القلوب يشاهدون به أنه لا فاعل الا الله تعالى ، والاسباب أدواته فى المعطاء

وليست هي الرازقة ، بل لئه سبحانه هو الرزق ذو القوة المتين ولذلك
نرى سيدنا الخليل ابراهيم عليه الصلاة والسلام يرد أمه ^سه في
الدنيا والآخرة الى الله تعالى الذي قال حنكيا ماكان منه في سورة
الشعراء (الذي خلقنى فهو يهدين • والذي هو يطعمنى ويسقين •
واذا مرضت فهو يشفين • والذي يميئتنى ثم يحيين • والذي أطمع
أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين • رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين
واجعل لى لسان صدق فى الآخرين • واجعلنى من ورثة جنة النعيم •
واغفر لأبئى أنه كان من الضالين • ولا تخزنى يوم يبعثون • يوم
لا ينفع مال ولا بنون • الا من أتى الله بقلب سليم) •

فأنت ترى من ذلك أن سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام رد أمره
كله فى الدنيا والآخرة الى ربه جل وعلا ، وسأله سؤال المحتاج اليه
فى الدارين ، ولا تعجب أن يكون هذا شأنه فقد ألقاه أعداؤه فى النار :
فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : ألك حاجة يا ابراهيم ؟ فقال : أما
اليك فلا ، وأما لربى فحالى يغنى عن سؤالى • فكان سبحانه عند
يقينه به وثقتة فيه فقال جل وعلا (يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم)
فنجاه الله من حر النار ببرد اليقين والتوكل على الله رب العالمين ، وقد
قال العلماء لو لم يقيد الله بردها بالسلام لقتل من شدة بردها •

وهذا ما يفسر لنا قول سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه :
فمنه واليه أمرى ، فهو الرب المجيد القادر ، وقد كتب الامام أبو القاسم
الجنيد رضى الله عنه الى بعض اخوانه :

« من أشار الى الله ، وسكن الى غيره ابتلاه الله تعالى ، وحجب
ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه ، فان أفتبه وانقطع ممن سكن اليه ،
كشف الله ما به من المحن والبلى ، وان دام على سكونه لغير الله ،
نزع الله تعالى من قلوب الخلق الرحمة عليه ، وألبس (بضم الهمزة)
لباس الطمع ، فتزداد مطالبته منهم ، مع فقدان الرحمة من قلوبهم •
فتصير حياته عجزا ، وموته كعدا ، ومعاده أسفا ، ونحن نعوذ بالله من
السكون الى غير الله » •

ونحن نحمد الله أن قيض لنا شيوفا صالحين ، رأينا فيهم ومنهم
مشرب السابقين الأولين من عباد الله المتقين ، فى التوكل على الله

وحسن الظن به ، والاعتماد على الله ، والاتجاه في السر والعلن اليه ، فهو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم • وصديق الامام سهل التستري في قوله : لا معين الا الله ، ولا دليل الا رسول الله ، ولا زاد الا التقوى ، ولا عمل الا بالصبر • وفي قوله : ما من قلب ولا نفس الا والله مطلع عليها في ساعات الليل والنهار ، فأَيُّما قلب رأى فيه حاجة الى سواه سلط الله عليه ابليس • وفي قوله : البلوى من الله على وجهين : بلوى رحمة وبلوى عقوبة ، فبلوى الرحمة تبعث صاحبها على اظهار فقره الى الله وترك التدبير ، وبلوى العقوبة تبعث صاحبها على اختياره وتدبيره •

وعند السادة الصوفية أن من فاته الايمان بربه فقد فاته كل شيء ، وهم يقولون بحق : الفوت أشد من الموت ، لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق • وقد قيل ليحيى بن معاذ : اخبرنا عن الله ، ما هو ؟ قال اله واحد • قيل : كيف هو ؟ قال : ملك قادر • قيل أين هو ؟ قال بالمرصاد • قيل : ليس عن هذا نسأل ، قال يحيى فذاك صفة المخلوق ، فأما صفة الخالق فما أخبرتكم به • فعلمهم بذلك أنه تعالى لا يحصره مكان ، وكيف يحصره المكان وقد سبق وجوده المكان والزمان ؟

ويحكى أحد تلاميذ ابي حفص النيسابوري فيقول : كنت أخاف الفقر مع ماكنت أملك من المال ، فقال لى يوماً أبو حفص : إن قضى الله عليك الفقر الا يتدر أحد أن يغنيك ، فذهب خوف الفقر من قلبي رأساً • وكان أبو حفص يقول : الكرم طرح الدنيا لمن يحتاج اليها والاقبال على الله لاحتياجه اليه • كما كان يقول : من رأى فضل الله عليه في كل حال أرجو الا يهلك • وسئل رضى الله عنه : من الرجال ؟ فقال : القائمون مع الله تعالى بوفاء المهود ، قال تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) • وكان رضى الله عنه يقول : ما أعز الفقر الى الله وأذل الفقر الى الأشكال (أى الناس) •

ويذكرنا الله سبحانه بافتقارنا اليه فيقول عز وجل (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ، ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز) ويقول سيدى منصور بن عمار :

سبحانه من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية
الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة
وقلوب المتوكلين أوعية الرضا .

والزهد عند السادة الصوفية هو الا: تفرح بوجود في الدنيا
ولا تحزن على مفقود فيها عملا بقوله (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا
تفرحوا بما آتاكم والله الا يحب كل مختال فخور) وهم يقولون ان المؤمن
قد يملك الدنيا ويذهب فيها ، فاذا سألتهم عن الامثلة قالوا لك انظر الى
الخلفاء الراشدين أو الى عمر بن عبد العزيز ، فهؤلاء ملكوا المشارق
والمغرب ولكنهم لم يفتنوا بملك الدنيا ، ونظروا الى الآخرة وعملوا لها
ماوسعهم الجهد البشري فحكموا نفوسهم ، ولم تحكمهم نفوسهم ، وقد
جاء في حكمهم : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك .

ويقول شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل في الهامه المرتجل
محذرا من هوى النفس ، وكان أحد الحاضرين قد سأله أن يرتجل
على وزن البيت الاتى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به .
دون الذى تملو به فى ذاتها

فأجاب رضى الله عنه فورا بما يبهز العقول فى وصف النفس ،
وبما يؤكد للسامعين أن الهامه من عطاء الله تعالى لاوليائه :

(عجبا لها تهوى الذى تهوى به)
كم عالم قد زل من نزاعاتها
تنأى عن الإصلاح طول حياتها
وتواصل الاقبال فى شهواتها
وقفت على الدينار حسن بلائها
فأمالها عن هديها وهداتها
قد رحبت بالسيئات مريضة
وتضج ان دعيت الى حسناتها
والنفس أعدى صاحب تبلى به
قد أدخلتنا النار من رغباتها

ان أنت تنصحبها تصل طريقها
واذا تركت غرقت في حشرات

ومضى يتدفق رحمه الله الى أن قال :

ترضى تسفلها لكل نقيصة
(دون الذى تعلو به فى ذاتها)

ويقول رضى الله عنه فى خضوع الناس جميعا لحكم القضاء ، ويدل
على ذلك بأن رزق الذكى قد يضيق وأن رزق الغبى قد يتسع ، فيقول :

كل خلق العباد عندى سواء
يفعل الله فيهم ما يشاء
كم ذكى قد عاشن وهو فقير
وغبى يصفو عليه الثراء

وينصح سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه كل مؤمن
فيقول له :

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله علمك بأنه لم يخرجك الى
ملكته الا وقد كافاك ومنحك وأعطاك ، فلم يبق لك حاجة عند غيره ،
كما يقول رضى الله عنه :

منى أعطاك أشهدك بوه ، ومنى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك
متعرف اليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك •

ويقول كذلك رضى الله عنه :

كفى بك جهلا أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا (بضم المهزة)
وتشغل قلبك بما عندهم ، فتكون أجهل منهم ، لأنهم اشتغلوا بما أعطوا
واستغلت أنت بما لم تعط •

ويقول أيضا :

للزاهد فى الدنيا علامتان ، علامة فى فقدها ، وعلامة فى وجودها ،
فالعلامة التى فى وجودها الايثار منها ، والعلامة التى فى فقدها وجود
الراحة منها ، فالإيثار شكر لنعمة الوجدان ، ووجود الراحة منها شكر
لنعمة الفقدان •

ومن الحوار الطريف الذي اطلعت عليه ، حوار جرى بين رجل وبين الصوفي الكبير حاتم الاصم فقد قال ذلك الرجل لحاتم : من أين تأكل؟ فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : يلقي عليك الرزق من السماء؟ فقال لو لم تكن الأرض له لكان يلقي على الرزق من السماء ، فقال الرجل أنتم تقولون الكلام ، فقال حاتم : انه لم ينزل من السماء الا الكلام فقال الرجل : انا لا أقوي على مجادلتك ، قال حاتم لان الباطل لا يقوم مع الحق .

ويقول السادة الصوفية ان من علامات المعرفة أنك لا تسأل حوائجك قلت أو كثرت الا من الله تعالى ، أئست ترى أن موسى عليه السلام احتاج الى رغيف فقال (رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) واشتاق لرؤية ربه جل وعلا فقال (رب أرنى أنظر إليك) فلجأ الى الله تعالى فى الحاليتين .

ويقولون أيضا ان الله تعالى يعز عبده فى الدنيا والاخرة ، اما فى الدنيا ، فيعزه بالمال والحال ، والمال يكون لتزيين الظواهر ، والحال يكون لتزيين السرائر ، وبالمال يستغنى المؤمن عن أمثاله من الخلق ، وبالحال يحصل له الانتقال الى من لم يزل ولا يزال سبحانه ، فالاعزاز بالمال يكون فيما بين الخلق ، والاعزاز بالحال يكون على باب الحق .

ومن رحمته تعالى بعباده أنه وكل بهم ملائكة يحفظونهم من البلاء والافات ، فقد قال تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) فهو الذى يحفظ مالك ودينك وحالك وقوتك وعيالك ، فلو رفع عنا رعايته فى ذلك كله لهلكنا ، ولكن أكثر الناس لا يفتنون لهذا الفضل الكبير .

وعند كلامهم على حسن التوكل يضرب لنا السادة الصوفية المثل بما وقع من أم موسى فى حسن توكلها على الله ، حيث ألهمها الله أن تلقى به فى اليم متوكلة على ربها فى حفظه ، ويقولون فى تعقيبهم على تلك القصة : انظر كيف ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين ، وكيف حفظ لها طفلها ، وكيف رده اليها .

ويعلمنا السادة الصوفية ان التوكل ينتهى بنا الى الرضا ، والرضا هو أعلى مقامات اليقين ، وقد جاء فى الحديث الشريف : ذاق طعم

الإيمان من ، رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا ، وهم يقولون ان الشكوى الى الله تعالى مما يصيب المؤمن لا تنافي الرضا ، لأن الرضا معناه الا تعترض على حكم القضاء ، ويستدلون على ذلك بأن سيدنا أيوب عليه السلام شكى الى الله مما أصابه فقال (انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) ولكنه مع ذلك كان صابرا على البلاء وراضيا بالقضاء وشهد الله له بذلك فقال تعالى (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) فشكواه الى الله لم تنف عنه الصبر أو الرضا ، والله المطلع على سريره الذى أثنى عليه ومدحه .

وقضاء الله تعالى نافذ لامحالة ، رضى العبد أو كره ، اذ أنه لا معقب على حكم الله تعالى ، ويقول سيدى الامام عبد القادر الجيلانى : ان شرط الرضا أن يكون بعد وقوع القضاء ، أما قبل وقوع القضاء فانه يكون من باب العزم على الرضا .

وقد فرقوا بين العبادة والعبودية فقالوا ان العبادة هي الائتمار بأوامر الله تعالى والانتهاى بنواهيه سبحانه ، أما العبودية فهي الرضا بما يجرى به قضاؤه ، وقد قالوا : الرضا بمواقع المقدور نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، كما قالوا : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ، ورضاء الخواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه .

وقد حكى لنا سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه مثلا مما وقع له في توكله فقال انه احتاج للمال يوما ولم يرد أن يسأل الناس شيئا فأمسك بورقة وكتب فيها : من كان رزقه على الله فلا يحزن ، قال ثم طويت الورقة ووضعنها في جيبى ، وبعد وقت قصير جاءه زائر على غير موعد وقدم له مبلغا من المال معتذرا له في تأخر أدائه ، وكان ذلك الزائر قد اقترض المال من سيدى الشيخ ولم يتيسر له أدائه الا في ذلك اليوم وكان سيدى الشيخ يعلمنا كثيرا بالامثلة العملية التجريبية فذلك أوقع في تربية النفوس ، وأبلغ أثرا في التوجيه لمكارم الاخلاق .

والسادة الصوفية حين يقولون باسقاط التدبير ، لا يقصدون به ترك اتخاذ الانساب ، بل يقصدون به الراحة النفسية التى تؤدي الى ان يتفرغ المؤمن عن الشواغل فيتمكن من الاقبال على الله تعالى حتى

يصل الى الله بأن يعرف الا فاعل الا الله فينسب ... الفضل الى الله فيما يوفق اليه من الأعمال الصالحة مع الرضا بحكمه سبحانه فان تم له ما يريد فمن فضل الله ، وان لم يتم فذلك من قدر الله لحكمة يعلمها سبحانه ويجهلها العبد .

وعند السادة الصوفية لا يجوز أن يئأس مذنّب من رحمة ربه ، بل يجب أن يحسن المذنّب ظنه برّبه ، ويحسن التوكّل عليه في غفران ذنبه؛ فهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ويقول سيدي ابن عطاء الله السكندري في ذلك :

لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فان من عرف ربه ، استصغر في جنب كرمه ذنبه .

كما يقول رضى الله عنه :

إذا وقع منك ذنب ، فلا يكن سببا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك .

وجاء في الحكم العطائية :

عنايته فيك لا لشيء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ، لم يكن في ازله اخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الافضال ، وعظيم النوال .

والسادة الصوفية في حسن توكلهم على الله سبحانه ورضاهم به يجرى به قضاؤه ، انما يتأسون في ذلك بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى انس رضى الله عنه فقال خدمته صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ولا لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء تركته لم تركته ، بل كان يقول لى ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وعلى مثل هذا الرضا جرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان كل من عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما يقول : لان الحس جمة ، أحرقت ما أحرقت ، وأبقت ما أبقت ، احب الى من ان أقول لشيء كان ، لينته لم يكن ، أو لشيء لم يكن لينته كان .

وإذا أصاب أحد السادة الصوفية هم أو غم لجأ إلى الله تعالى في كشف همه وغمه ، وقد أخذوا أدبهم هذا من الحديث الشريف :

« من أصابه هم أو غم فليقل : الله الله ، لا أشرك به شيئاً ، فإن الله يذهب همه وغمه » وهم يقولون أن سبب القبض إنما يأتي للعبد من الغفلة عن الله والنظر إلى ما سواه .

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث آخر فقال :

« ما قال أحد : اللهم انى عبدك وابن عبدك وابن أمك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري ، وجاهاً حزيني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدل مكان همه فرحاً وسروراً » .

وأخيراً أذكر انى دخلت يوماً على سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني رضي الله عنه في مرضه الأخير ، فوجدته صابراً على مرض شديد ، كاد أن يعجزه عن الكلام ، فتأملت لألم سيدي الشيخ، وسكت في ألم بالغ ، فقال لي في صوت خافت ، تكلم ، فقلت ، ماذا أتكلم يا سيدي ، قال أي كلام ، وكأنما أراد أن يخفف عني ألمي ويصرفني بكلامي عن الألم ، فقلت سأتكلم إن شاء الله عندما تأتي مناسبة الكلام ، فقال رضي الله عنه معلماً ومرشداً ومسلماً ومواسياً :

« له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، إشارة منه سبحانه إلى أنه يجب أن يحمد في الخير والشر على السواء » .

فحمدت الله تعالى أن رزقني شيخاً مثل شيخى الكامل ، أرى فيه بالتجربة والعيان كيف يختص الله برحمته من يشاء ، وكيف يكون الأولياء على قدم سيد الانبياء وكيف ينوبون عنه صلى الله عليه وسلم (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

الإخلاص عند الصوفية

« والصدقة من حيث هي صدقة ، يثيب الله عليها ، لا سواء ، فهي له (ولا يأتل أولو الفضل منكم) فلا تمنع صدقة كيت تدفعها ، ويدفعك عنها ما تراه من المتصدق عليه من أمور أنت تكرهها ، مادمت تراه في حاجة ، فالبر بالفقراء مجلبة النعمة » حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » .

ذلك مما كتب سيدي واستاذي الشيخ عبد السلام الحلواني لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد/ سالم جمعة مد الله في عمره وهي كلمات صوفية منيرة يرفع بها همته من الخلق الى الخالق كما ترى . لان السادة الصوفية يعلمون الله في عبادته ليقينهم بأن ما عند الله تعالى يبقى وان جرده الناس ، ومادامت وجهتهم في الصدقة خالصة لله ، فلا عليهم من العباد ان احسنوا أو أسأوا ، وهذا ما يكشف لنا عن اخلاص القوم لله تعالى .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الاخلاص ما هو « قال سألت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو ؟ قال سألت رب العزة عن الاخلاص ما هو ؟ قال : سر من سرى استودعته قلب من أحببته من عبادى » .

وقد فرق الامام الدقاق بين الاخلاص والصدق ، فقال رضى الله عنه : الاخلاص التوقى عن ملاحظة الخلق ، والصدق التوقى من مطالعة النفس ، فالخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له .

وقال سيدي ذو النون المصرى رضى الله عنه : الاخلاص لا يتم الا بالصدق فيه والصبر عليه ، والصدق لا يتم الا بالأخلاص فيه والمداومة عليه ، وقال أيضا : ثلاث من علامات الاخلاص استواء المدخ والذم من العامة ، ونسيان رؤية الاعمال في الاعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

والسادة الصوفية يتحلون بالاخلاص في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم مدفوعين اليه بقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) وبقوله تعالى في السادة الصحابة عليهم رضوان الله (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وبقوله تعالى في أهل الصفة رضى الله عنهم (يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) *

ويقول الإمام سهل التستري رضى الله عنه : أهل لا اله الا الله كثير والمخلصون منهم قليل ، وقد قال له رجل ذات يوم : ان لصا دخل دارى وأخذ متاعى ، فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟

وسيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه يشد تلميذه الى التدبر في قوله تعالى في سورة النور (ولا يأكل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفووا وليصنفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) *

وقد نزلت تلك الآية الكريمة في شأن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث كان ينفق على مسطح ابن خالته ولما خاض مسطح في حديث الافك في حق أم المؤمنين سيدتنا عائشة ابنة الصديق رضى الله عنهما ، حلف سيدنا أبو بكر أن يقطع النفقة عن مسطح الذى تنكر لفضله عليه واحسانه اليه ، فأمر الله الصديق رضى الله عنه أن يوالى الانفاق على مسطح فكفر عن يمينه واعاد النفقة ، وعندما قرأ مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية على مسمع الصديق رضى الله عنه وسمع فيها (وليعفووا وليصنفوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) قال رضى الله عنه بلى أحب أن يغفر الله لى ؛

والآية الكريمة شهدت بالفضل لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ووجهته الى الانفاق على مسطح وكان من فقراء المهاجرين ، كما كان من أهل بدر الذين غفر الله لهم ورفع أقدارهم بين السادة الصحابة الكرام البررة رضى الله عنهم أجمعين ، وقد عذرت الآية الصديق رضى الله عنه ، وطلبت اليه العفو والصفح عن مسطح ، وبينت أن صفح المؤمن عن المسيء اليه مدعاة الى صفح الله عن المؤمن ، فهي تقول اصفح عن أخيك كما تحب أن يصفح الله عنك ، وما أجلها من تربية ربانية ، يرفع بها العليم الحكيم عبده الى الافق الأعلى من الأخلاق ، ويسمو به

من جانب الخلق الى جنب الخالق بالاحسان الى من أساء اليه طلباً
إرضاء الله تعالى وغفرانه •

ولا تعجب أن يكون سيدنا أبو بكر محل هذه العناية الربانية ، فهو
أبو بكر الصديق السابق الى التصديق المؤيد من الله بالتوفيق ، والملقب
بالمعتيق ، صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم في السفر والحضر ،
وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وثاني اثنين في القيامة على المسلمين ،
وثاني اثنين في روضة الانوار ، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى
(لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة
من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون
خبير) •

وقد ملك رضى الله عنه المال وزهد فيه ، فسخره في مرضاة ربه ،
وخرج عن كل ما ملكت يده في سبيله تعالى ، وهاهو ذا أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب يشيد بفضل الصديق في البذل والايثار فيقول :

أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك مال
عندي ، فقلت اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوماً ، قال فجئت بنصف
مالى ، قال فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت
لاهلك ؟ » قال : فقلت مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أبقيت لاهلك ؟ » قال أبقيت
لهم الله ورسوله ، قلت لا أسبقك الى شيء أبداً •

وقد كنا نتذكر مرة في سيرة الصديق العطرة ، فاسترعى نظرى أخ
فى فى الله ، انتقل الى رحمة الله ، وهو المرحوم السيد/ على السيد
الحبيب الله ثراه الى أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه ذكره الله تعالى
بمسرات فى قوله تعالى (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول
لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) فقلت له وكيف فقال : ثانى اثنين أحدهما
أبو بكر ، إذ يقول لصاحبه هو أبو بكر ، لا تحزن أى أنت والصغير
المستتر يشير الى أبى بكر ، ان الله معنا ، دخل أبو بكر فى المعية مع
مولانا رسول الله ، وهذه هى المرة الخامسة ، فعجبت بيومها من ذلك
التخريج الطريف الذى لم يكن خطر ببالي قبل ذلك •

واذا أردنا أن نرى كيف كان في الصحبة صافيا وفي المؤاخاة قوافيا فلننظر الى ما كان منه حين وصل مع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى باب الغار ليلة الهجرة ، فقد قال رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى فلا أدخل قبلك فان كانت حية أوشىء كانت لى قبلك ، قال : ادخل ، فدخل سيدنا أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جحرا جاء بثوبه فشقه ثم القمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال فبقى جحر فوضع عقبه عليه ، ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فلما أصبح ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟ » فأخبره بالذى صنع ، فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال ، ؟ اللهم اجعل أبا بكر معى في درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى اليه : « ان الله قد استجاب لك » •

وقد نصح الصديق رضى الله عنه رعيته فكان فيما قاله لهم : يوصيكم الله لفقركم وفاقنتكم أن تتقوه ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تستغفروه أنه كان غفارا ، واعلموا أنكم ما أخلصتم لله عز وجل فربكم أطعتم ، وحققكم حفظتم ، فاعطوا ضرائبكم في أيام سلفكم ، واجعلوها نوافل بين أيديكم تستوفوا سلفكم حين فقركم وحاجتكم ، ثم تفكروا عباد الله فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم ، أين الملوك الذين كانوا آثاروا الارض وعمروها ، وقد نسوا ونسى ذكرهم ، فهم اليوم كالأشياء (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وهم في ظلمات القبور (هل تخص منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) وأين من تعرقون من أصحابكم وأخوانكم ؟ قد وردوا على ما قدموا ، فحلوا الشقوة أو السعادة ، ان الله تعالى ليس بينه وبين احد من خلقه نسب يعطيه به خيرا أو يصرف عنه سوءا الا بطاعته واتباع أمره ، وانه لا خير بخير بعده النار ، والا شر بشر بعده الجنة ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم •

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام فالبر بالفقراء مجلبة النعمة ، فيشير الى التدبر فى قوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) لان اتفاق المؤمن المال فى مرضاة الله تعالى شكر عظمى لنعمة الله الذى آتاه المال وجعل يده به العليا التى تعطى ولا تأخذ ، واليد العليا خير من اليد السفلى •

وبذلك الفهم جد السادة الصحابة الكرام في التوسعة على الفقراء حين درت عليهم التجارة الأموال الوفيرة ، حتى لو نظرت فيما بذلوا لظننت أنهم أسرفوا في البذل والعطاء اذا قست الامور بمعاييرنا في هذا الزمان ، ولكنهم يرون أن الاسراف لا يكون الا حين ينفق المال في سخط الله ولو كان قليلا ، أما انفاقه في مرضاته تعالى فهو شكر لله مهما كان كثيرا ، وقد استمدوا فهمهم هذا من قوله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فحرصوا على سعة العطاء في سبيله سبحانه ليبقى لهم عندهم ما قدموه لأنفسهم من خير ، ولا يفوتنا أنهم تأسوا بفعل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وقد أعطى رجلا غنما تسد بين الجبلين فقال الرجل مبهورا : أشهد أنه ما طابت بمثل هذا الا نفس نبي .

ويقول أبو هريرة رضى الله عنه ان عثمان بن عفان رضى الله عنه اشترى الجنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، حين حفر بئر رومة ، وحين جهز جيش العسرة ، وبئر رومة حفرها سيدنا عثمان ووقفها لله تعالى يستقى منها المؤمنون بلا مقابل ، وجيش العسرة هو جيش غزوة تبوك ، وقد دعا له مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : اللهم لا تنس لعثمان ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا ، وقد أثر عن سيدنا عثمان كذلك أنه كان يطعم الناس طعام الامارة ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت .

وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا على ان الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب الى الله تعالى منها ، هي زينة الابرار عند الاله عز وجل ، الزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئا ولا ترزأ الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين : فجعلك ترضى بهم أتباعا ويرضون بك اماما » . ولذلك جاء في حكم الامام كرم الله وجهه : من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا تهاون بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع الى الخيرات ، وقال كرم الله وجهه أيضا : كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل . كما قال كرم الله وجهه : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة .

وتحدث السيدة سعدى بنت عوف امرأة سيدنا طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فتقول : لقد تصدق طلحة يوماً بمائة ألف درهم ، ثم حبسه عن الرواح الى المسجد أن جمعت له بين طرفي ثوبه . وحدثوا عنه كذلك أنه رضى الله عنه باع أرضاً بسبعمائة ألف ، فبات ذلك المال عنده ليلة فبات أرقاً من مخافة المال ، حتى أصبح ففرقه .

وحدثوا عن سيدنا الزبير بن العوام رضى الله عنه فقالوا انه كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج ، كان يقسمه كل ليلة ثم يقوم الى منزله وليس معه شيء . وحدثوا عنه أيضاً انه مع وفرة ماله استشهد وفي ذمته دين كبير : ولم تكن ديونه عن اقتراض ، بل كان يأتنيه الرجل بماله فيستودعه اياه ، فيقول الزبير لا ولكنه سلف ، فاني أخشى عليه الضيعة .

ويحدث عنه ابنه عبد الله بن الزبير فيقول : لما كان يوم الجمل جعل الزبير يوصي بدينه ويقول : يا بنى ان عجزت عن شيء فاستعن عليه بمولاي ، قال فوالله ما دريت ما أراد حتى قلت : يا أبت من مولائك ؟ فقال : الله . قال عبد الله ما وقعت في كربة من دينه الا قلت يا مولاي الزبير اقض دينه فيقضيه ، فحسبت ما عليه فوجدته ألفى ألف فقضيته .

أما سيدنا سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه فقد مرض فعاده مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له يومئذ الا ابنة واحدة فقال : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : « لا ، الثلث والثلث كثير » .

وأما سيدنا عبد الرحمن بن عوف فقد حدث عنه أبو نعيم بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « يا ابن عوف انك من الاغنياء ، ولئن تدخل الجنة الا زحفاً ، فاقرض الله عز وجل يطلق لك قديمك » قال ابن عوف : وما انذى أقرض الله قال : « تتبرأ مما أمسيت فيه » قال : من كله أجمع يا رسول الله ؟ قال : « نعم » فخرج ابن عوف وهو يهيم بذلك ، فاتاه جبريل فقال : مر ابن عوف فليصف الضيف ، وليطعم المسكين ، وليعط السائل ، فاذا فعل ذلك كانت كفارة لما هو فيه .

وحدث أبو نعيم بسنده عن سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب أنه

كان لا يعجبه شيء من ماله الا خرج منه لله عز وجل : وكان ربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا ، وقد أعطى في ماله نافع عشرة آلاف دينار — قال فهلا ما هو خير من ذلك ؟ هو لوجه الله تعالى . وقد جاءه يوما عشرة آلاف درهم فجاء الى السوق يريد علفا لراحلته بدرهم نسيئة ، فقال من عرف أنه فرق عشرة الآلاف حتى لم يبق معه ما يشتري به علف لراحلته : يا معشر التجار ما تصنعون بالدنيا وابن عمر أنته البارحة عشرة آلاف درهم ، فأصبح اليوم يطلب لراحلته علفا بدرهم نسيئة .

ويحدث عنه ماله نافع رضى الله عنه فيقول : أن ابن عمر اشتى عنباً وهو مريض ، فاشتريت له عنقودا بدرهم ، فجئت به فوضعت في يده : فجاءه سائل فقام على الباب فسأل ، فقال ابن عمر : ادفعه اليه ، فوضعت في يده ، فعاد السائل ، فقال ابن عمر : ادفعه اليه ، قلت : ذقه : كل منه ، قال لا ، ادفعه اليه : فدفعته : فما زال يعود السائل ويأمر بدفعه اليه حتى قلت للسائل في الثالثة أو الرابعة — ويحك أما تستحي : فاشتريته منه بدرهم : فجئت به اليه فأكله .

أما قول سيدى الشيخ عبد السلام : وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ، فإنه يقوى به ثقة تلميذه بربه سبحانه ، بالركون اليه والاعتماد عليه في أموره كلها ، أما المؤمنون المؤازرون فهم أسباب الله : يشد بهم الازر : ويعين بهم عبده في البر والتقوى : لأن المرء ضعيف بنفسه قوى باخوانه ، ويد الله مع الجماعة .

وحين ألقوا سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بالمنجنيق في النار قال معتمدا على حفظ ربه ورعايته : حسبنى الله ، فجاء جبريل عليه السلام ، فقال : يا ابراهيم ألك حاجة ، قال : اما اليك فلا ، وأما لربى فحالى يغنى عن سؤالى ، وعندئذ أمر الله تعالى النار فقال عز وجل (يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) ولولم يقيد الله بردها

بالسلام لقتلت ابراهيم ببردها ، وقال العلماء كذلك ان الخليل عليه الصلاة والسلام حين قال لجبريل عليه السلام : أما اليك فلا ، انما قالها وفاء لاعتماده على ربه وحده حين قال : حسبى الله ، وهذا هو ما يفسر به قوله تعالى (و ابراهيم انذى وفى) فقد وفى بفعله فصدق بفعله ما قاله بلسانه حين قال : حسبى الله .

وقد كان نقش الخاتم الذى يلبسه الامام مالك رضى الله عنه : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فسألوه فى سبب اختياره ذلك القول ، فأجابهم : لان بعدها فى كتاب الله تعالى (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) .

الذاكرون والمحبون

« ذكر الله بهاء ، والتوحيد صفاء ، والحب رضاء ، والقبول مكفول بحب الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أمدنا الله بمدده ، وهو سبحانه المعطى ، وقد أعطى القسمة للنبي صلى الله عليه وسلم » .

جاءت هذه الكلمات في رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، نور الله ضريحه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه زاده الله فضلا وبركة ، وقد بدأ الشيخ بتوجيه تلميذه الى ذكر الله ووصفه بأنه بهاء ، وذكر الله في عموم معناه أداء حقه سبحانه فيما أمر به أو نهى عنه ، وفي خصوص معناه عدم الغفلة عنه ، في ليل أو نهار ، لا في السر ولا في الجهر .

وذاكر الله مؤمن تقى لا يغفل عنه ولا ينساه ، والغافل عن الله كافر أو فاسق يفكره ولا يذكره ، ونفهم ذلك من المقابلة التي وردت في قوله تعالى في سورة الحشر : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » • ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون • لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » وكذلك من قوله تعالى في سورة السجدة « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستويون • أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون • وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون » •

والسادة الصوفية حين يتكلمون عن الذكر فانما يقصدون به ذكر الخواص المرادين أنفاسهم مع الله ، والذي يتدرج فيه المريد السالك فيذكر الله باللسان ثم يذكره بالقلب ثم يذكره بالروح ثم يذكره بالسر وهم يقولون ان ذكر الله باللسان انما هو ذكر حسنات ، وأما ذكر الله بالقلب فهو ذكر درجات ، وذكر الله بالروح فهو امتلاء القلب بمحبة الله ، ولا يحصر ثوابه ، أما ذكر السر فهو الذى لا يطلع عليه ملك

فيكتبه ولا شيطان فيفسده وهو ذكر السابقين المقربين ، والخواص المتحققين .

وذكر الله عندهم يكون باسمائه الحسنى ، فيردد المريد على لسانه الاسم الذى يأمره به شيخه ، فينطقه بلسانه ، ويراعى معناه فى قلبه مستحضرا عظمة الله سبحانه ، مستمدا منه العون ، وكأنه فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه باب العباد الى الله تعالى ، وكأن شيخه مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لانه نائب عنه فى الارشاد الى طاعة الله تعالى ، وكأن الملائكة تحف به وتثبت فى جهاد نفسه وكسب انسه ، والله تعالى مع الجميع يرعاهم ويشدهم ويهدمهم بعونه وفيضه ، وذلك الاستحضار يعين الذكر على تركيز فكره وقلبه فى المذكور سبحانه .

والسادة الصوفية يقولون ان من خصائص ذكر الله بأسمائه الحسنى ، أنه غير موقوت بوقت معين ، فما من وقت من ليل أو نهار الا والمؤمن مأثور بذكر ربه فيه . والصلاة مع انها فرض وهى أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الاوقات ، وهم يؤولون قوله تعالى « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » فيقولون فى ذوقهم العالى ومشر بهم الصافى أى قياما بحق الذكر ، وقعودا عن الدعوى فيه ، ومن ذلك ترى انهم نظروا فى تأويلهم الى بواطن الالفاظ ولم يقفوا عند ظواهرها وفهموا من خفايا الخطاب القدسى بنور قلوبهم فلم يفهمه غيرهم ، ولا عجب فى ذلك فقد سماهم الحق بجل وعلا (أولى الالباب) حين قال سبحانه (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) .

وهم يحاسبون السالكين على صدقهم فى ذكر الله تعالى ، فيقولون للسالكين : ان الله تعالى يقول فى الحديث القدسى : أنا جليس من ذكرنى ، فما الذى استفدت من مجالسة الحق سبحانه ، وهم انما يقصدون بهذه المحاسبة أن يدربوا السالكين على مراعاة الحضور فى الذكر ، حتى لا يذكر السالك ربه فى غفلة وهو شارد القلب ، متفرق الاهواء فى أودية الدنيا ، فيحجبه شروده عن تلقى أنوار الذكر التى يحيا بها القلب ، وتستتير بها الروح .

وهم كذلك يقولون ، حياة الروح بالذكر ، وحياة الذكر بالذاكر .
وحياة الذاكر بالذكور ، ويضيفون الى ما تقدم قولهم : ان من
خصائص الذكر ان الله جعل في مقابلته ذكر الله للذاكر ، وأى شرف
هذا للذاكر ، فأين ذكر العبد لربه من ذكر الله له ، ويستندون في ذلك
الى قوله تعالى في سورة البقرة : (فاذكروني أذكركم) وإذا كان
المرء يفرح اذا علم ان شخصا عظيما ذكره بالخير ، فكيف يكون فرحه
اذا علم ان ربه الأعلى سبحانه ذكره في خواصه وافاض عليه من جوده
واحسانه فأخرجه من ظلمة الغفلة الى نور الذكر ومن قسوة القلب الى
رقة الشعور .

وذكر اللسان يوصل الى ذكر القلب ، لانه تعالى أقام بحكمته رابطة
بين الجوارح والقلب ، فتنتفع الجوارح من فعل القلب ، وينتفع القلب
من فعل الجوارح ، ولذلك يعلق السادة الصوفية أهمية على ذكر اللسان
لانه مدخل الى ذكر القلب ، وقد قال بعض السالكين لشيخهم : نحن
نذكر الله تعالى ولا نجد في قلوبنا حلاوة فقال لهم : احمدا الله تعالى
على أن زين جارحة من جوارحك بطاعته .

ويصبو السادة الصوفية الى أن يصلوا في نهاية الشوط الى ذكر
الله تعالى على الحقيقة وهم يشيّدون بذكر الله على الحقيقة فيقولون
من ذكر الله تعالى على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء ، وحفظ
الله تعالى عليه كل شيء ، وكان له عوضا من كل شيء .

أقول والقرآن الكريم يشهد لهذا الذي ذهبوا اليه في مثل قوله
تعالى في سورة آل عمران (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا
لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .
فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله
والله ذو فضل عظيم . انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) فدلت الآية على أن
اليقين بالله تعالى يثبت القلوب في مواطن الشدة ، ولا ينأى مثل هذا
اليقين الا للذاكرين الله على الحقيقة ، ويشهد لذلك قوله تعالى في
سورة الرعد (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله
تطمئن القلوب) .

واطمئنان القلوب الذاكرة انما هو أثر من آثار المشاهدة التي

يتميزون بها عن سواهم : لأن ذاكر الله يخرج بموالاة ذكره بسبحانه من ميدان الغفلة الى فضاء المشاهدة ، فيشهد ربه بعين يقينه ، وإذا شهد ربه بعين يقينه أيقن أنه لا فاعل الا الله ، فإذا كان في شدة ، علم أنه سبحانه هو القادر وحده على كشفها ، وإذا كان في حرب مع الأعداء ، علم أن النصر من عند الله ، وإذا كان في نعمة علم أن الله تعالى ولى كل نعمة ، فيجب أن يشكر ربه فيها باستعمالها فيما يرضيه تعالى ، فيطمئن الى دوامها ، بل الى زيادتها ، وهكذا يكون مطمئنا بربه في عسره ويسره ، وفي بلائه ورخائه (قل كل من عند الله) .

ومن هنا قال السادة الصوفية : ذكر الله بالقلب سيف المريدین ، به يقاظون أعداءهم ، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم ، وإن البلاء إذا أظلم العبد ، فإذا فزع بقلبه الى الله تعالى يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه . وقد حدث عند فتح تبستر أن أبا موسى الأشعري رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كم من ذی طمرین لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك رضى الله عنه » فقال البراء : اللهم فاني أقسم عليك لما رزقتني الشهادة ورزقت أصحابي الفتح ، قائلوا : فاستجاب الله دعاءه ، فاستشهد البراء وفتح الله على المسلمين .

ويعلمنا سيدنا أبو بكر الصديق درساً قيماً في اليقين بالله تعالى فيقول رضى الله عنه :

ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل اشتغلت بها عما سواها أحداها قوله تعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) وإن يردك بخير فلا راد لفضله (فعملت أنه إن أرادني بخير لم يقدر أحد أن يمنعه عني غيره ، وإن أرادني بشر لم يقدر أحد أن يصرفه عني غيره والثانية قوله تعالى (فاذكروني أذكركم) فاشتغلت بذكره تعالى عن كل مذكور سوى الله ، والثالثة قوله تعالى (وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها) فوالله ما أهمني رزقي منذ قرأت هذه الآية ، بمعنى أنه لم يقلق على رزقه بل اطمأن عليه بالله الذي كفله له ، فأخذ في أسباب التكسب مع حسن التوكل على الله الذي تكفل بالأرزاق .

وقد مدح الله تعالى أهل الصفة رضوان الله عليهم ، وأوصى بهم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فقال تعالى في سورة الكهف

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وفي الآية نهى عن طاعة أهل الغفلة ممن غلبهم هوى نفوسهم ، لأن بصيرتهم مطموسة لا ترى الحق حقا ولا الباطل باطلا ، لأن هوى النفوس يعمى عن الحق ويصم والعياذ بالله •

ويقول السادة الصوفية : ان الله تعالى يرزق حلاوة ذكره سبحانه فان فرح المؤمن بها وشكر الله تعالى آنسه ربه بقربه ، وان قصر في شكر الله أجرى الله الذكر على لسانه وسلبه حلاوته • وهم كذلك يقولون : الغافلون يعيشون في حلم الله ، والذاكرون يعيشون في رحمة الله ، والعارفون يعيشون في لطف الله ، والصادقون يعيشون في قرب الله ، والقرب هنا ليس قرب مسافة بل هو قرب معرفة ومشاهدة ويقتن واستغناس بالذكور جل جلاله ، فقد قالوا ان الذكر طعام العارفين فلا تستغنى أرواحهم عنه ، ولا تحيا الا به وله •

وقد رأى الناس سبحة في يد الامام الجنيد ، وكان سيد الصوفية وامامهم في القرن الثالث الهجري ، فقالوا له : انت مع شرفك تأخذ بسبحة سبحة ، فقال : طريق به وصلت الى ربي لا أغارقه • ويعتبر السادة الصوفية ان الغفلة عن ذكر الله نوم ثقيل ، ويرون أن ثقل الغفلة يوقع الغافل في الشهوة ، ومن حكمهم في هذا الشأن قولهم : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة عنك لما ظفرت بك الشهوة ، وقد قال سيدنا يوسف الصديق عليه السلام حين دعت امرأة العزيز الى الفاحشة : (رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم) وما ذلك الا من قوة مشاهدته لربه ودوامه على ذكره ، وقد استجاب الله له وصرف عنه كيد النساء وجعل له من محنة السجن منحة ، فخرج من السجن حاكما بعد أن كان محكوما ، وأمر بعد أن كان مأمورا ، ولم تكن له أمنية عند ربه الا ان يقبضه على ملة الاسلام ويلحقه بالصالحين من الأنبياء والمرسلين فقد قال عليه السلام (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين) •

وهم يتدرجون بالسالكين في مدارج الذكر حتى يمتلئ القلب من محبة الله تعالى ، فيتجنب السالك المعصية ، وتكون أوقاته في طاعة ربه في سره أو جهره ، وفي ليله أو نهاره ، وعند ذلك يقطع المفاوز الى الآخرة ، ومن حكمهم في هذا المقام قولهم : مفاوز الدنيا تقطع بالاقدام ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب ، ومن ذلك ترى ان المعول عندهم على ذكر القلب في التقرب الى الله وكسب رضاه ويحكى لنا سيدى الامام سهل بن عبد الله التستري كيف تدرج به في ذكر الله تعالى خصاله الصالح سيدى محمد بن سوار فيقول :

قال لى خالى يوما : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟

فقلت : كيف أذكره ؟

قال لى : قل بقلبك عند تنظرك في ثيابك (أى عند النوم) ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : الله معى ، الله ناظر الى ، الله شاهد على .

فقلت ذلك ثلاثة أيام ، ثم أعلمته به ، فقال لى :

قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل في كل ليلة احدى عشرة مرة ، فقلت ذلك ، فوقع في قلبى له حلاوة .

فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر ، فانه ينفعك في الدنيا والآخرة .

فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في سرى .

ثم قال لى خالى يوما : يا سهل ، من كان الله معه ، وهو ناظر اليه وشاهده ، أيعصيه ؟ اياك والمعصية .

ولعل السادة القراء فهموا مما تقدم لماذا قال سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه : ذكر الله بهاء ، فليس أبهى من مؤمن ذكر الله فذكره الله وجاد عليه برضاه ..

وأما قول سيدى الشيخ : والتوحيد صفاء ، فإنه أراد أن ينبه تلميذه الى أن السادة الصوفية بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، فكان توحيدهم صافيا ، افردوا فيه القلب والقلب لله تعالى وحده ، وها هو ذا الامام القشيري رضى الله عنه يتكلم عنهم في رسالته القيمة فيقول في هذا المقام :

اعلموا ، رحمكم الله ، ان شيوخ هذه الطائفة قد بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود من العدم (أى الحادث الذى أوجده الله بعد ان لم يكن) ، ولذلك قال سيد هذه الطائفة الجنيد رحمه الله : التوحيد افراد القدم من الحدث ، كما قال :

ان أول ما يحتاج اليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان احداثه ، فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة التقديم من المحدث وبذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فان من لم يعرف مالكة لم يعترف بالملك لمن استوجبه •

ويقول السادة الصوفية ان صفاء العبادات لا ينال الا بصفاء التوحيد ويقول الامام الجنيد : التوحيد علمك واقرارك بأن الله فرد فى أزليته لا ثانى معه ، ولا شئ يفعل فعله ، وأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد ، بنفى الازداد والانداد والأشباه ، بلا تشبيه ولا تكيف ولا تصوير ولا تمثيل (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) •

ويقول الامام عمرو بن عثمان المكي رضى الله عنه : كل ما توهمه قلبك ، أو سنج في مجارى فكرك ، أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء أو أنس أو جمال أو ضياء أو شبح أو نور أو شخص أو خيال فالله تعالى بعيد من ذلك ، ألا تسمع الى قول الله تعالى (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) وقوله (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) •

وقد رأى الامام سيدى جعفر الصادق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه فسأله عن حقيقة التوحيد ، فعلمه قاعدة رائعة مختصرة ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه :

« كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك » •

وما أعظمه صلى الله عليه وسلم من معلم ، فيحرص كل قارئ على هذه القاعدة الثابتة ويعلمها لغيره •

ويعلمنا سيدي الامام جعفر الصادق كذلك أن نكف عن الكلام في قضاء الله وقدره ، فيقول في روعة من بيانه رضى الله عنه ان الله تعالى أراد منا شيئاً وبينه لنا ، وأراد بنا شيئاً وطواه عنا ، أراد منا البطالة والكف عن المعصية ، وأراد بنا ما قضاء علينا وقدره ، فلا يجوز أن نشغل بما أراد بنا عما أرادنا •

وقد نهى الشرع الحنيف عن الجدل في القضاء والقدر ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ثم قال :

« أيهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت اليكم ، انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمتم عليكم ألا تنازعوا » •

وقد سأل رجل الامام على بن أبى طائب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال الامام للرجل : طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن القدر ، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن القدر ، فقال : سر خفي لا نفثيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن القدر ، فقال : ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء ، فقال : ان الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ؟ قال : كما شاء ، قال : لك مشيئة مع مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله ، أو دون مشيئته ؟ أما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشراكة معه ، وان قلت دون مشيئته استغنييت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبية على مشيئته •

أما ما يقوله سيدي الشيخ لتلميذه من ان القبول مكشول بحب الرسول ، فانه يبين له اثر محبة المؤمن لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهي باب القبول عند الله عز وجل ، ذلك بأن محبته صلى الله عليه وسلم علامة على محبة الله تعالى لأنه صلى الله عليه وسلم

هو الذى دعانا الى الله باذنه ، فاهتدينا على يديه الى الله سبحانه ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بلغنا ما أنزل اليه من ربه ، وفصل لنا ما أجمله كتاب الله عز وجل ، وبين لنا حلاله وحرامه ، وكان امام الامة بأقوائه وأفعاله وأحواله ، وألزمنا الله طاعته فى ذلك كله فقال جل شأنه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وبين لنا سبحانه ان طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم انما هى طاعة لله ، فقال عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم هى سبيل الاهتداء (وان تطيعوه تهتدوا) وحفرنا سبحانه من مخافته تحذيرا شديدا فقال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) كما أنه تعالى علمنا طريق الفوز العظيم فقال جل جلاله (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) •

ويقول السادة الصوفية ان أصول الدين هى اثبات صدق الافتقار الى الله تعالى ، وحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قالوا ان فروع الدين أربعة : الوفاء بالعهود ، وحفظ الحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود •

ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم هى علامة محبته لأن المحبة تدعو المحب الى التقليد والتأسي واعتزازا من المحب بحبيبه واعجابا به وتقديرا لفضله ، لا بل ان متابعتة صلى الله عليه وسلم دليل على محبة المؤمن لربه سبحانه ، لانه تعالى يقول (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فمتابعتة صلى الله عليه وسلم تؤدى الى أن يحب الله عبده ويغفر له ذنبه ويقبله فى جنه ، ومن ذلك يتبين قول سيدى الشيخ : والقبول مكفول بحب الرسول صلى الله عليه وسلم •

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت لها ؟ قال : حب الله ورسوله ، قال : أنت مع من أحببت : وفى رواية للبخارى ومسلم قال أنس : فما فرحنا بشئ فرحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت ،

فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم .

وأخيراً يسأل سيدي الشيخ ربه أن يمدده بمدد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرشد تلميذه إلى أن العطاء إنما هو من الله سبحانه ويأتينا على يد حبيبه ومصطفاه ، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وجعله قاسماً لعطاء الله بين العباد ، بما شاء سبحانه أن يكون ، كما جعله هادياً إلى الإيمان لمن شاء الله لهم الإيمان ، دالاً بذلك على أن عطاءه سبحانه يجري بأسبابه وفق ما قضى وقدر ، والأسباب خلقه ، والقضاء سلطانه ، ولا معطى لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، وما مكن فيه رسوله لا اعتراض عليه إلا من جهول خلط فغلط ، واتبع هواه بغير علم من الله ، فإن تكلمنا في مدد الرسول فإنما نتكلم في معرض الأسباب التي أقامها سبحانه وتعالى بحكمته ، وشهدنا أن العطاء من الله يأتينا على يد رسوله ، الذي أقامه فينا وجعله حجة لنا أو علينا ، فسمعنا كلام الله منه واخذناه عنه ، فكان صلى الله عليه وسلم الواسطة لله ، ولولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط ، فصلوات الله وسلامه عليه ما نعمنا بشرعه الحنيف ، وما والانا الله بمدده الشريف ، وما غمرتنا أنواره وهو السراج المنير ، وما أكرمنا الله ببركته صلى الله عليه وسلم ورأفته ، وما رحمنا بعطفه صلى الله عليه وسلم ورحمته ، فهو القائل سبحانه في وصف رأفته ورحمته بنا صلى الله عليه وسلم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

ولقد دخل الامام أبو بكر الشبلي على رجل صالح فقبله ذلك الصالح بين عينيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام يقبله ، فقلت له يا رسول الله بماذا استحق الشبلي منك ذلك ، فقال انه يقرأ عقب كل صلاة الآيتين الاخيرتين من سورة التوبة (وهما الايتان الواردتان في الفقرة السابقة) ثم يصلى على ثلاث مرات .

ويخاطب العارف العالم سيدي الشيخ أحمد الحلواني الخليجي (والد شيخي وسيدي عبد السلام) مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول في احدي قصائده :

بالله صل حبلى الرجاء تفضلا
أنا ضيف جودك يا امام أولى الكرم
جد للضعيف بمبتغاه فانه
ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
جدلى فان خزائن الرحمن فى
يدك اليمين وأنت أكرم من قسم

اللهم اجعلنا أهلا لشرف الانتساب اليه ، واجعلنا يوم القيامة من
المحمولين عليه ، يوم تفرع الخلائق بين يديه طالبين شفاعته العظمى ،
فيقول فى ثقة بربه ، وتوكلا عليه : أنا لها ان شاء الله ، ثم يسجد لله
تعالى ، ويثنى على ربه بما يفتح الله ، فيناديه ربه : يا محمد ارفع
رأسك واشفع تشفع ، وسل تعط ، وقل يسمع لك ، فيرفع رأسه ويشفع
لأهل الموقف فى الانصراف ، فيقول : يارب مر بعبادك الى الحساب ،
فقد اشتد الكرب ، فيجاب الى ذلك ، وهذا هو المقام المحمود الوارد
فى قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما
محمودا) •

آل البيت ووراثة الأخلاق النبوية

« وأنت موصوف كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه صافي الروح ، صافي النور ، صافي القبضة ، صافي القلب ، صافي الذات ، صافي التوحيد ، صافي العمل ، صافي الوقت ، لاستغراقه في جمال ربه ونعمه ، فهو مبعوث دائماً بالصفاء وصفاء الصفاء والوفاء » .

« اذا تشبعت بالنبي صلى الله عليه وسلم فأنت جدير بذلك الصفاء لأنك بعنصرك وأرومك تنتمي الى بنى الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تشبه بأصله فما ظلم » .

ذلك مما كتب سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني رضي الله عنه الى تلميذه الصديق الصالح المبارك السيد/ سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وهي ثرينا كيف يتحلى المؤمن بمكارم الأخلاق حين يتأسى في أقواله وأفعاله وأحواله بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي بلغ الغاية في المكارم بشهادة الله الذي يعلم السر وأخفى ، فقد وصفه سبحانه أخلاصاً وصف في قوله الكريم (وانك لعلى خلق عظيم) وهذا في الاجمال ، أما في التفصيل فيعرض القرآن الكريم لنواحي الخلق العظيم في مواضع شتى ، فمثلاً يصف رب العزة رسوله الأمين في رأفته ورحمته بالمؤمنين فيقول جل جلاله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) ويصفه في لين الجانب والسماحة فيقول (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ويصفه سبحانه مرة أخرى في تمنى الخير للناس حرصاً على اسعادهم بالايमान وأسفه الشديد على كفرهم بالقرآن المجيد فيقول سبحانه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) وهكذا نرى صورة الأخلاق النبوية المثلى في جانب صلته بالناس عامة وبالمؤمنين خاصة .

أما في جانب صلته بالله تعالى فقد قام الليل صلى الله عليه وسلم حتى نورمت قدماه ، فقال له جبريل أبق على نفسك فان لها عليك حقاً ، وأنزل الله عليه قوله تعالى (طه • ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) وفي توجيهه صلى الله عليه وسلم لربه وركونه اليه فيما يريد ، يقول الحق جلا وعلا

(قد نرى تتقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) وكان صلى الله عليه وسلم يود لو يحوله الله الى المسجد الحرام بدلاً من الصلاة الى بيت المقدس ، وكان يتطلع الى ربه ويحسن ظنه به في تحقيق تلك الرغبة التي قصد بها تأليف قلوب العرب للإسلام ، باعتبار المسجد الحرام أقدم القبلتين ، كما أنه قبلة أبيهم إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فضلاً عن مخالفة اليهود الذين دلتهم التوراة على صحة الرسالة المحمدية ، ولكنهم تجاهلوا واستحبوا العمى على الهدى « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه اذا حزبه أمر قام الى الصلاة يفرج بها عن نفسه ، وكيف لا يفعل وقد دله الله تعالى على ذلك في قوله الكريم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والصلاة تجمع بين التسبيح والسجود وهما العلاج الذي وصفه الله تعالى لضيق الصدر .

وسيدى الشيخ يشير الى صفاء الفطرة الذي ورثه تلميذه من أجداده الاشراف الكرام البررة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فكانوا أئمة الهدى على مر الأجيال ، ذرية بعضها من بعض ، وقد دلت التجارب العملية في الانسان والحيوان والنبات على قيام وراثه الصفات بين الفرع وأصله وكما تورث الصفات المادية تورث كذلك الصفات الخلقية والمعنوية ، وسبحان من ربط بين الأسباب وثمراتها وفرق مع اتحاد الجنس بين الخبيث والطيب والفاضل والمفضول (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

وقد رأينا أن أقل الطاعات تبدو أنوارها على السادة الاشراف لصفاء فطرتهم وصدق يقينهم وحسن ظنهم بالله تعالى ، كما أنهم يندمون أنسد الندم على أية صغيرة تقع منهم ، وهم قريبو البكاء لركة قلوبهم ودقة شـعورهم .

كما رأينا أن أهل الهممة فيهم لا يشق لهم غبار ، أما في الليل فصافون أقدامهم « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا » ، وأما

في النهار ، فمأمون شرهم مأمول خيرهم ، يأملون بالمعروف ويفعلونه ، وينهون عن المنكر ويبتلونهم وأما في الصدقات فيؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ويقول إمامنا على كرم الله وجهه : أشد الأعمال ثلاثة ، إعطاء الحق من نفسك ، وذكر الله على كل حال ، ومواساة الأخ في المال .

وقد روى الامام أبو نعيم في الحلية بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سره أن يحيى حياته ، ويموت مماتى ، ويسكن جنة عدن غرسها ربى فليوال عليا من بعدى وليوال وليه ، وليقتد بالأئمة من بعدى ، فانهم عترتى خلقوا من طينتى ، ورزقوا فهما وعلمنا ، وويل للمكذبين بفضلهم من أمتى ، القاطعين فيهم صلتى ، لا أنالهم الله شفاعتى) .

وانك لتعجب من الوصف الذى وصف به ضرار الكنانى إمامنا عليا كرم الله وجهه في مجلس معاوية ، فقد دخل ضرار على معاوية يوما فقال له : صف لى عليا يا ضرار ، فقال له : أو تعفينى ، قال لا أعفيك ، فقال ضرار : أما اذ لابد من وصفه ، فانه كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه .

يستوحش من الدنيا وزهرتها : ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن .

كان والله كأحدنا يديننا اذا أتيناها ، ويجيبنا اذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا لا نكلمه هيبه له .

فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطعم القسوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغابت نجومه ، يميل في محرابه قابضا على لحيته ، يتملل تملل السليم (أى الملدوغ) ويبكي بكاء الحزين ، فكأنى أسمع الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا — يتضرع اليه ثم يقول للدنيا ، الى تقربت ، الى تشوقت ، غرى غيرى ،

قد طلقك ثلاثاً ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وعطرك يسير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق •

قالوا فسالت دموع معاوية على لحيته ما يملكها ، وجعل ينشفها بكمه وقد اختنق النجوم بالبكاء ، وقال معاوية : هكذا كان أبو الحسن رحمه الله ، فكيف كان حزنك عليه يا ضرار ؟ قال حزن من ذبح واحداً في حجرها ، لا ترقأ دمعته ، ولا يسكن حزنها ، ثم قام ضرار فخرج •

ولناخذ من بكاء معاوية العبرة والاعتبار ، فان فضل الأئمة العدول من سادتنا آل البيت لا يموت وان ماتت أجسادهم ، ولا يستطيع أن ينكر فضلهم الثابت خصم عنيد أو عدو حصود الا كما ينكر ضوء الشمس مكفوف البصر ، ويقول السادة الصوفية بحق : وما ذنب البستان اذا قصرت في جنى ثماره ، وما ذنب النهار اذا أغضت العين عن شهود أنواره ؟

وأما على كرم الله وجهه عظيم من عظماء الاسلام الشوامخ ، فهو كما يقول الامام أبو نعيم في حلية الأولياء : قدوة المتقين ، وزينة العارفين ، المنبئ عن حقائق التوحيد ، المشير الى لوازم علم التفريد ، صاحب القلب العقول ، واللسان السؤل ، والأذن الواعي ، والعهد الوافي ، محب المشهود ، ومحبوب المعبود •

ومن روائع حكم امامنا على كرم الله وجهه •

احفظوا عنى خمسا ، فلو ركبتكم الابل في طلبهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوهن : لا يرجو عبد الا ربه ، ولا يخاف الا ذنبه ، ولا يستحى جاهل أن يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحى عالم اذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا ايمان لمن لا صبر له •

وكذلك يقول كرم الله وجهه •

أن أخوف ما أخاف اتباع الهوى وطول الأمل ، فاما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة ، ألا وان الدنيا قد ترحلت مدبرة ، ألا وان الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولكل واحد منهما

بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم
عمل ولا حساب ، وغدا حساب والا عمل •

وقد أخذ السادة الصوفية الكثير من علم امامنا على وإشاراته، ويرون
بحق أن علمه علم لدنى مما يؤتيه الله لخاصته وأوليائه ، حتى قال الامام
الجنيد رضى الله عنه مشيراً الى فضله : لو لم تشغله الحروب لأفادنا في
علمنا هذا معاني كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى علماً لدنيا ، ولذلك كان الامام
كرم الله وجهه يقول متحدثاً بنعمة ربه : لو شئت أو قرت سبعين جملاً
في تفسير سورة الفاتحة ، كما كان يقول وهو يشير الى صدره : ان
ها هنا لعلماً جما لو أجد له حملة •

ويرشدنا الصوفي الكبير سيدي السرى السقطي رضى الله عنه ، وهو
أستاذ الامام الجنيد رضى الله عنه ، فيقول ناصحاً لنا : الأمور ثلاثة :
أمر بان لك رشده فاتبعه ، وأمر بان لك غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك
فقف عنده ، وكله الى الله عز وجل ، وليكن الله دليلك ، واجعل مفرك اليه
تستنن به عن سواه •

كما أنه رضى الله عنه يرشدنا الى أن نفعل ما نقول ونقهر هوى نفوسنا
ومن حكمه : ما أكثر من يصف الصفة وأقل من يوافق فعله صفته، وقوله:
أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره
أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه وقوله : أحسن الأشياء
خمس • البكاء على الذنوب ، وإصلاح العيوب ، وطاعة غلام الغيوب ،
وجلاء الرين من القلوب ، وألا تكون لكل ما تهوى الركوب •

وفي كل جيل من أجيال هذه الأمة يأخذ الناس تربيتهم عن أئمة الهدى
من سادتي آل البيت الكرام ، فهم نجوم يقتدى بهم السالكون ويسترشد
بهم الحائرون ، والاضطهاد الذى وقع عليهم كان سبباً لانتشارهم في
المشرق والمغرب ، فعم نورهم الآفاق ، وسبحان من إذا شاء قلب المحن
منها ، (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) وهم في كل زمان رضى الله
عنهم دعاة أمن وإيمان ، وحريصون على نفع الأمة ما وسعهم الجهد ،
ويحدثنا أبو حمزة الثمالى فيما رواه أبو نعيم في الحلية بسنده عن امام
من أجل الأئمة الاشراف ، هو سيدي الامام على زين العابدين ابن الامام
الحسين السبط رضى الله عنهم أجمعين فيقول :

أنيت باب على بن الحسين فكرهت أن أضرب ، فقمعت حتى خرج
فسلمت عليه ، ودعوت له ، فرد على السلام ودعا لى ، ثم انتهى الى
حائط له ، قال يا أبا حمزة : ترى هذا الحائط ، قلت بلى يا ابن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، قال فانى اتكأت عليه يوما وأنا حزين، فإذا
رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى ثم قال : يا على
ابن الحسين ، مالى أراك كئيبا حزينا ، أعلى الدنيا ، فهى رزق حاضر، يأكل
منها البر والفاجر ، فقلت ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال ، أعلى
الآخرة ، هى وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر ، قلت ما على هذا أحزن
لأنها كما تقول ، فقال ، وما حزنك يا على بن الحسين ؟ قلت ، ما أتخوف
من فتنة ابن الزبير ، فقال : يا على ، هل رأيت أحدا سأل الله فلم يعطه ؟
قلت ، لا ، ثم قال ، فخاف الله فلم يكفه ؟ قلت لا ، ثم غاب عنى ، فقيل
لى يا على ، هذا الخضر عليه السلام ناجاك •

والسادة آل البيت الكرام يتمسكون على الدوام بالحق ، ولا يحدون
عنه يمنة أو يسرة ، ولا يحبون أن يجاملوا على حساب الحق ،
وها هو ذا سيدى على زين العابدين رضى الله عنه يحدثنا بما وقع بينه
وبين المتطرفين من غلاة الشيعة فيقول :

أتانى نفر من أهل العراق ، فقالوا فى أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله
عنهم (أى قولاً غير لائق) ، فلما فرغوا ، قلت لهم : ألا تخبروننى ،
أنتم المهاجرون الأولون « الذين أخرجوا من ديارهم وأسرهم يبتغون
فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون »
قالوا : لا ، قلت ، فأنتم الذين « تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون
من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »
قالوا : لا ، قلت : أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين
الفريقين ، ثم قلت : أشهد أنكم لستم من الذين قال فيهم الله عز وجل
(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا
بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)
أخرجوا فعل الله بكم •

وكان رضى الله عنه ينصح الناس لله وللرسول ، فكان يقول :
يا معشر أهل العراق ، يا معشر أهل الكوفة ، أحبونا حب الاسلام
ولا ترفعونا فوق حقنا • ومن خصاله الشريفة رضى الله عنه أنه كان

إذا تصدق على سائل بصدقة قبل (بتشديد الباء) السائل قبل أن يعطيه الصدقة • وكان رضى الله عنه على علمه وفضله يجلس الى زيد بن أسلم ويسمع من علمه ، وقد قالوا له : مثلك يا امام يجلس الى هذا المولى ؟ فقال رضى الله عنه : انما يجلس الرجل الى من ينفعه في دينه • فانظر رعاك الله كيف كان يتواضع للعلم والعلماء وهو امام وقته غير منازع •

ويعلمنا سيدى الامام زين العابدين رضى الله عنه فيقول : اذا كان يوم القيامة نادى مناد : ليقيم أهل الفضل ، فيقوم ناس من الناس ، فيقال ، انطلقوا الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : الى أين ؟ فيقولون : الى الجنة ، قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : أهل الفضل قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا ، كنا اذا جهل علينا حلمنا ، واذا ظلمنا صبرنا ، واذا أسى علينا غفرنا ، قالوا : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين •

ثم ينادى مناد ، ليقيم جيران الله في داره ، فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم ، انطلقوا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة ، فيقال لهم مثل ذلك ، قالوا وبم جاورتهم الله في داره ؟ قالوا : كنا نتزاور في الله عز وجل ، ونتجالس في الله ، ونتبادل في الله ، قالوا : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين •

واذا أردت أن تشرب غرفة سائحة هنيئة من بحر علمه الغزير ، فاستمع الى الامام ابن شهاب الزهري اذ يحدثنا عنه فيقول :

دخلنا على الامام على بن الحسين بن علي فقال : يا زهري فيم كنتم ، قلت تذاكرنا الصوم فأجمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب الا شهر رمضان •

فقال : يا زهري ليس كما قلت •

الصوم على أربعين وجها ، عشرة منها واجبة كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربع عشرة خصلة صاحبها بالخيار ، ان شاء صام وان شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب •

قال ، قلت فسرهن يا ابن رسول الله •

قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصيام شهرين متتابعين ،
يعنى فى قتل الخطأ ان لم يجد العتق — قال تعالى (ومن قتل مؤمنا خطأ)
الآية وصيام ثلاثة أيام فى كفارة اليمين ان لم يجد الاطعام ، قال عز
وجل (ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم) وصيام حلق للرأس ، قال الله
تعالى (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) الآية ، صاحبه
بالخيار ان شاء صام ثلاثا : وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى ، قال
تعالى (فمن تمتع بالعمرة الى الحج) الآية ، وصوم جزاء الصيد ، قال
الله عز وجل (ومن قتل منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم) الآية ،
وانما يقوم ذلك الصيد قيمة ثم يقص ذلك الثمن على الحنطة •

وأما الذى صاحبه بالخيار ، فصوم يوم الاثنين وخميس ، وصوم ستة
أيام من شوال بعد رمضان ، ويوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، كل ذلك
صاحبه بالخيار ، ان شاء صام وان شاء أفطر •

وأما صوم الاذن ، فالمرأة لا تصوم تطوعا الا باذن زوجها ، وكذلك
العبد والأمة •

وأما صوم الحرام ، فصوم يوم الفطر ويوم الأضحى ، وأيام التشريق ،
ويوم الشك نهينا أن نصومه كرمضان ، وصوم الوصال حرام ، وصوم
الصمت حرام ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر حرام ،
والضيف لا يصوم تطوعا الا باذن صاحبه ، قال صلى الله عليه وسلم
« من نزل على قوم فلا يصومن تطوعا الا باذنهم » ويؤمر الصبي بالصوم
اذا لم يراهق تأنييسا وليس بفرض ، وكذلك من أفطر لعلة من أول
النهار ثم وجد قوة فى بدنه أمر بالامساك ، وذلك تأديب الله عز وجل
وليس بفرض ، وكذلك المسافر اذا أكل من أول النهار ثم قدم أمر
بالامساك •

وأما صوم الاباحة فمن أكل أو شرب ناسيا من غير عمد فقد أبيح
له ذلك وأجزأه عن صومه ، وأما صوم المريض وصوم المسافر ، فان
العامة اختلفت فيه ، فقال بعضهم يصوم ، وقال قوم لا يصوم ،
وقال قوم ان شاء الله صام وان شاء أفطر ، وأما نحن فنقول يفطر فى

الحالين جميعا ، فان صام في السفر والمرض فعليه القضاء ، قال الله عز وجل (فعدة من أيام أخر) •

هذا وكما كان سيدي الامام زين العابدين ينهى عن الغلو في التشيع كان ابنه سيدي الامام محمد الباقر ينهى كذلك عنه ، فقد سئل رضى الله عنه عن حلية السيوف فقال : لا بأس به قد حلى أبو بكر الصديق رضى الله عنه سيفه ، فقال له قائل ، وتقول الصديق ، قال فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال نعم الصديق ، فمن لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة •

ومرة أخرى قال سيدي الامام الباقر رضى الله عنه: من لم يعرف نفسه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقد جهل السنة •

ولعل القارئ الكريم رأى مما تقدم كيف تحلى سادتنا آل البيت الكرام بالصفاء والوفاء والطهر والعفاف تأسيا بجدهم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب في ذلك فانه تعالى يقول في شأنهم (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) •

رحمة الشيوخ الأولياء بتلاميذهم

« الفاضل المحترم الذى خلقه الله سالما من الشرور . بل جعله على سنة الابرار فى الليل والنهار . زائد الانوار من النبى المختار ، فهو سالم باسمه ، سالم بوصفه . سالم مع الله ، سالم مع الناس ، سليم الطوية ، خالص النية : لا يوصف الا بالكمال من صفوة الرجال ، فهو ابن عمر جمعه : جمعه الله على خيرة من خلقه الله : وعرفه بالله آمين » .

جاءت السطور المتقدمة فى صدر رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح التقى الصديق السيد / سالم عمر جمعه زاده الله فضلا وتوفيقا ، وهى ترينا كمال سيدى الشيخ فى مخاطبة تلاميذه ، وتكشف عن الرحمة المودعة فى قلبه الكبير لهم ، وتبين لنا كيف كان ينزلهم منازلهم ، فاذا صورهم الشيخ بكماله فى صورة من الكمال أسرهم حسن ظنه بهم ، فحرصوا بكل وسيلة أن يكونوا على الدوام عند هذا الظن الجميل . واذا أراهم كيف يعامل الرجال ، احتذوا حذوه فى معاملة غيرهم فاحترمواهم وكرمواهم بما حباهم الله من فضله . على ان وصف الشيخ لتلاميذه فى صورة الكمال الذى يراه لهم فى نفسه انما يوجههم به أيضا الى بلوغه بكل جهد مستطاع ، والشيخ معاون لهم فى سلوكهم . يمحضهم النصائح ويكون لهم قدوة حسنة فى أقواله وأفعاله وأحواله التى ترسم فيها خطوات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قصار نائبا عنه فى دعوة الخلق الى الحق .

ويقول سيدى شاه الكرمانى رضى الله عنه فى حكمه : (علامة الحكمة معرفة أقدار الناس) وكلامه هذا له شاهد من الكتاب والسنة ، فقد مدح الله عباده الصالحين فى كتابه الكريم ، وجعل وصفهم جاريا على السنة الثالين والمصلين ، ومدح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما حباهم الله من فضله .

فقال تعالى مثلاً في فضل سادتنا المهاجرين والانصار رضى الله عنهم (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم) وقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه : انت « الصديق » ، وقال لسيدنا عمر رضى الله عنه : « انت الفاروق » وقال في حق سيدنا عثمان رضى الله عنه : « عثمان أحيا أمتي وأكرمها » وقال في حق سيدنا على كرم الله وجهه : « لاعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » وغير ذلك كثير وانما سقنا ما تقدم على سبيل المثال .

وقد اثبت الله تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأفته ورحمته بالمؤمنين فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) كما قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنتم فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر) .

والداعى الى الله تعالى يجب ان تتوافر له هذه الرأفة وتلك الرحمة ، تأليفاً للقلوب ، وتهذيباً للنفوس ، خاصة وان تلاميذه الذين يلتفون حوله ، انما يأتون اتيه باختيارهم ليعاونهم في طاعة الله ، ولا يجمعهم سلطان قاهر ، أو رهبة مخيفة .

واذا كان لين الجانب لازماً للشيخ في الازمان السابقة فهو في زماننا الزم حيث فترت الهمم في السعى الى امور الاخرة ، ووقفت همم الناس أو كادت عند أمور الدنيا حتى كأنهم خلقوا لها وسيخلدون فيها ، وطريق التصوف طريق جد لا هزل فيه ، لان المتصوف يطلب السعادة الحقة التي لا تساعدة بعدها ، فهو يطلب عزيزاً نادراً ، يغلو ثمنه ، ويرخص في طلبه كل جهاد بالنفس والمال ، فهو يطلب رضاء ربه ، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل .

وانما سمي الأولياء أولياء ، لمواالاتهم جانب الله ، ومجافاة ما سواه ، وليستمع القارئ الكريم الى بعض ما وصف به سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه هؤلاء الاولياء فقد قال فيهم :

هم قوم ذكروا الله عز وجل بقلوبهم تعظيما لربهم عز وجل لمعرفةهم
بجلاله ، فهم حجج الله تعالى على خلقه ، ألبسهم النور الساطع من
محبتة ، ورفع لهم أعلام الهداية الى مواسلته وأقامهم مقام الأبطال
لأرادته ، وافرغ عليهم الصبر عن مخالفته وظهر ابدانهم بمراقبته ،
وطينهم بطيب أهل مجامعته ، وكساهم حلالا من نسج مودته ، ووضع
على رؤوسهم تيجان مسرته ، فهمومهم اليه نائرة ، واعينهم اليه
بالغيب ناظرة ، اجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته ثم قال :

ان أتاكم مريض من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فأمنوه أو آمن
منى فحذروه ، أو راغب فى مواسلتى فهنئوه ، أو راحل نحوى فزودوه ،
أو جبان فى متاجرتى فشجعوه ، أو آيس من فضلى فعذوه ، أو راج
لاحسانى فبشروه ، أو حسن الظن بى فبسطوه ، أو محب لى فواظبوه ،
أو معظم لقدرى فمعظموه ، أو مستوصفكم نحوى فأرشدوه ، أو مسيء
بعد احسان فعاتبوه ومن واصلكم فواصلوه ومن غاب عنكم فافتقدوه .

يا أوليائى ، اياكم رغب ، ومنكم الوفاء طلبت ، ولكم اصطفت
وانتخبت ، ولكم استخدمت واختصت ، لانى لا أحب استخدام
الجبارين : ولا مواصلة التكبرين ، ولا معافاة المخلطين ولا مجاوبة
المخادعين ، ولا قرب المعجبين ، ولا مجالسة الباطلين ، ولا موالاة
الشرهين .

يا أوليائى ، جزائى لكم أفضل الجزاء ، وعطائى لكم أجزل العطاء ،
وبذلى لكم أفضل البذل ، وفضلى عليكم أكثر الفضل ومعاملتى لكم
أوفى المعاملة ومطالبتى لكم أشد المطالبة أنا مجتنى القلوب ، وأنا علام
الغيوب وأنا مراقب الحركات ، وأنا ملاحظ اللحظات ، أنا المشرف على
الخواطر ، انا العالم بمجال الفكر ، فكونوا دعاة الى ، فمن عاداكم
عاديته ، ومن والاكم واليته ، ومن آذاكم أهلكته ، ومن أحسن اليكم
جازيته ومن هجركم قليتته .

ووصف سيدى ذو النون الاولياء مرة أخرى فقال :

عنهم تقصر الصفات ، وبهم تدفع النقمات ، وعليهم تنزل البركات ،
فهم أحلى الناس منطقا ومذاقا ، وأوفى الناس عهدا ، وميثاقا ، سراج
العباد ، ومزار البلاد ، مصابيح الدجى ، ومعدن الرحمة ، ومنابع

الحكمة ، وقوام الامة ، تجافت جنوبهم عن المضاجع ، فهم اقبل الناس
للمعذرة ، وأصفحهم للمغفرة ، واسمحوهم بالعطفية .

نظروا الى ثواب الله عز وجل بأنفس تائقة ، وعيون راقية ، وأعمال
موافقة ، فحلوا عن الدنيا مطى رحالهم ، وقطعوا عنها حبال آمالهم ،
لم يدع لهم خوف ربهم عز وجل من أموالهم تليدا ولا عتيدا ، فتراهم
لم يشتهوا من الأموال كنوزها ، ولا من المطايا عزيزها ، ولا من القصور
مشيدها .

ضموا ابدانهم عن المحارم ، وهربوا بأنفسهم عن المآثم ، فسلخوا
من السبيل رشاده ، ومهدوا للرشاد مهاده ، هابوا الموت وسكراته
وكرباته وفجعاته ، والقبر وضيقه ، وابتدار عنكر ونكير وسؤالهما ،
والمقام بين يدي الله عز ذكره وتقدست اسماءه .

وقد روت أم المؤمنين سيدتنا عائشة حديثا عن مولانا رسول الله
صلى الله عليه وسلم تتركز فيه الاوصاف المتقدمة وهو :

« ان موسى عليه السلام قال : يا رب اخبرنى بأكرم خلقك عليك ،
قال : الذى يسرع الى هواى اسراع النسر الى هواه ، والذى يكلف
بعبادى الصالحين كما يكلف الصبى بالناس ، والذى يغضب اذا انتهكت
محارمى غضب النمر لنفسه ، فان انمر اذا غضب لم يبال اقل الناس
أم كثروا » .

والسيد / سالم عمر جمعة : مد الله عمره ، صاحب سيدى الشيخ
عبد السلام الحلوانى مدة طويلة ، وانتفع من صحبتته ، وجد فى طريق
الآخرة بصدق وإخلاص وهمة قوية ، ومع سمو ثقافته الغربية ، وبسطه
عيشته الرضية ، لم تلهه دنيا فانية عن آخرة باقية ، وعاش فى الدنيا
فى أحسن صورة يعيشها أهل الدنيا ، ولكنه تحرى طيبات الحياة .
وتجنب الخبيثات ، واذا نظرت اليه عابدا رأيت فيه مثل السابقين
بالخيرات باذن الله .

لم أرد أن أمدح أخا لى فى الله فى تلك الصفحات ، فهو غنى عن مدحى
بما أفاء الله عليه من فضل جزيل فى امر الدنيا والدين ، انما أردت أن
أقدم للسادة القراء صورة لمؤمن نعرفه حق المعرفة ، أعطاه الله فشكره ،

ولم يقف بماله عند المنافع الفانية ، بل قدم صالحا لنفسه ، فعطف على الفقير ، وتواضع للصغير ، واستقل في صدقاته الكثير ، وتحلى بمكارم الاخلاق وأسهر ليله في ذكر الله وطاعته ، وتردد مرارا على الحجاز حاجا ومعتبرا ، يعمر وقته هناك بما يحب الله ويرضى ، وما دخلت الروضة النبوية المباركة مبكرا الا وجدته قد سبقني اليها متهجدا في ليله ، تاليا القرآن في نهاره ، منافسا أهل السبق في همتهم ، شأن السادة الاشراف ، الذين اختصهم الله برحمته واصطفاهم لساخته ، وجعلهم مصابيح الهدى في ظلمات الحياة يهتدى بهم من أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا .

ولقد حدثني صديقي السيد / سالم حفظه الله عن اتصاله بشيخي وسيدى عبد السلام الحلواني ، طيب الله ثواه ، فقال ان صديقه الصالح المبارك المرحوم الشيخ أحمد غلبون عفا الله عنه ، كان يصحب سيدى عبد السلام في الطريقة الخليلية المباركة لصاحبها الغوث سيدى الحاج محمد ابى خليل مربى الرجال ، بالحال والمقال ، وساكن ضريحه المشرف بالزقازيق ، وكان يمدح له الشيخ عبد السلام بما حباه الله من صفات الاولياء الاصفياء ويؤشده برشده وخلقه في الدعوة والارشاد وأشار عليه بلقائه والاخذ عنه .

فوافق السيد / سالم على الالتقاء بسيدى عبد السلام ، واجتمع به فعلا لكنه أرجأ الاخذ عنه حتى تبين بنفسه أمره في اجتماعات أخرى لاحقة ، لانه مع ثقته في صديقه الشيخ غلبون رحمه الله كان يريد ان يطمئن بنفسه في اختيار رائده ومربيه في طريق الله ، فقبل صديقه وجهة نظره وتركه الاختيار نفسه .

قال السيد / سالم ولما ترددت على مجالس سيدى عبد السلام وبان لى فضله وكماله وخلقه ، اقدمت على الاخذ عنه في اطمئنان ، وصحبته فما غاب عنى مثاله ، ولاخفيت عنى خلاله ، بل زادت ضلتي به على الايام استحكما ، وازددت به اعجابا وغراما ، وأضاف السيد / سالم أنه سعد بصحبته في احدى رحلاته الى الحجاز ، فحظي في الرحلة به وبسيدى العارف الملهم الشيخ على عقل رضى الله عنه خطوة كبيرة لا ينسى ذكرها ، وحدثني بكرامة جميلة كانت لسيدى الشيخ عبد السلام معه ، وذلك بان الشيخ فاجأه وهم في الطريق الى المدينة

المفخرة وقال له : ياسيد / سالم : واقع في روعي ان اسمك الاصلى محمد ، فهل هذا صحيح ، قال الصديق الكريم : فعجبت من ذلك كل العجب لان اسمه الاصلى محمد ولا يعرف هذا أحد حتى من خواص أهله الاقربين .

وكم كان لسيدى الشيخ عبد السلام معنا من الكرامات الشئ الكثير ، ولو شاء الله لاطلع بعض خواصه على بعض غيبه (ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء) فلا تعجب أيها القارئ العزيز للكرامة : ولكن اعجب لدوام الاستقامة والاشتغال بالله في الليل والنهار ، والسفر والخضر ، والبر والبحر ، والسر والنهر ، حتى ترى الولي مغايرا للناس في احوالهم ييكي وهم يضحكون ، ويسهر وهم نائمون ، ويحذر الآخرة وهم آمنون ، ويحب الناس في الله ، ويوأيهم في الله ، وهم يتحابون في عرض الدنيا ، ويتباغضون فيه ، فالولي من البشر جنسا ، ويمتاز عنهم نفسا ، فهو يماثلهم في الشكل ، ويخالفهم في القول والفعل والصال .

وقد كان سيدى عبد السلام الحلواني رضى الله عنه طرازا ممتازا في الاولياء الذين تخرجوا في الولاية على يد شيخنا الاكبر وامامنا الأجل سيدى القطب الكبير الشيخ محمد ابى خليل رفع الله في الشيوخ المربين قدره ، وقد كان يعامل تلاميذه باللطف والرحمة والشفقة والكرامة ، والعطف ، والنصح الامين ، في حنان ولين ، وسر وتمكين ، وربما قص حكاية على سمع الجميع ليتغظ باشارته التلميذ المقصود بذاته ، ويسلك السبيل القويم ، وانما استرشد سيدى الشيخ في ذلك بسنة مولانا الرسول الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، صلى الله عليه وآله وسلم . وعن سيدى الشيخ ابى خليل اخذ خلفاؤه ذلك النهج في التربية الصوفية العالية ، وورثوه لتلاميذهم حسبة لوجه الله الكريم ولم يسألوهم على ذلك أجرا ، وأجرهم مدخر لهم عند الله تعالى يلقونه يوم الدين .

وما أحسن ما يقول سيدى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« من كان مستنفا فليستن بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا خير هذه الامة ، ابرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ،

ونقل دينه ، ففتشبهوا باخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا على الهدى المستقيم والله رب الكعبة •

يا ابن آدم صاحب الدنيا ببذلك ، وفارقها بقلبك وهلك ، فإناك موقوف على عملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت ، يأنك الخير » •

ويقول كذلك سيدي عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« لا يكون الرجل من العلم بمكان حتى لا يحسد من فوقه ، ولا يحقر من دونه ، ولا يبتغى بالعلم ثمنا » •

وكان سيدي عبد الله بن عمر رضى الله عنهما شديد العناية باتباع آثاره صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد روى عن موسى بن عقبة عن نافع قال : لو نظرت الى ابن عمر رضى الله عنهما اذا اتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم لقلت : هذا مجنون • وحدثوا عنه أيضا أنه كان في طريق مكة يأخذ برأس راحلته يثنيها (أى عن الاسراع) ويقول : لعل خفا يقع على خف - يعنى خف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم •

فانظر رعاك الله كيف حرص الصحابة الكرام على اقتفاء آثاره صلى الله عليه وسلم فافلحوا في محبة الله ورسوله وذلك هو الفوز العظيم . وقد اعتنقوا الاسلام فاعتزوا به ، وعاشوا له ، وحرصوا عليه ، وطبقوا أحكامه نصا وروحا حتى لقوا الله ببيض الوجوه ، راضيين مرضيين •

وعن نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان يدعو على الصفا ويقول في دعائه :

« اللهم اعصمنى بدينك وطواعيتك وطواعية رسولك ، اللهم جنبنى حدودك ، اللهم اجعلنى ممن يحبك ويحب ملائكتك ويحب رسلك ويحب عبادك الصالحين ، اللهم جنبنى اليك والى ملائكتك والى رسلك والى عبادك الصالحين ، اللهم يسرنى لليسرى ، وجنبنى العسرى ، واغفر لى فى الآخرة والاولى ، واجعلنى من ائمة المتقين ، اللهم انك قلت : (ادعونى استجب لكم) وانك لا تخلف الميعاد ، اللهم اذ هديتنى للاسلام فلا تنزعنى منه ولا تنزعه منى حتى تقبضنى وانا عليه » •

وانى ادعو لى ولكل مسلم بدعاء سيدى عبد الله بن عمر رضى الله
عنهما ، واضيف اليه : اللهم واجز عنا شيوخنا الاماجد خير ما تجزى
به ائمة عن اتباعهم ، فقد شوقونا اليك ورغبونا فيك ، وكانوا اسوة
حسنة لنا فى أقوالهم وافعالهم واجوالهم ، ورأينا فيهم صوراً مثلى
لاسلافنا الصالحين ، ففربوا لنا البعيد ، ويسروا لنا العسير ، فطابت
بهم أوقاتنا على بساط محبتك ، وسعدت بأسرارهم أرواحنا فى مناجاتك ،
فأنسنا بك واستوحشنا مما سواك ، فهمنا بك ، ووثقنا فيك ، واعتمدنا
عليك ، والفضل فى ذلك كله منك واليك ، الامانع لما اعطيت ، ولا معطى
لما منعت ، فان اطعناك فبتيسيرك ، وان شكرناك فبتوفيقك ، زماننا فى
يديك ، قدرت أمورنا قبل ان نكون ، وأحسنست الينا حين لم يكن منا
عمل ، وقبل ان يبدأ الاجل ، فعاملنا باحسنائك عند انتهائه ، فمك فضل
البداية وعلينا الثناء ما وسع جهدنا المحدود ، سبحانه لا نحصى ثناء
عليك أنت كما اثنيت على نفسك وقد قلت وقولك الحق (والله العنى
وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) •

الاشتغال بالله تعالى

« وقد كان ما كان ، واستدار الزمان ، وظهر ماء ان يؤلم يتغير الزمان ، فان فطنت الى الامر رجوت ربك ، له الشأن ، وكل يوم هو في شأن ، فمالك والناس ، عليك برب الناس ، يبعد عنك الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس ، فلا يعتريك في سيرك بأس ولا يأس ، ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل الناس بغير علم ، فلا تعباً بهم ، ولكن مقبلاً على الله حيثما كنت »

« السر كل السر في معاملة الله الذي يوجه القلوب الى الخير ، واذا سرت في هذا المبدأ فلا تغيره ، فان التغيير يضيع بل يهدم ما بنيت ، فاذا عدت اليه تحتاج الى وقت طويل لاعادة البناء بعد التشويش على الروح لاختلاف المشارب » .

جاءت تلك العظات النافعة في رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه لتليذه المبارك الصديق العزيز السيد / سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وهى ترشدنا الى بذل المجهود في طلب الله المعبود ، والتعلق بالخالق ، وترك الاشتغال بالخالق ، لأن السر كل السر في معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ، اذا أنست به سبحانه واستوحشت مما سواه ، وذلك هو أساس التربية الصوفية الحققة .

ولذلك المبدأ شواهد من الكتاب والسنة ، فقد مدح الله تعالى أهل الصفة من الصحابة الكرام فقال تعالى فى الوصاية بهم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

ويقول الامام الصوفي الكبير سيدي محمد بن علي الترمذي في ضرورة التعلق بالله تعالى : اجعل مراقبتك لمن لا يغيب عن نظره اليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

ويفصل ذلك رضى الله عنه فيقول : « بذكر الله يربط القلب ويلين ، وبذكر الشهوات واللذات يقسو القلب ويبيس ، فاذا شغل القلب عن ذكر الله بذكر الشهوات كان بمنزلة شجرة ، انما رطوبتها ولينها من الماء ، فاذا منعت الماء يبست عروقها وذبلت أغصانها ، واذا منعت السقي وأصابها حر القيط يبست الأغصان ، فاذا مددت غصنا منها انكسر ، فلا يصلح الا للقطع فيصير وقود النار ، فكذلك القلب اذا ييس وخلا من ذكر الله فأصابته حرارة النفس ونار الشهوة ، وامتنعت الاركان من الطاعة فاذا مددتها انكسرت فلا تصلح الا أن تكون حطباً للنار ، وانما يربط القلب بالرحمة ، وما من نور في القلب الا ومعه رحمة من الله بقدر ذلك فهذا هو الأصل .

فالعبد ما دام في الذكر فالرحمة دائمة عليه كالمطر ، فاذا قحط فالصدر في ذلك الوقت كالسنة الجذباء اليابسة .

ويقول كذلك رضى الله عنه في فضل الصلاة : « دعا الله الموحدين الى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم ، وهياً لهم فيها أنواع العبادة لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه والأفعال كالإطعممة ، والأقوال كالأشربة ، فهي غرس الموحدين ، هياًها رب العالمين لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات ، حتى لا يبقى عليهم دنس ولا غبار » .

ويقول سيدي أبو يزيد البسطامي : « الحب لله على أربعة فنون ، فمن منه وهو منته ، ومن منك وهو ودك ، ومن له وهو ذكرك له ، ومن بينكما وهو العشيق » .

ولا يظن ظان أن السادة الصوفية حين ينيهون عن الاشتغال بالناس يقصدون بذلك اعتزال الناس كلهم ، وعدم الاجتماع بهم وانما هم يقصدون به اجتتاب أهل الغفلة الذين يصدون عن ذكر الله وعن الطاعات ،

كما يقصدون به التحذير من اغتيال الخلق ، والوقوع في أعراضهم ، فذلك مما نهى الله عنه وحذر منه ، أما الاجتماع بأهل الصلاح ، فمحمود عندهم لأن أهل الصلاح يذكرون بالله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فيزداد الذاكر بهم خيرا كثيرا ، لأنهم أولياء الله فمن أحبهم فقد أحب الله ، وقد سأل رجل سيدي ذا النون المصري : من أجالس ؟ فقال : « جالس من الناس من تفهرك هيئته وتخوفك في السر والعلانية رؤيته ، ويخبرك عن نفسك بالذى هو أعلم به منك » .

ويقول سيدي ابراهيم الخواص رضى الله عنه : « دواء القلب في خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين » .

ويقول رضى الله عنه : « على قدر اعزاز المؤمن لأمر الله ، يليسه الله من عزه ، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين ، وذلك قوله تعالى (وله العزة ورسوله وللمؤمنين) » .

ويقول سيدي بلال بن سعد رضى الله عنه : أخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك ديناراً ، ويقول رضى الله عنه في روعة من الوعظ : أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم ، أما رزقه فدار عليكم ، وأما رحمته فغير محبوبة عنكم ، وأما ستره فسابغ عليكم ، وأما عقابه فلم يجعل لكم ، ثم أنتم على ذلك لاهون تجترئون على الحكم ، أنتم تتكلمون ويوشك الله تعالى أن يتكلم وتسكتون ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود منه الوجوه (وانتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) عباد الرحمن ، لو غفرت لكم خطاياكم الماضية لكان فيما تستقبلون شغل ، ولو غفلتم بما تعلمون لكنتم عباد الله حقا .

ويرى السادة الصوفية أن هوى النفس هو الذى يحجب العبد عن ربه ، ويقول سيدي أبو محمد الجريدي في ذلك : من استولت عليه النفس صار أسيرا في حكم الشهوات ، محصورا في سجن الهوى ، وحرّم الله على قلبه الفوائد فلا يستأذ كلام الله ، ولا يستحليه وإن كثر تراده على لسانه لأنه تعالى يقول (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) أى حتى لا يفهمونه ولا يجدون له لذة ، لأنهم تكبروا بأحوال

النفس والخلق والدنيا ، فصرف الله عن قلوبهم فهم مخاطباته ، وأغلق عليهم سبيل فهم كتابه ، وسلبهم الانتفاع بالمواظظ ، وجبسهم في عقولهم وآرائهم ، فلا يعرفون طريق الحق ، ولا يسلكون سبيله .

أقول وقد جعل الله تعالى التأثير بكلام الله دليلا على خشيته تعالى فقال سبحانه (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضل الله فماله من هاد) .

ويعجب السادة الصوفية من عبد لا يجاهد نفسه في مرضاة ربه حتى يكتفى به عما سواه ، ويقول سيدي محمد بن الفضل البلخي في ذلك : العجب ممن يقطع الأودية والقفار والمفاوز حتى يصل الى بيته وحرمة لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل الى قلبه فان فيه آثار مولاة ؟

وقد سئل شيخى العارف بالله سيدي الشيخ على عقل رضى الله عنه أن يأتي بأبيات من الهامه الفورى في وصف النفس على وزن البيت التالى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعملو بها في ذاتها

فكان مما قال ونقلناه عنه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زل من نزغاتها
تنأى عن الإصلاح طول حياتها
وتواصل الاقبال في شهواتها
وقفت على الدينار حسن بلائها
فأمالها عن هديها وهدايتها
قد رحبت بالسسيئات مريضة
وتضج أن دعيت الى حسناتها
والنفس أعدي صاحب تبلى به
قد أدخلتها النار من رغباتها

ان أنت تتصحها تضل طريقها
 وإذا تركت غرقت في حسراتها
 جهلت طريق الخير وادعت الهدى
 كم تكثر الدعوى على قرباتها
 ضحكت على جهالها فتوهموا
 أن العلاء والفوز في نزواتها
 فانصح لنفسك في الأمور لعلها
 قد ترزق الأنوار في سبحاتها
 ترضى تسفلها لكل نقيصه
 دون الذى تعلو به في ذاتها

ويقول السادة الصوفية : نفسك كالدابة ان ركبنتها حملتك وان ركبنتك
 قتلتك ، كما يقولون : من ملك نفسه عز ومن ملكته نفسه ذل ، ويقولون :
 لولا ميادين النفوس ما تفاضل المؤمنون ، ويقولون : الموفق من لا يخاف
 غير الله ، ولا يرجو غيره ، فيؤثر رضاه على هوى نفسه ، ويقولون : من
 علت همته على الأكوان وصل الى مكنها ، ويقولون : من صبر على مخالفة
 نفسه أوصله الله الى مقام أنسه .

ويقوم التصوف فى أساسه على مخالفة هوى النفس ، وقد قال رجل
 للامام المرتضى : ان فلانا يمشى على الماء فقال : عندي ان من مكنه
 الله من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشى على الماء وفى الهواء .

ومع اجتهاد السادة الصوفية فى فعل المأمورات وترك المنهيات بجهد
 لا يعرف الملل نراهم يعتمدون على فضل الله تعالى ولا يركنون الى أعمالهم
 ومجاهداتهم ، وفى هذا المقام يقول الامام المرتضى رضى الله عنه : من
 ظن أن أفعاله تنجيه من النار أو تبلغه الرضوان فقد جعل لنفسه ولفعله
 خطرا ، ومن اعتمد على فضل الله بلغه الله الى أقصى منازل الرضوان ،
 قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما
 يجمعون) ويعمل رضى الله عنه ذلك فيقول : السكون الى الأسباب يقطع
 القلوب عن الاعتماد على المسبب ، وقد سأله رجل : أى الأعمال أفضل
 فقال : رؤية فضل الله وأنشأ يقول :

ان المقادير اذا ساعدت
ألحقت العيـاجـز بالحـازم

وحين قال له رجل : أوصنى قال : اذهب الى من هو خير لك منى ، ودعنى
الى من هو خير لى منك •

وقد وضع لنا الامام المرتضى فى أقواله المتقدمة معنى ما قاله سيدى
الشيخ عبد السلام : فمالك والناس وعليك برب الناس ، لأن الخالق
سبحانه أقرب اليك من خلقه ، أما الوسواس الخناس الذى أشار اليه
الشيخ فى نصيحته فوسواس يحول بينك وبين ربك فيثبط همتك فى طاعته
تعالى أو يجعلك ساخطاً على مقدوره أو يائساً من رحمته ومغفرته ، وعلاج
ذلك الوسواس انما يكون بكثرة ذكر الله تعالى ومجالسة الصالحين من
أهل اليقين ، لأن مجالستهم تكسب المؤمن الثقة بالله وحسن التوكل عليه
والركون اليه فلا يعتري الانسان فى سيره يأس ولا بأس كما قال سيدى
الشيخ عبد السلام ، طيب الله ثراه •

لذلك نرى شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه راكنا الى
ربه ، طامعا فى عفوه فيقول فى الهامه المشرق مخاطبا مولاه جل وعلا :

اذا رابنى ذنبى دعتنى محبتي
اليه وما تثنى الذنوب عن الحب
فيارب ان زادت عيوبى فاننى
وثقت بأن الفضل أوسع من عيبى
أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتى
فلمست كبعض الناس أنسب للترب
تركت السورى دونى وجئتك مفردا
فلم يك غير الله فى السمع والقلب
وطهرت فى نجواك سر جوانحى
فخلصتها من عالم البعد والحجب
رضاء الفتى بالله يشرح صدره
فلن يتأذى بالحوادث والخطب
وما لذتى الا التجائى لوجهكم
فوجهكمو دون العوالم لسى قطبى

ويقول سيدى سمون رضى الله عنه فى حبه لله وتعلقه به سبحانه :

وكان فؤادى خاليا قبل حبكم
وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلما دعا قلبى هواك أجابه
فلست أراه عن فناءك يبرح
رمت بين منك ان كنت كاذبا
وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
فان شئت واصلنى وان شئت لا تصل
فلست أرى قلبى لغيرك يصلح

وقد كتب الامام الجنيد رضى الله عنه الى بعض أحبائه يقول : من
أشاز الى الله وسكن الى غيره ابتلاه الله تعالى وحجب ذكره عن قلبه ،
وأجراه على لسانه ، فان انتبه وانقطع ممن سكن اليه كشف الله ما به
من المحن والبلوى ، وان دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة
عليه وألبس لباس الطمع فتزداد مطالبته منهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم ،
فتصير حياته عجزا ، وموته كمدا ، ومعاده أسفا ، ونحن نعوذ بالله من
السكون الى غير الله •

أقول وقد جعل الله سبحانه التوكل على الله من علامات الايمان به
تعالى فقال عز وجل (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) ويعبر السادة
الصوفية عن شدة ثقتهم فى الله تعالى وتدبير أرزاقهم فيقولون : لو أن
العبد سأل الله ألا يرزقه لم يستجب له ولقال له : يا جاهل أنا خالقك
ولابد من أن أرزقك أبدا •

وقد سئل الامام سهل بن عبد الله عن القوت فقال : هو الحى الذى
لا يموت ، فقالوا : انما سألناك عن القوام ، فقال : القوام هو العلم ،
قيل : سألناك عن الغذاء ، فقال ، الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة
الجسد فقال : مالك واللجسد : دمع من تولاه أولا يتولاه آخر • اذا
دخل عليه علة فردها الى صانعه أما رأيت الصنعة اذا عابت ردوها الى
صانعها حتى يصلحها ؟

وكان سيدى معروف الكرخى رضى الله عنه يقول : انما أنا ضيف فى
دار مولاي : ان أطعمنى أكلت متى اطعمنى وان أجاعنى صبرت حتى

يطعمني ، ويقول سيدي بشر بن الحارث رضى الله عنه : ان العبد ليقراً
(اياك نعبد و اياك نستعين) فيقول الله تعالى : كذبت ما اياى تعبد ،
لو كنت تعبد اياى لم تؤثر هواك على رضى ، ولو كنت بى تستعين لم
تسكن الى حولك ولا قوتك ولا الى مالك و نفسك .

وينصح سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله عنه تلميذه باستمرار
الطاعة ودوام معاملة الله الذى يوجه القلوب الى الخير ويحذره من تغيير
هذا المبدأ ويبين له أن التغيير يهدم ما بناه ، واعادة البناء تحتاج الى
وقت طويل لاختلاف المشارب ، وسيدي الشيخ يريد ألا نتردد على كثير
من المرشدين خشية أن تختلف مناهج الارشاد فتتردد الروح بين هذا
المشرب وذاك وتشتغل بالمفاضلة بين الشيوخ فيعوقها ذلك عن السير
قدما في طريق الحق دون التواء عن الصراط المستقيم .

ويقول الامام السهروردي في ذلك المقام : قد يفسد المرید الصادق
بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ، ووجه ذلك أن أهل الفساد
يعلم فسادهم ويأخذ حذره منهم ، وأهل الصلاح يغره صلاحهم فيميل
اليهم بجنسية الصلاحية ، ثم يحصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية
تحول بين المرید وبين حقيقة الصحة لله تعالى ، ويكسب من طريقهم
الفتور في الطلب والتخلف عن بلوغ الارب فليتنبه المرید الصادق .

وانى أذكر في هذه المناسبة أن سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله
عنه زار مرة مریدا له في مرضه فوقع في قلبه أنه يذكر اسما لم يلقنه له
فسأله الشيخ عن الاسم الذى يذكره فصرح له به فقال : من لقتك هذا
الاسم قال فلان ، ، فقال له عد الى الأسماء التى لقتك اياها ولا تأخذ
عن غير مرشدك لأنه أدرى الناس بحالك واستعدادك فلما أطاع الشيخ
برىء من مرضه ، وتعلم من تلك التجربة ألا يأخذ الا بهشرب شيوخه
وارشاده .

وقد لاحظت من خلال مشاهداتى الكثيرة أن المترددين بين الشيوخ
العديدين والطرق المختلفة لا يتقدمون في التربية الصوفية وذلك أمر طبيعي
لأن مؤدى التردد أن ينظر لكل واحد من شيوخه نظرة النقص فلا يلتزمه
وحده ولا يراه كافيا للأخذ عنه ، ومن هنا يقل بل ينعدم انتفاعه به ،
وحسبك دليلا واضحا أن أبا جهل لم ينتفع من صحة مولانا رسول الله

صلى الله عليه وسلم حين نظر اليه على أنه يتيم أبى طالب ولم ير فيه
أكرم الرسل على الله تعالى ، صلى الله عليه وسلم ، بينما أسعدت العناية
الربانية سيدنا سلمان الفارسي بصحبته صلى الله عليه وسلم حتى ألحقه
بآل بيته مع أنه فارسي وأبو جهل قرشي ، مما يغيد أن صلة القلوب أكبر
أثرا في التربية الروحية من قرابة اللحم والدم .

ولقد أضلت الظواهر ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين
ولم يرفيه المخلوق الذي أراد الله تكريمه فأمر الملائكة أن تسجد له ،
فوقع ابليس في المعصية عن اصرار وعناد وقال (أنا خير منه خلقتني من نار
وخلقتني من طين) فحققت عليه لعنة الله الى يوم الدين ، ونعوذ بالله منه .

ولولا أن للشيخ مدخلا في تربية المريد في جنب الله ما جوزوا أن يتخذه
المريد رفيقا في طريق الله ، لأن من مبادئ الصوفية قولهم : ان استطعت
ألا ييسبك أحد الى مولاك فافعل ، ولا تؤثر على مولاك شيئا ، والشيخ
يد الله وعونه للمريد الصادق ، لذلك يقول عز وجل (وجعلنا منهم أئمة
يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) كما يقول سبجانه
(وتعاونوا على البر والتقوى) والشيخ انما يعطى مريده ثمرة تجاربه
الطويلة انشاقة حسب لوجه الله لايسأله عنها أجرا ولذلك قالوا ان المريد
يبدأ حيث انتهى شيخه ، وحسبه هذه الغنيمة .

ولهذا يجب أن يعتنى المريد باختيار الشيخ الذى يأخذ عنه ، لأنه يسلم
للشيخ روحه وهى أعز ما يملك ، واذا كان المرء يدقق فى اختيار أطباء
جسده ويسأل عنهم قبل أن يأتيتهم للتداوى فأولى به أن يدقق فى اختيار
طبيب الروح ويسأل الله العون فى الاستدلال عليه ، ويسترشد فى اختياره
بأهل الرشاد والصلاح والتجربة الذين يرجى منهم حسن اختيار شيوخهم ،
ومن أقوى الأدلة على الشيخ المربى : ظهور الصلاح والبركة فى اتباعه ،
كما يجب أن يتوافر فيه علم صحيح وذوق صريح وهمة عالية وحالة
مرضية وبصيرة نافذة .

ويقول سيدى محبى الدين بن عربى رضى الله عنه : وشيخك هو الذى
أمات نفسك قبل أن تموت وجال بك فى عالم الملكوت ، وشيخك هو الذى
أخذ منك وكشف عنك ، وشيخك هو الذى حمل عنك المشقات ، وأنزلك
منازل القربات ، وشيخك هو الذى ذلك على حالك لا من أخذ من مالك .

وقد قص الله علينا القصة الرائعة التي كانت بين سيدنا موسى عليه السلام وبين سيدنا الخضر عليه السلام في سورة الكهف فأرانا كيف حرص كلهم على الله وصاحب التوراة على أن يصحب عبدا من عباد الله آتياه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما وقال له في أدب رفيع (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا • قال انك لن تستطيع معي صبرا • وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا • قال مستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا • قال فان اتبعتنى فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) وقد بينت القصة بعد ذلك أمورا خفيت حكمتها الشرعية على سيدنا موسى عليه السلام فاعترض عليها ثم بين له سيدنا الخضر عليه السلام الوجه الشرعي في كل أمر منها ، فأيقن عيانا أن الخضر عليه السلام على علم من علم الله لا يعلمه موسى عليه السلام وسبحان من يختص برحمته من يشاء بما شاء وكما شاء •

وكفانا عظة ما كان من سيدنا موسى عليه السلام في بحثه عن العلماء الربانيين الصادقين ، فقد سافر في طلبهم والانتفاع بعلمهم سفرا طويلا لقي منه نصبا وذلك من عزم الأمور ، فجزى الله عنا مشايخنا خيرا كثيرا لقاء توجيههم وارشادهم (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم) •

التفويض لله تعالى

« لك الله ولأهل بيتك ، وحفظنا وإياكم جميعا من ماديات هذا الزمان وفي ظني أن ينتظر الانسان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وعندما يتبين الامر ، فيسير الانسان على قدر الله حيثما يوحيه في صدور الناس .

أفعاله محكمة وقل من يفهمها
يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها

جاءت النصيحة المتقدمة في رسالة بعث بها شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الطوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الحسيب الصديق السيد / سائى جمعه حفظه الله ورعاه ، وهو يرشده فيها الى التأنى والصبر وانتظار الفرج ، واستهلام الله سبحانه ، والعمل بما يقضه الله في قلبه في أوانه ، مع الوثوق في حكمة الحكيم العليم في كل ما يجرى به قضاؤه ، وان خفيت الحكمة على أكثر الناس ، أو دقت على أفهامهم .

وتلك النصيحة الغالية تعلمنا الركون الى الله تعالى في الشدة والرخاء فالقضاء قضاؤه ، والحكم حكمه ، ولا يقع في ملكه الا ما شاء ، لانه وحده (فعال لما يريد) ، ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

متى اعطاك اشهدك بره : ومتى منعك اشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرف اليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك .

كذلك يقول رضى الله عنه في شكر نعمة الله :

من لم يشكر النعم تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها ويضيف رضى الله عنه في شرحه فيقول :

وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى فقال عز من قائل (لئن شكرتم لأزيدنكم) فاذا كان ضمن لهم الزيادة على ما اعطاهم فكيف

لا يديم عليهم ما كان منحهم أولاً، إلا أن من أحب بقاء شيء قيده بعقاله
خيفة زواله ، فقيتوا نعم الله فيكم بوجود الشكر .

ويقول السادة الصوفية أن شكر النعمة إنما يكون باستعمالها فيما
خلقه الله له ، فإن عصى العبد ربه بنعمة أنعمها عليه فقد بدل نعمة
الله كفراً ، وشتان بين شاكر للنعمة وكافر بها ، ويقول سيدي ابن عطاء
الله في حكمه : لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك ،
فإن ذلك مما يحيط من وجود تدرك .

وكما ينصحن السادة الصوفية بالشكر في الرخاء فانهم كذلك
ينصحنون بالصبر عند البلاء كما أمرنا كتاب الله ، وكما أرشدتنا سنة
مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرينا سيدي ابن عطاء الله
السكندري رضي الله عنه كيف يصبر السادة الصوفية على البلاء
الصبر الجميل وهو الذي لا شكوى فيه فيقول :

« إنما يعينهم على حمل الاقدار ورود الانوار ، وإن شئت قلت
وانما يعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره ، وإن شئت قلت
وانما يعينهم على حمل الاحكام فتح باب الافهام ، وإن شئت قلت
وانما يصبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه ، وإن شئت
قلت وانما يصبرهم على ما جرى علمهم بأنه يجرى ، وإن شئت
قلت وانما يصبرهم على القضا علمهم بأن الصبر يورث الرضا ، وإن
شئت قلت انما يصبرهم على الاقدار كشف الحجب والاستار ، وإن
شئت قلت وانما يقويهم على أثقال التكليف ورود أسرار التصريف ،
وإن شئت قلت انما يصبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من
لطفه وابراره » .

« فهذه عشرة أسباب توجب صبر العبد ، وثبوتة لاحكام سيده
وقوته عند ورودها ، وهو سبحانه المعطى لكل ذلك بفضل ، والمان
بذلك على ذوى العناية من أهله » .

ولعل ما قاله سيدي ابن عطاء الله تعالى فيه الشرح الكافي لما
أجمله سيدي العارف بالله الشيخ أحمد الحلواني ، والدشيخ سيدي

عبد السلام الحلواني ، في البيتين الواردين في صدر المقال ، فانهما
له رضى الله عنه وقد علق عليهما في ديوان شعره فقال أوسع الله له
في رضوانه :

ما فرحت بشيء من نظمى قط فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن
ينفعانى غدا ان شاء الله تعالى ، وانى أكررها في النازلة تنزل بى
فبينكشف عنى غمها •

ويقول القطب الكبير سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه في
التفويض لله تعالى والرضا بما يجرى به قضاءه :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
أصاط بى علمه من قبل تصويرى

ويقول سيدى حاتم الاصم رضى الله عنه : عجبت ممن يعمل ويقول
انى أعملها ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا عنى الله ، رادا
لحكمه أتريد أن ترضيه ولست براضى عنه ، كيف يرضى عنك وأنت
لم ترض عنه •

ويحذرنا رضى الله عنه من دسائس الشيطان التى تضيق الصدور
وتبعث الهموم فيقول : ما من صباح الا والشيطان يقول لى : ما تأكل؟
ما تلبس ؟ أين تسكن ؟ فاقول : أكل الموت ، وألبس الكفن ، وأسكن
القبر • وهو بذلك يرشدنا الى أن الدنيا أهون من أن تكون موضع
الاهتمام ، فان رزق الانسان دبره الله بقدرته وإحسانه قبل أن يخرج
الانسان الى هذا الوجود ، ولذلك يقول السادة الصوفية فى وثوقهم
فى رزق الله « كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح الباء المشددة)
غير مدبر (بكسر الباء المشددة) مرزوقا من حيث لا تحتسب » •

أما السعى على الرزق فواجب عند السادة الصوفية لان التكسب
من سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لأصحابه الاعلام
الكرام وهم الصفوة فى هذه الأمة ، زراعة وتجارة لكنهم لم تشغلهم
ديناهم عن أخراهم بل سنعوا للأخرة سعيها ، فتمت رجولتهم فى الدنيا

والدين ولذلك نزل فيهم قوله الخالد الكريم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار • ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) •

ويقول سيدي إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه : عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال والنفقة على العيال •

ويفرق السادة الصوفية بين المؤمن والمنافق في التصرف في الأموال فيقولون : المنافق يأخذ من الدنيا بالحرص ، ويمنع بالشك ، وينفق بالرياء ، والمؤمن يأخذ بالخوف ، ويمسك بالسنة ، وينفق لله خالصا في الطاعة •

وهم كذلك يقولون : الواثق من رزقه من لا يفرح بالغنى ، ولا يهتم بالفقر : ولا يبالي أصبح في عسر أو يسر ، كما يقولون : من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء ، فهو يتقلب في رضا الله : الثقة بالله ، ثم التوكل ، ثم الاخلاص ، ثم المعرفة ، والأشياء كلها تتم بالمعرفة •

والسادة الصوفية مع سعيهم في كسب العيش ينكرون ان تكون الدنيا محط قلوبهم ومنتهى آمالهم ، وهم يكسبون العيش تعففاً فإن وسع الله عليهم الإرزاق بذلوا الأموال طيبة بها نفوسهم في مرضاته سبحانه ، ولا يقفون عند الزكاة المفروضة كما يفعل عوام المؤمنين ، بل يتجاوزون الزكاة كثيرا ، فربما أعطوا في الزكاة المئات وأنفقوا في صدقات النفل الآلاف ، لعلمهم ان تلك النفقة تبقى لهم عند الله تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) •

وحين يسعون في كسب عيشتهم يتحرون في اكتسابه طرق الحلال ، ليقتينهم أن الرزق مقدور ومقسوم ، وأن ما كان من رزق العبد يأتيه على ضعفه ، وما ليس له فلن يدركه بقوته ، وقد روى أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة الحديث الشريف « ان روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء شيء من الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فان الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته » •

والزهد عند السادة الصوفية ليس هو فقر اجيب بل هو خروج حب الدنيا من القلب ، فقد يكون الفقير مشغولا بحب الدنيا مع فقره وقد يكون الغنى طارحا الدنيا من قلبه وهى فى يده ، كما فعل الخلفاء الراشدون ، ومن حكم السادة الصوفية : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاء ، وهم كذلك يقولون : اذا حدثتكَ نفسك بترك الدنيا عند ادبارها فهو خدعة ، واذا حدثتكَ بتركها عند اقبالها فذاك .

ويحكى السادة الصوفية فى تهوين شأن الدنيا عندهم أن سيدى احمد بن خضرويه استقرض من رجل مائة ألف درهم ، فقال له الرجل أليس أنتم الزهاد فى الدنيا ؟ ما تصنع بهذه الدراهم قال : أشتري بها لقمة فاضعها فى فم مؤمن ولا أجتريء أن أسأل ثوبا من الله تعالى قال : ولم قال : لان الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وما مائة ألف درهم فى الدنيا من جناح بعوضة ، لو أخذتها فطلبت بها شيئا ما الذى تعطى بها ؟ والدنيا كلها لها هذا القدر ؟

ولذلك ترى السادة الصوفية يولون الآخرة كل اهتمامهم فينظرون الى آجل الدنيا حيث ينظر الناس الى عاجلها (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) ولذلك ينصحون المؤمن فيقولون له : لا تغتم الا من شئ يضرك غدا ، ولا تفرح الا بشئ يسرك غدا .

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام : فسير الانسان على قدر الله حيثما يوحىه فى صدور الناس ، فانه يقصد بالوحى هنا الانهام الذى يقذفه الله فى قلوب المخلصين الصادقين من عباده حين يفوضون أمورهم اليه ويسألونه ان يرضيهم بما يختاره لهم وفق ما قضى وقدر والله تعالى يعلم انبياءه الكرام وحيا ويعلم أوليائه انهاما .

والقرآن الكريم أرانا صورا من صور ذلك التفويض ليكون لنا منها العبرة والاعتبار ، فقص علينا مثلا ما كان من أم موسى حين تولكت على ربها فى حفظ رضيعها من عدوه فرعون ، فألهمها سبحانه أن تجعله فى التابوت وتقذف به فى النيم وتطمئن عليه وبشرها الهاما أنه سيرده اليها ، كما بشرها أنه سيجعله من المرسلين ، فنفذت ما ألهمها الله به ، وألقتة فى النيم مطمئنة الى فضل الله تعالى وصدق وعده ،

وربط الله على قلبها لتكرن من المؤمنين ، فردده تعالى اليها كي تقر عينها ولتعلم ان وعد الله حق وألقى الله عليه محبة منه وجعله من المرسلين أولى العزم فتمت نعمته عليه وعلى أمه ، ولما هام عليه السلام في محبة ربه سألته أن يتجلى عليه لينظر اليه ، فمنعه الله رؤياه ، لا بخلا ولكن رحمة به ، وكان من صعقته حين اندك الجبل ما كان ، كما حكاه الله تعالى في سورة الاعراف (فلما أفلق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين • قال يا موسى انى اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) •

وهو درس قيم يعلمنا الله به القناعة بما قسم الله تعالى وأعطى وفى الحديث الشريف : « القناعة كنز لا يفنى » ، وقال كثير من أهل التفسير فى معنى قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياه طيبة) الحياه الطيبه فى الدنيا هى القناعة •

ويعرف السادة الصوفية القناعة بانها الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل ، وهم يقولون : من كانت قناعاته سميته طابت له كل مرقة ، بمعنى أخذ ما قسمه الله تعالى من الرزق بنفس راضية قناعة غير متبرمة أو ساخطة ، كما يقولون : انقانع غنى وان كان جائعا •

ولذلك ترى السادة الصوفية يفسرون قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فيقولون ان الرجس هو البخل والطمع ، والتطهير هو السخاء والايتار وذلك غير ما يقول به المفسرون من أن الآية استعارت الرجس للمعاصي واستعارت الطهارة للطاعات ، والتوفيق بين التفسيرين ممكن فان البخل والطمع من المعاصي ، والسخاء والايتار من الطاعات •

ويحكى السادة الصوفية ان رجلا جاء الى الامام الجنيد رضى الله عنه ووضع بين يديه خمسمائة دينار وقال للامام فرقها على هؤلاء (يشير الى تلاميذه الفقراء) فقال له الامام : ألك غيرها ، قال نعم لى دنائير كثيرة ، فقال : أتريد غير ما تملك ، قال : نعم ، فقال له الجنيد : خذها فانك أحوج اليها منا فرددها اليه الامام ولم يقبلها منه •

أما ما يقوله سيدي الشيخ عبد السلام : وفي ظني ان ينتظر الانسان حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ، فانه رضى الله عنه يعلمنا به التأنى والروية وعدم الاندفاع في تصرفاتنا ، انتظارا لما يشرح الله له الصدر ، فيتصرف حيثما يوجهه الالهام القلبي فان قلوب الاتقياء الاصفياء المتوكلين على الله : والمفوضين أمورهم اليه ، تصدق في الفتوى وتبين الرشد من الغي ، ولا غرابة في هذا التوجيه ، فقد قال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابي : « استفت قلبك » كما قال له : « البر ما اطمأنت اليه النفس » .

وحين خطب سيدنا أبو بكر الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته الطاهرة الزهراء قال له صلى الله عليه وسلم انى انتظر بها القضاء ، وخطبها من بعده سيدنا عمر فقال انها صغيرة ، ثم جاء صلى الله عليه وسلم الوحي بان يزوجهما من امانا على فتم ذلك وأخرج الله منهما ومن ذريتهما الكثير الطيب المبارك بدعوته صلى الله عليه وسلم .

والاتقياء يرضون بحكم القضاء ، وعلى أى صورة ، فان جرى بالخفاء شكروا ، وان كانت الأخرى-صبروا ، وما أروع ما يقول السادة الصوفية في حكمهم : الشاكر مع المزيّد لانه في شهود النعمة (لئن شكرتم لازيدنكم) والصابر مع الله تعالى لانه بشهود المبتلى (ان الله مع الصابرين) .

ويقول بعض حكماء الصوفية :

إذا أعطى فقد أَرْضَى ولكن
إذا سلب الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا
وأحمد عند منقلب اياها
لنعمته التى أهدت ثناء
أم الاخرى التى أهدت ثوابا

وسادتنا آل انبييت شاكرون صابرون كما رأيناهم في الناحيتين في تاريخهم الحافل بالمفاخر ، ومع ذلك فانهم من كمالهم يتهمون أنفسهم بأنهم لم يبلّغوا ما أمّوا من الشكر لانعم الله والصبر على بلائه ، حتى

لقد التزم الامام الحسين السبط رضى الله عنه الحجر الاسود وقال وهو يينا جى ربه : الهى نعمتنى فلم تجدننى شاكرًا وابتيئتنى فلم تجدننى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أنت أدمت الشدة بترك الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا انكرم •

أقول ومثل هذه المناجاة لا تكون من غير سادتى آل البيت الامجاد : فان فصاحتهم تغرف من البحر وتغلق الصخر ، والاغرابه فى ذلك فمن بينهم خرج العلم وعندهم يأخذ الناس الورع ، وكيف لا وهم الآمرون بالمعروف وانهاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله •

وهم أئمة الصابرين على البلاء فكم حملوا من صنوف البلاء ما تنأه الجبال الشم ، وقد ابتلوا فى هذه الدنيا على قدر دينهم ويقينهم فما ضجروا وما قنطوا من رحمة الله ، ويقول امامنا الاكبر على بن أبى طالب رضى الله عنه : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، كما يقول كرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو •

ويقول السادة الصوفية : فاز الصابرون بعز الدارين ، لانهم نالوا من الله معيته وقالوا فى معنى قوله تعالى (اصبروا وصابروا ورابطوا) الصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المراقبة ، وقالوا اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالى ، وصابروا بقلوبكم على البنى فى الله ورابطوا بأسراركم على الشوق الى الله ، وقالوا : اصبروا فى الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله ، وقالوا : الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر فى الله بلاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء •

ويقول السادة الصوفية ان اظهار البلاء على غير وجه الشكوى لا ينافى الصبر ، قال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) مع ما أخبر عنه تعالى أنه قال (أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) •

وأخيرا اختتم بما بدأ به سيدى الشيخ عبارته فاقول حفظنا الله من ماديات هذا الزمان ، وجعلنا من أهل التقوى الذين رأوا الغنى الحق فى اليقين به سبحانه ، فوثقوا فيه ، واطمأنوا به وفوضوا أمورهم

اليه ، واستحسنوا أفعاله وان خالفت هوى النفوس ، فهانت عليهم
المصائب ، وقدروا للمنع فضل في نعمه الظاهرة والباطنة ، فشكروها
ولم يكفروها ، فجمعوا بين الصبر الجميل والشكر الجزيل ، ومن جمع
بين الصبر والشكر فقد جمع بين أجر الصابرين وسعادة الشاكرين ،
وفوض الله فيما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ، وصار بهذا كله على
قدم مولانا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي كان يقول عند
النسوم :

« اللهم انى أسلمت نفسى اليك والجأت ظهري اليك ، وفوضت
أمرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك ،
أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي ، فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا
أنت » •

اللهم اجز عنا نبينا خير ما تجزى به نبيا عن أمته ورسولا عن قومه
وآته الوسيلة والفضيلة وابعثه اللهم مقاما محمودا الذى وعدته انك
لا تخلف الميعاد •

الركون إلى الله تعالى

« روحى سبحت فى معرفة الحق، فنظرت ماذا فى السموات والأرض، فذكرت فضله، وشكرته على هدايته، فوقف على الحدود، وعلمت أنه هو القاضى وهو المدبر، فركنت إليه وقلت: قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

جاءت تلك الكلمات النافعة فى رسالة بعث بها سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه مد الله فى عمره وبارك له فى حياته وهى تدلنا على فضل التفكير فى خلق السموات والأرض الذى يكشف لنا عن آيات الله الدالة على وجوده وقدرته ووحدانيته، فيقف المؤمن منه موقف المخلوق من خالقه، والمربوب من ربه، والمرزوق من رازقه، والفقير من الغنى عنه، والمملوك من المالك، والعابد من المعبود، والحادث من القديم، والميت من الحي الذى لا يموت.

ويقول سيدى أحمد الانطاكى رضى الله عنه: أنفع العقل ما عرفك نعم الله تعالى عليك، وأعانك على شكرها، وقام بخلاف الهوى، وقد جعل الله سبحانه وتعالى التفكير فى خلق السموات والأرض من خصائص العقلاء فقال تعالى (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار • ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من انصار • ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار • ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد) فكان ذكر الله تعالى مدخلهم الى الفكر، والفكر مدخلهم الى قوة اليقين بالله، وقوة اليقين مندخلهم الى الوقوف على حدوده سبحانه أملا فى غنوه وغفرانه وخوفا من بطشه وسلطانه، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا •

وقد وصل الانسان في زماننا بتقدمه العلمى الى القمر ووطئت أقدام البشر فعلا سطح القمر لكن هل ازداد الانسان بتجربته هذه ايمانا بالله وثقة فيه واعتمادا عليه وتوحيدا له : لا أظن ذلك وانما ازداد اعتدادا وغرورا بعلم الانسان وقدرته وسيطرته على الكون وبسبب دولته وتفوقها على غيرها من الدول ، ولا نعجب نحن المسلمين من ذلك الغرور لانه سبحانه وتعالى نبهنا اليه في كتابه المبين فقال تعالى : (انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاخطلت به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذ أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم عقادرون عليها أتاهم أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) *

وصدق السادة الصوفية حين يقولون ان مفاز الدنيا تقطع بالاقدام ولكن مفاز الآخرة تقطع بالقلوب ، فقد وصلوا الى القمر باقدامهم ولكن قلوبهم لم تتجه الى الآخرة اتجاه المتفكرين من اولى الابواب في خلق السموات والارض ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولئن باهى أهل الدنيا بالوصول الى القمر فان اهل الآخرة يباهون بالوصول الى خالقه سبحانه ، والوصول الى المكون اعظم أثرا وأبقى من الوصول للأكوان ، وأين وصول يفنى بفناء الانسان من وصول يبقى ببقاء الله : اللهم أدم عينا نعمة توحيدك والايمان بك فانك تغنى عن غيرك ، وغيرك لا يغنى عنك شيئا *

واذا آمن الانسان بربه ايمانا يباشر قلبه علم يقينا انه لا حركة ولا سكون الا بقضائه وقدره فسكن للاقدار ارضا لمقدرها ، ورضى بالقضاء اطمئنانا الى عذالة القاضى ، فثكر في الرخاء ، وصبر في البلاء . وقال ما رده سيدى الشيخ من كلام الله تعالى الذى يوجهنا الى الرضا والتسليم (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وذلك شأن الصادقين من عباد الرحمن *

ويقول السادة الصوفية فى أهمية الصدق مع الله : لا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق ، والصدق مستغن عن الأحوال كلها ، ولو صدق العبد فيما بينه وبين الله حقيقة الصدق لاطلع على خزائن من خزائن الغيب ولكان آمنا فى السموات والارض *

ومن روائع السادة الصوفية انهم يقولون ان الله تعالى دعا الصابرين من المؤمنين على المعارضة فقال تعالى (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) بينما دعا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى انصبر مع المراقبة فقال تعالى : (واصبر وما صبرك الا بالله) لانه صلى الله عليه وسلم أجل عند ربه من ان يطالبه بمعاملة تقتضى عليها معاوضة كما قال له (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) أى انما هو حكم الله الذى جرى عليك لا حكم غيره وانت محاط على الدوام بعنايته سبحانه ، وكذلك أدبه فى الحرب فقال تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فلما أدبه بذلك قال صلى الله عليه وسلم : اللهم بك أصول وبك أجول ، وبك أقاتل ، وبك أحاول .

ولهذا يوجه السادة الصوفية تلاميذهم الى الاعتماد على الله فى جميع أحوالهم ، والى شكره سبحانه والرضا بقضائه ، حتى تتحقق عبودية المريد لربه ومما كتبه سيدى أبو سعيد بن الاعرابى انى أحد المريدين قوله :

كلاك الله كلاءة الوليد المرحوم، وحفظك حفظ النولى المعصوم، ووهبك معرفة ما أنعم به عليك ، واستخرج منك ما جبلك عليه ، وحجبك عن نفسك المقاطعة دونه ، وكفأك عوائقها وبوائقها ورؤية عمك ، وائر سعيك ، وتزكية نفسك ، واعتقك من رقها ، وكفأك عوارض تحيرها ، وفضول تكلفها ، واستخلصك لنفسه منها ، ليحقق فيك العبودية ، فيزكو عمك وان خف ، وينمو سعيك وان قل ، وتطيب حياتك وان مت ، حتى يوصلك بالحياة التى لا موت فيها ، والبقاء الذى لا فناء بعده ، وتولى أمرك بالحسنى فى عواقبها ، كما كفأك التحير فى أوائلها ، انه ولى التمام لما ابتدأه .

ويقول السادة الصوفية ان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال متحدثا بنعمة ربه عليه : « انا سيد ولد آدم ولا فخر » ويفسرون قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا فخر » فيقولون انما قصد صلى الله عليه وسلم ان يقول : « ان هذا عطاء الله وانا لا افتخر بالعطاء لان فخرى بالمعطى جل جلاله لا بالعطاء » .

ويقول أمانا على بن أبى طالب رضى الله عنه : الخير كله مجموع في أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون في ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو ، وكل نظر لا يكون في عبادة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون في تعبد فهي فتنة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبادة ، وحركته تعبد ، ويسلم الناس من لسانه ويده .

ويقول أمانا عثمان بن عفان رضى الله عنه : وجدت الخير مجموعا في أربعة : التحبب الى الله تعالى بالنوافل والثاني الصبر على أحكام الله تعالى ، والثالث الرضا بتقدير الله عز وجل والرابع الحياء من الله عز وجل .

أما معرفة الحق سبحانه التي سبجت فيها روح شيخنا رضى الله عنه فقد عرفها السادة الصوفية فقالوا : حقيقة المعرفة المحبة له بالقلب والذكر نه باللسان وقطع الهممة عن كل شيء سوا ، وذلك تراهم يحذروننا من الغفلة وآثارها فيقولون : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة ما ظهرت بك الشهوة .

وقد سئل سيدى أحمد بن خضرويه رضى الله عنه : أى الأعمال أفضل ؟ فقال رعاية السر عن الالتفات الى شيء سوى الله تعالى ، ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : ثلاث خصال من صفة الاولياء : الثقة بالله في كل شيء ، والغنى به عن كل شيء ، والرجوع اليه في كل شيء وقد سئل رضى الله عنه : اخبرنا عن الله ما هو ؟ قال : له واحد ، قيل : كيف هو ؟ قال : ملك قادر ، قيل : أين هو ؟ قال : بالمرصاد ، قيل : ليس عن هذا نسألك : قال : فذاك الذى تسألون عنه صفة المخلوق ، أما صفة الخالق فما أخبرتكم به .

ويقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل نور الله ضريحه في الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

إذا كنت تهوى الله نلت مكانة
وإن كنت تهوى الناس نلت هوانا

ومن يذكر الرحمن بالقلب صادقا
علا فوق اعناق الملوك مكانا
ونحن قلوب طهر الله أصلها
ورب السما بالمكرّمات كسانا
ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بياننا
مددنا الأيادي للمهيمن ذلة
فجاد علينا واستجاب ندانا
خليلى ان الحب يقتل أهله
وما عز من فى الحب لا يتثنانى
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا
لتصبح منا ان سقيت سقانا
تجلت لنا الانوار من عالم البقا
فهايت بنا أرواحنا ونهانا
فنينا بها حبا فطابت حياتنا
رأينا بها عند الفناء بقانا

ومعرفة الله عند السادة الصوفية على ثلاثة أوجه : معرفة اقرار،
ومعرفة حقيقة ، ومعرفة مشاهدة وفي معرفة المشاهدة يندرج الفهم
والعلم والعبارة والكلام وذلك ما يفسر لك قول شيخنا العارف بالله
سيدي الشيخ على عقل رضى الله عنه :

ولم نتكلم انما فاض حبنا
شهودا فأرسلنا العلوم بياننا

ولم يكن كلامه مثل كلام غيره ، وانما امتاز كلامه بالذوق الذى
يتحلى به أهل الشهود الذين اختصهم الله برحمته واجتباهم لساحة
قدسه وقال فيهم (يحبهم ويحبونه) كما قال فيهم (والذين آمنوا أشد
حبا لله) .

ومحبة الله عند السادة الصوفية على ثلاث أحوال :

الأول — محبة العامة ، وتتولد من احسان الله تعالى اليهم وعطفه
عليهم لأن النفوس جبلت على حب من احسن اليها ، وعلامة هذه المحبة
صفاء الود مع دوام الذكر لان من احب شيئا أكثر من ذكره .

الثانى — حب الصادقين ويتولد من نظر القلب الى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته ، وقد سئل الامام ابو سعيد الخراز عن هذه المحبة فقال : طوبى لمن شرب كأساً من محبته ، وذاق نعيمها من مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه ، فملاً قلبه حبا ، وطار بالله طربا ، وهام اليه اشتياقا ، فياله من وامق متصل بربه ، كلف دنف ، ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه •

وفي هذه المحبة يقول سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

إذا قيل لى أطلب قلت ربي مطلبى
وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى
سلونى عن العشاق قد ذقت حبهم
وانى لهم رأس اذا كان من رأس
وان حبال الوجد تربط مهجتى
وقلبنى بحب الله يعبق كالورس
حسبت الهوى سهلا فحضت عبابه
فطورا به أطفو وطورا به غطى
الى ان اتتنى من لدنه عناية
وصلت بها بر السلامة والانس

الثالث — محبة الصديقين والعارفين ، وتتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة ، فكذلك أجبه بلا علة يقول فى تلك المحبة سيدى الشيخ على عقل قدس الله سره :

طول لىلى فى محبتكم
أتملى من جلالكم
قد غرقنا فى مودتكم
وأنظمننا فى حمايتكم
فى جلال صيب هطل

يا حبيبى أنت محتسبى
أنت مقصودى ومطلبى

أنت يا رب السما اربى
أنت يا خلاق هتسبى

أنت لى ياذا الجلال ولى

فاذا عرف المؤمن ربه بمذاقه أحبه محبة العارفين ومن أحبه محبة العارفين توكل عليه في أموره كلها ، وقد قال تعالى (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) وقال تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فكان توكل المتوكلين أخص من توكل المؤمنين ، وقد رد سبحانه المتوكلين اليه فقال تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه ، وأمر أحب أحبائه صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه فقال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) كما قال له (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم) .

وقد سئل الامام أبو تراب النخشبى رضى الله عنه عن معنى التوكل فقال هو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية ، فان أعطى شكر ، وان منع صبر راضيا موافقا للقدر ، وقد قال الامام الجنيد رضى الله عنه ان التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى .

ويقول السادة الصوفية ان التوكل يقتضى الرضا ، وهو مقام شريف نوه بفضله القرآن الكريم فقال تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقال تعالى (ورضوان من الله أكبر) فبين سبحانه ان رضا الله عن عباده أقدم وأكرم من رضاهم عنه .

وعرف السادة الصوفية الرضا بأنه سكون القلب تحت حكم الله عز وجل ، وعللوا هذا السكون بان القلب ينظر الى قديم اختيار الله تعالى فيعلم ان ربه اختار له الافضل فيرضى به ويترك السخط .

ومن السادة الصوفية من عمل في اسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستويا لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم المكاره والشدائد والله والعطاء .

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل برؤية رضا الله عنه لقوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا عنه) فلا تثبت لنفسه قدم في الرضا وان استوى عنده الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

وفي ذلك يقول قائلهم :

إذا أعطى فقد أَرْضَى ولكن
إذا سلب الذى أعطى أثابا
فأى النعمتين أحق شكرا
وأحمد عند منقلب أياها
أنعمته التى أهدت ثناء
أم الأخرى التى أهدت ثوابا

وهو يشير في الشطر الأخير الى ثواب الصبر على البلى حين يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ويحكى سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه أنه دخل مرة على مريض يعوده فبينما كان يكلمه أن أنه ، قال ذو النون فقلت له : ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال : ليس بصادق في حبه من لم يتأخذ بضربه .

وحين يتكلم السادة الصوفية عن الصبر يقولون ان الصبر على ثلاثة أوجه : متصبر ، وصابر ، وصبار ، فالمتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر على الكاره ومرة يعجز ، والصابر من يصبر في الله والله ولا يجزع ، وأما الصبار فذاك الذى صبره في الله والله وبالله فهذا لو وقع عليه البلى لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة .

وكان الامام الشبلى رضى الله عنه اذا سئل عن الصبر يتمثل بهذه الابيات :

عبرات خططن في الخد سطرا
قد قرأها من ليس يحسن يقرأ

ان صوت الحب من ألم الشو
ق وخسوف الفسراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الص
بر فصاح المحب بالصبر صبيرا

ويقول السادة الصوفية ان شكوى الضر لله تعالى لا تخرج
المحب عن صفة الصبر ، ويستدلون على ذلك بان سيدنا أيوب عليه
السلام شكا ضربه لربه حين قال : (انى مسنى الضر وأنت ارحم
الراحمين) ولم تخرجه هذه الشكوى من صبره واطمئنان قلبه الى
حكم القضاء فمدحه الله تعالى وقال فى شأنه (انا وجدناه صابرا
نعم العبد انه أواب) وانت ترى من ذلك ان المدار كله على سكون القلب
لجارى الاقدار ، ولذلك يقول السادة الصوفية فى حكمهم : المرضا
بمواقع القدر نعم الوسيلة الى درجات المعرفة ، وفى هذا المقام يقول
شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

قلبى اصبر لا تكن تشكو
ونفسى لا تثنى
لم ألاحظ غير وجهه الله
خل الخلق على
ان سألت الناس أحرم
ان سألت الله يغنى
ان سألت الناس أبعد
ان سألت الله يمدنى
ان آيات التجلى
بالمعانى عرفتني
آية الوجدان روى
وشهود الله فنى

وكذلك هم يقولون ان الدعاء لا ينافى التسليم والتقويض ، وقد
سئل بعض السادة الصوفية عن الدعاء وما وجهه لاهل التسليم
والتقويض فقال : يدعو الله ولهذا الدعاء وجهان : احدهما يزين
جوارحه الظاهرة بالدعاء لان الدعاء نوع من الخدمة ، والثانى أنه
يدعو ائتمارا بأمر الله الذى أمر بالدعاء .

ومن دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه :

الهي وسيدى ومولاي ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ؟ ومن
أوسع منك رحمة لمن انتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطايا ورأفة
لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلمهم في نعمائك يتقلبون ، ولك
بفضلك عليهم يعبدون ، وفنيت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وحدك ،
فهم اليك في الليل والنهار متوجهون ، وعليك في كل الأحوال مقبلون
ولك على الأحوال مؤثرون فأنا أسألك يا الهي وسيدى ومولاي ان تكون
لى بفضلك كالثاء عاصما راحما ، فانى اليك لاح ، وبك مستغيث ، واليك
راغب ، ومنك راهب ، وعليك في أمور الدنيا والاخرة متوكل ، لا اله الا
أنت سبحانك انى كنت من الظالمين .

وحكى الامام الجريري رضى الله عنه فقال : سمعت ابراهيم
المارستانى رحمه الله تعالى يقول : رأيت الخضر عليه السلام في المنام ،
فعلمنى عشر كلمات وأحصاها على بيده :

اللهم انى أسألك حسن الاقبال عليك ، والاصفاء اليك ، والفهم
عنك ، والبصيرة فى أمرك ، والنفاد فى طاعتك ، والمواظبة على ارادتك ،
والمبادرة فى خدمتك ، وحسن الادب فى معاملتك ، وبرد التسليم اليك ،
والنظر الى وجهك .

وكان سيدى يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول فى دعواته :
الهي ، اذا قلت لى فى القيامة : عبدى ماغرك بى ، أقول : سيدى
برك بى ، وان ادخلتنى النار بين اعدائك لأخبرتهم بأنى كنت فى الدنيا
أحبك لانك مولاي ومن جميع الاشياء مغناى ، وكذلك كان رضى الله
عنه يقول : اللهم ان نجبتنى نجبتنى بعفوك ، وان عذبتنى عذبتنى بعدك ،
رضيت ما بى لانك ربى وأنا عبدك ، الهي أنت تعلم انى الا أقوى على
النار ، وأنا أعلم انى لا أصلح للجنة ، فما الحيلة الا عفوك ، وكان
رضى الله عنه يقول : اللهم اتقرب اليك ، وبك ادل عليك ، وحجتى
نعمك لا عطى ، ولا أظنك تحاسب غدا بعدك من غشيتة اليوم بفضلك ،
وعفوك يستغرق الذنوب ، ورضوانك يستغرق الآمال ، ولولا أنك بالعفو
تجود ما كان عبدك بالذنب يعود .

وكان رضى الله عنه يقول : الهى وسيدى ومولاى ومن جميع
الاشياء معنأى ، ضيعت نفسى بالذنوب فردها على بالتوبة ، أنت تعلم
أن الكريم من عبادك يعفو عن ظلمه وقد ظلمت نفسى وأنت أكرم
الأكرمين فاعف عني ، الهى أنت تعلم ان إبليس عدو لك ولى ،
وليس شئ أنكى لكمده وأقطع لكيدته من غفرانك لى فاعفر لى يا أرحم
الراحمين .

وختاما أقول : (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان
ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

جهاد النفس والهداية

أرسلك إلى نفسك خاصة تجاهدها ، فان قدرت عليها وصرت مع الله خاصة أرسلتك بعد ذلك إلى أهلك ، فتسرى روحك بنور من عند الله إلى قلوبهم بدون جهد ولا تعب ولا علم منك ، فيهديهم الله هداية كهديتك ، فتفرح بهم ويفتح الله عليك وعليهم ثم بعد ذلك يرسلك إلى أهل ودك ومحبتك ، فيهدون بما يقذفه الله تعالى من سر روحك ثم بعد ذلك لأهل قطرك حسب ما قدر لك ، ثم إلى الملأ الأعلى فتتفتح وتتفتح وتعرف مقام المصطفى صلى الله عليه وسلم وتتلفذ من شراب بحر الفيض ، وتعرف أن حيرة القلب أمام الرب سبحانه تكون من الميل إلى الناس في غفلة عن رب الناس مع أن الناس ليسوا هم الأساس ، فلا تشرب إلا من شراب الرسول صلى الله عليه وسلم .

جاءت السطور المتقدمة في رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الطوانى طيب الله ثراه إلى تلميذه الصالح المبارك الصديق الكريم السيد / سالم جمعة ، بارك الله له في دينه ودنياه ، وهى ترينا أثر جهاد النفس في ذات المسلم في آله وذويه وأحبابه وأهل وطنه ، كيفما شاء الله تعالى وقدر .

وقد أرانا سيدى الشيخ أن جهاد النفس يتدرج بصاحبه شيئاً فشيئاً في صعوده إلى قمة العرفان التى تنتهى إليها همم العارفين بالله ، الذين شغلهم الله تعالى عما سواه . فالدرجة الأولى التى يصعد بها المؤمن هى تهذيب نفسه لنفسه فان بلغها تعدى أثره إلى من حوله من أهله وخاصته ، ثم إلى أصدقائه الذين يتصلون به ، ثم إلى أهل وطنه فلا يقف سره عند الأقربين بل يتعداهم إلى غيرهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ويقول السادة الصوفية أن المؤمن فى تهذيب نفسه ينتقل من العبادة إلى العبودية ثم ينتقل من العبودية إلى العبودية ، فالعبادة تكون لأهل المجاهدات ، والعبودية تكون لأهل المكابدات والعبودية تكون لأهل

المشاهدات • وعنهم أن المؤمن لا يستطيع تهذيب نفسه الا بمخالفة هواها ، ويحكى سيدى الامام أبو القاسم الجنيد فيقول في ذلك :

أرقت ليلة ، فقممت الى وردى (من الصلاة) فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة والتلذذ بمناجاتى لربى ، فتحيرت ، فأردت أن أنام فلم أقدر . ففقدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب وخرجت فاذا رجل ملتف فى عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحس بى رفع رأسه وقال : يا أبا القاسم الى الساعة ؟ فقلت يا سيدنى : من غير موعد ؟ قال : بلى ، قد سألت محرك القلوب أن يحرك الى قلبك ، فقلت : قد فعلت ذلك ، فما حاجتك ؟ فقال : متى يصير داء النفس دواءها ؟ قلت : اذا خالفت هواها صار دواؤها داءها ، فأقبل على نفسه وقال : اسمعنى ، قد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات فأبيت أن تسمعيه الا من الجنيد ، فقد سمعت ، وانصرف عنى ، ولم أعرفه ، ولم أقف عليه بعد •

أقول والقرآن الكريم يؤيد السادة الصوفية فى فهمهم هذا ، فانه سبحانه وتعالى يقول (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) ، ويقول الامام أبو حفص رضى الله عنه : من لم يهتم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجبرها على مكروهاها فى سائر أيامه كان مغرورا ، ومن نظر اليها باستحسان شئ منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الخليل (عليهم الصلاة والسلام) يقول (وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربه) •

ويقول سيدى الامام الجنيد رضى الله عنه : النفس الأمارة بالسوء هى الداعية الى المهالك ، المعينة للأعداء ، المتبعة للهوى المهتمة بأصناف الأسواء • ومن حكم السادة الصوفية : نفسك كالدابة ان ركبتها حملتك وان ركبتك قتلتك • ويقولون : النعمة العظمى الخروج من النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل • ويقول سيدى أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه : وقفت نفسى مع المصلين فلم أر لى معهم قدما ، ووقفت نفسى مع الصائمين فلم أر لى معهم قدما ، فقلت يارب : كيف الوصول اليك ؟ فقال : أترك نفسك وتعال ، ويقول سيدى سهل التستري رضى الله عنه : ما عبد الله بشئ مثل مخالفة النفس والهوى •

وفي نهى النفس عن هواها وفاء بعهد الله تعالى وخوف منه سبحانه .
وقد قال تعالى لبنى اسرائيل (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياي
فارهبون) ، ويقول سيدى الامام القشيري رضى الله عنه فى لطائف اشاراته
عند هذه الآية الكريمة :

عهده سبحانه حفظ المعرفة ، وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ مخابه
وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أوفوا بعهدى بفحظ السر أوف بعهدكم بجميل البر ، أوفوا بعهدى الذى
قبلتم يوم الميثاق أوف بعهدكم الذى ضمنتم لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى
فى ألا تؤثرأ على غيرى أوف بعهدكم ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى وأطال
رضى الله عنه فى تلك الروائع الى أن قال :

أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك الشهوات أوف بعهدكم بكفائتكم تلك
المطالبات ، أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبدا : ربى ربى ، أوف بعهدكم
بأن أقول لكم عدى . وإياى فارهبون أى أفردونى بالخشية
لانفرادى بالقدره على اليجاد فلا تصح الخشية من ليس له قدرة
ولامنة .

ومن حكم سيدى أبو سليمان الداراني رضى الله عنه قوله : من
أحسن فى ليله كوفى فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كوفى فى ليله ، ومن
صدق فى ترك شهواته كفى مؤونتها ، والله أكرم من أن يعذب قلبا ترك
شهوة لأجله . ويقول السادة الصوفية أن متابعة النفس فى هواها يؤدى
بحسابها الى الهوان عند الله تعالى ، وفى ذلك أنشدوا .

نون الهوان من الهوى مسروقة
وصريع كل هوى صريع هوان

وفى جهاد النفس يستقصى السادة الصوفية عيوبهم الباطنة وهى عندهم
ثلاثة أنواع :

(أ) عيوب النفس ، وتأتى من تعلقها بالشهوات الجسدية ، كطيب
المأكأ والمشرأ والملبس والمركأ .

(ب) وعيوب القلب ، وتتأتى من تعلقه بالشهوات القلبية ، كحب الجاه والرياسة والكبر والحرص والحسد والحقد ، وتلك من أخلاق الشياطين •

(ج) وعيوب الروح ، وتتأتى من تعلقها بالحظوظ الباطنة ، كطلب الكرامات والمقامات •

وهم لا يحرمون زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، إنما يرون ألا ينخدع المؤمن بظواهر الدنيا فيقف عندها ويجعلها نهاية أفقه بل يمد نظره الى الآخرة التي هي خير وأبقى ، لأن الله تعالى ينظر الى القلوب والأحوال ولا ينظر الى الأجساد والأشكال ، ولذلك ورد في الحديث الشريف : « رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو اتسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك » •

ومن حكم السادة الصوفية في آحوال المعيشة قولهم : الدنيا كلها فضول الا خمس خصال : خبز يثسبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره . وببيت يكتنه ، وعلم يستعمله • ويقول الامام جلال الدين الرومي رضى الله عنه فيما ترجمه عنه صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان : « اقرأ ما كتب الرحمن في صحائف الأكوان ، ولا تجعل الظواهر منتهى بصرك ومبلغ علمك حتى لا تحجب الحقيقة عن عينك وتنحرف بك الأهواء عن سبيل الرشاد ، واعلم أن الدنيا لو كانت كلها طوع يدك ما كان لك سوى القوت ، فلا تأكل في سبعة أمعاء ، ان أموال قارون لم تزد له لحظة على العمر المقدور ، وان الاسكندر الأكبر قهر الجيوش الزاحفة ثم زحف عليه الاجل المختوم وقهره في الوقت المعلوم •

« أيها المؤمن ، أن آثام اليوم هي عقارب الغد ، وسكرة الدنيا هي لهيب العطش في صحراء القيامة •

« أيها المؤمن ، اسق ورد الطاعات من دموع توبتك حتى تستروح الفردوس أنسام صلواتك ، وتستقبل الحور هدايا الطيب والعطر من جسناتك ، وتنظم عقود الجواهر من تسبيحاتك » •

وحين يتمتع السادة الصوفية بالحلال ، يوجهون النية فيه لله تعالى فإذا أكلوا حلالاتهم بأن تكون لهم بأكله قوة في عبادة الله سبحانه •

وهذه النية عندهم ألد من طعم الطعام ذاته ، وإذا لبسوا اللباس قصصوا به ستر العورة وأخذ الزينة للصلاة ولا يقصدون به التباهي والتفاخر كما يقصد عامة الناس ، وإذا أتوا نساءهم قصدوا أن يعفوا أنفسهم ونساءهم عن الحرام ، أو بنية النسل الطيب ، ويقول مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أتيت أهلى قط بنية الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يوحد الله ولا يشرك به شيئا •

وقد أرادوا أن يغير رضى الله عنه ملبسه بأفخر منه حين ولى الخلافة : ورجوا من سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن تكلمه فى ذلك فكلمته فقال لها : يرضى الله عنك يا أم المؤمنين تريدين أن أغير ما كنت عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وقصته رضى الله عنه حين أركبوه البرذون (السيسى) معروفة فقد ركبها قليلا ثم قال أنزلونى ، أنزلونى قالوا لماذا يا أمير المؤمنين ، قال أخشى أن يداخلنى الغرور •

ولا تعجب أن يسلك السادة الصحابة هذا المسلك ، فقد صحبوا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأسوا به فى أقواله وأفعاله وأحواله وقد بلغ فى زهده ما لم يبلغه إلا رسول كريم وكان يستطيع أن يعيش عيشة الملوك لو شاء ، ولكنه أثر ما يبقى على ما يفنى حتى لقد دخل على ابنته السيدة الزهراء رضى الله عنها فوجدها تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر فقال لها : تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة •

وقد روى عقبة بن علقمة قال : دخلت على على رضى الله عنه فإذا بين يديه طعام خشن فقلت : يا أمير المؤمنين أأكل مثل هذا ؟ فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أبيض من هذا ويلبس أخشن من هذا فإن لم آخذ نفسى بما أخذ به نفسه خفت ألا ألحق به •

ويستعين السادة الصوفية فى جهاد أنفسهم بمراقبة الله تعالى واستحضار عظمته سبحانه ، ويقولون فى هذا المقام : تعهد نفسك فى ثلاثة مواضع : إذا عملت فاذكر نظر الله اليك ، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله اليك ، وإذا سكنت فاذكر علم الله فيك •

والجهاد عند السادة الصوفية ثلاثة أنواع : جهاد في شرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله تعالى ، وجهاد مع أعداء الله في غزو الاسلام . وهم يقولون ان أقوى القوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن أطاع من فوقه أطاعه من دونه .

ويقول سيدي شقيق البلخي رضى الله عنه : عملت في القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا عن الآخرة ، فأصبته في حرفين وهو قوله تعالى (فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى) . ويقول رضى الله عنه كذلك : اذا أردت أن تكون في راحة فكل ما أصبت والبس ما وجدت وارض بما قضى الله عليك . ويقول سيدي ابو يزيد البسطامي رضى الله عنه : ان الله أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه ، وانى لا أريد من الله الا الله .

ومن كلمة سيدي أبى يزيد المتقدمة ترى أن القوم لا يشتغلون بالنعيم عن النعم . ويقول السادة الصوفية اذا كان الله قد أمرك بالاحسان الى جارك ومراعاة حقه ، فجار نفسك — وهو قلبك — أولى بألا تضيعه ولا تغفل عنه ولا تتمكن حلول الخواطر الرديئة به . واذا كان جار نفسك هذا حكمه فجار قلبك — وهو روحك — أولى أن تحامى على حقه ولا تمكن لما يخالفها من مساكنتها ومجاورتها ، وجار روحك — وهو شرك — أولى أن ترعى حقه ، فلا تمككه من الغيبة عن أوطان الشهود على دوام الساعات .

وهم يقولون ان النفس والقلب والروح والسر شيء واحد في أصله وبحسب ما يكون فيه مجاهد نفسه يوصف بوصفه ، فاذا جاهد نفسه الامارة صار الى قلبه ، واذا جاهد قلبه صار الى روحه واذا جاهد روحه صار الى سره ، وهذا السر يكون بينه وبين ربه فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ، ويشبهون ذلك بالبذرة التي تكون في الأرض فانها اذا نمت كان جذعا ثم فروعا ثم زهورا ثم ثمارا وأصلها واحد واختلفت مسمياتها بحسب أوضاعها التي تكون عليها . واذا نضجت الشجرة استظل الناس بظلها وأكلوا من ثمرها ، وكذلك المؤمن اذا نضج في تربية نفسه التفت الناس حوله وانتفعوا بتجربته وتربيته اذا كان الله اراده اماما للناس .

والسادة الصوفية يعولون كثيرا في تربية النفس على صحبتة الشيخ المرمي ، ويقولون أن السالك إلى ربه بنفسه يكون كالشجرة التي تثبت بنفسها فانها تورق ولكنها لا تثمر ، واذن لابد للمريد من شيخ يربيه في جنب الله ويعينه على جهاد نفسه والتخلص من كدوراتها ورعوناتها . ويقول سيدي أبو طالب المكي رضى الله عنه :

واعلم أن الأنس لا يوجد في كل عالم ، ولا في كل عاقل ، ولا في كل عابد زاهد ، ويحتاج الأنس إلى وجود معان تكون في المولى ، فإذا اجتمعت فيه كمل فيه الأنس ، وانتفت عنه الوحشة ، ومن لم تكن فيه لم يوجد فيه أنس ، ومن لم تكمل فيه وجد فيه بعض الأنس ، وإذا حصل الأنس ففيه الروح من الكروب ، والاستراحة من الغم ، والسكون وطمانينة القلب فكذلك عز من يوجد فيه الأنس لعزة خصاله وهي سبع : علم ، وعقل ، وأدب ، وحسن خلق ، وسخاء نفس ، وسلامة قلب ، وتواضع ، فان فقد بعضها لم يجد خلا يأنس لكماله . وأضدادها وحشة كلها ، لأن الجاهل لا أنس فيه ، والأحمق لا أنس به ، والبخيل سئ الخلق لا أنس عنده ، والخبث والتكبر لا أنس معه فاعرف هذا .

وأضاف رضى الله عنه قوله :

ومثل جملة الناس كمثل جملة الشجر ، منهم من له ظل ليس فيه ثمر ، وهذا الذي فيه نفع من الدنيا ولا ثمر له في العقبى ، ويحتاج إليه في وقت ، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل ، وهذا يصلح للأخرة ولا يصلح للدنيا ، ومنهم من فيه ظل وثمر ، فهذا يصلح للدين والدنيا وهو أعزها ، ومنهم من لا ظل له ولا ثمر وهذا الذي لا يحتاج إليه ، فمثله في الشجر مثل شجر الغضا يمزق الثياب لا طعام فيه ولا شراب ، فهؤلاء من الناس من يضر ولا ينفع ويكثر ولا يدفع ، مثله كما قال الله تعالى (يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) وقد قيل في وصف الناس :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم
لا يستوون كما لا يستوى الشجر
ذا رب ظل ، وهذا عنده ثمر
وذاك ليس له ظل ولا ثمر

وليس العلم الذى شرطوه فى الداعى الى الله تعالى علم دراسة
فحسب بل هو علم دراسة وعلم وراثة أو علم وراثة يغنى عن الدراسة ،
نكم من عالم راوية لم يصل الى الدراية والوعاية التى تصحب أهل الحق
والحقيقة من الدعاة الى الله عز وجل ، وهذا ما يفسر قول مالك رضى الله
عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله فى القلوب ، وقوله :
لا أحب من الكلام الا ما كان تحته عمل • وفى الحديث الشريف (من عمل
بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) • ويقول امامنا الشافعى رضى
الله عنه :

شكوت الى وكيع سوء حفظي
فأرشدني الى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور
ونور الله لا يهدى لعاصي

ولهذا العلم النوراني يشير سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله
عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

بحر التجلى كله حكمة
كم تسكر الأرواح من عذبه
دع ما يقول الناس من علمهم
ما دمت تشقى العلم من سيبه

وليس فى صحبة المريد لشيخه اشتغال بالناس عن الله لأن الشيخ
انما هو يد الله وعونه للمريد وقد ربط سبحانه الأسباب بالمسببات ،
والامامة فى سبيل الهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دعائم
الدين والله تعالى يقول فى وصف عباد الرحمن (والذين يقولون ربنا
هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) كما يقول
تعالى (يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أما الاشتغال بالناس والمنهى عنه
شرعا فهو اغتيابهم واستقصاء عيوبهم والأولى بالمؤمن أن يشغل بعبود
نفسه ويصلحها بمعاونة أحد العارفين بالله تعالى من الآمرين بالمعروف
والناهي عن المنكر على نور من ربهم •

وقد عرف سيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه من بحر التجلى
حتى روى وأروى ، ويقول متحدثا بنعمة ربه عليه فى الهامه الربانى
الذى كان فيه وحيد نسجه :

علومى فى الورى نفحات ربه
فما بلغوا مذاقى أو شمولى
ولى من مشرق الايمان علم
سموت به على كل الفصول

ويبين رضى الله عنه أن الالهام الربانى الذى يقذفه الله فى قلوب أوليائه
من أهل اليقين انما يجيئهم بعد مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الا
أولو العزم ممن باعوا أنفسهم لله تعالى واستسلموا فى سبيله كل صعب
ونظروا الى فضله ولم ينظروا الى أعمالهم بل أيقنوا أنه سبحانه ان
قبلها منهم فانما يقبلها كرما بعد تجاوز عنهم ، وفى ذلك يقول طيب
الله ثراه :

ومن له قلب قوى اليقين
يلبسه الخالق أسمى وسام
كم من مصل لم يذق قلبه
طعم الصلاة أو طويل انقيام
وصائم يزيد فى صومه
والروح لا تفهم معنى الصيام
فالذوق فى القلب له طعمه
وانه والله أشهى طعام
قالوا ينام الليل عبد الصفا
فقلت عيب عندنا أن ينام
أيدعى الحب ويهوى الكرى
الا ان ذا والله شر انهزام
لو أنهم بالنوم يعطونها
ما صبح فى الأوليا الاعتصام
لكنهم بالذكر يعطونها
والذكر أزكى مبرىء للسقام
يا بائع الروح لخلقها
تقبل البيع بغير التزام

وسلعة بيعت على عيها
مقبولة بالطبع عند الكرام

والله ربي أكرم الأكرمين
يقبلنا بعينها والسلام

وإذا أراد القارئ الكريم أن يقف على مواجيد سيدي الشيخ في
صلته بالله تعالى فليقرأ ما وصفها به رضى الله عنه في الأبيات الآتية
التي كانت الهاما لوقتته من غير تفكير :

طباب في نشره عبير غرامى
فتضافيت والهوى يهدينى

وحياتى حياة عالم قوم
عرف الحق دون أى فتون

ومقامى مقام صب معنى
ثابت الجأش صادق التمكين

دعواتى من الضياء ضياء
صرت كالفرقدين فى التبيين

ان سكنت الثرى بجسمى فروجى
فى سماء الهدى ونور اليقين

يرمس الناس فى القبور ورمى
حب ربي وفضله يكفينى

طال نوحى ولست الا محبا
سمع الطير من أعالى الغصون

وسمعت الطيور وهى تتاجى
والتتاجى يثير شجو الحنين

فتتاجيت بالأغاريد حتى
هامت الطير من سماع حنينى

لم أمتع بغير ربي قلبى
ولهذا ماء الهدى يروينى

وأنا الثابت المحب دوما
 لست أخشى عذل من عذلوني
 لو يذوقون بعض ما ذقت في الحب
 خففوا عذلهم وقد عذروني
 أخضع الراسيات من كلم العشق
 فتعنو الجبال عند أنيني
 فمرامي وجه الحبيب وإن مت
 شهيدا ففى الرحاب ذروني
 أملئ فيسيه أن يكفر عني
 ما تجاوزت من حدود الدين
 أنا ان كنت مذنباً وأثيماً
 أنما ذو الجلال لا يرديني
 أنا ان كنت مذنباً وأثيماً
 فرحيم العباد لا يخزيني
 أنا ان كنت مذنباً وأثيماً
 فرضا الله سوف لا يخطيني
 أنا ان كنت مذنباً وأثيماً
 فالهى من الضنى يشفيني
 أنا ان كنت مذنباً وأثيماً
 أنما رحمة الاله تقيني
 علم الله أن قلبى ضعيف
 فروانى بماء عين اليقين

والفضل في تسجيل الأبيات المتقدمة والتي تنشر لأول مرة كان للمصديق
 الفاضل الدكتور مظهر سعيد وقد تكرم فتنسخ لى صورة منها ومن غيرها
 مما سجله عن الشيخ في ليلة سهرها معه من نحو ثلاثين سنة في بلقاس ،
 وسوف لا يفوتنى أن أمتع القراء بالبقية الممتعة في مقالاتي اللاحقة
 ان شاء الله ، وشكر الله للمصديق صنيعة •

الا رضى الله عن مشايخنا العارفين بالله الذين أوردونا موارد الايمان ،
 وسقونا من رحيق الاحسان ، ومشارب العرفان ، وصدق الله العليم
 الحكيم اذ يقول ناصحا لعبده (واتبع سبيلى من أناب الى ثم الى مرجعكم
 فأنبئكم بما كنتم تعملون) •

مسألة الناس ومعرفة الله تعالى

« يا سالم أنت ان شاء الله سالم ، أنعم الله عليك بالسلم والمسألة وحفظ الله عليك عقلك ، وأوحى في قلبك ما أرادته لتتصرف به ، وجعلك من أهل التمييز ، وسقاك الشراب اللذيذ وهو شراب القوم ، ولكل قوم مشرب ، ومشرب القوم أهل الله معرفة الله على قدر تمييز الانسان في فهم اسماء الله وصفاته لان حقيقة المعرفة لا يتحملها الانسان ، وقد نظر سيدنا موسى عليه السلام للجبل فرآه اندك من تجليات العظمة والجلال (وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) فمن طلب الادراك كان الجهل قرينه ، ومن عجز عن الادراك أدركه الله بلطفه وفقه أنه خادم ويجب عليه أن يؤدي الخدمة كما أمره سيده » •

جاءت هذه السطور في رسالة بعث بها سيدي الشيخ عبد السلام الحلواني طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح التقى الصديق الوفي السيد / سالم جمعة مد الله في عمره وهي ترشدنا الى التحلى بمكارم الاخلاق وتربينا مشرب السادة الصوفية في معرفة الله تعالى وفي عبادته سبحانه •

ومكارم الاخلاق تقتضى مسألة المسلمين خاصة فلا نؤذى احدا منهم بالسنتنا أو بأيدينا ، ولا نخدعهم أو نكذبهم أو نغشهم أو نعتدى من قريب أو بعيد على دماءهم أو أموالهم أو أعراضهم ، فالمسلم أخو المسلم يجب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها •

وقد وصف الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في شأنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) فاجتمع لهم شدة على الاعداء ورحمة بالاخلاء ، ومدح سبحانه سادتنا الانصار في حبهم لآخوانهم المهاجرين وايتارهم على أنفسهم فقال تعالى (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن

يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وعلم الله سبحانه الخلف ألا ينسوا أسلافهم من دعواتهم ، فقال تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم) .

وفي التاريخ الكبير للبخاري أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « طوبى لمن ذل نفسه وطاب كسبه وصلحت سيرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » .

والاسلام يربى المسلمين على المسالة ومكارم الاخلاق فيما بينهم، وللمسلم على أخيه المسلم عشرة حقوق ، أن يسلم عليه اذا لقيته ، ويجيبه اذا دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته اذا مات ، ويبر قسمه اذا أقسم عليه ، وينصح له اذا استنصحه ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنه ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه .

ويقول السادة الصوفية في معنى قوله تعالى (رحماء بينهم) أى أنهم متوادون فيما بينهم ، يدعو صالحهم لطالهم ، فاذا نظر الصالح الى الطالح من المسلمين دعا الله له وقال ، اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، واذا نظر الطالح الى الصالح دعا الله له وقال ، اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به .

وكان سيدى الامام سهل التستري رضى الله عنه يقول من كف اذاه عن الخلق مئى على الماء .

ومن أروع ما قرأت للسادة الصوفية فى الكبائر أنها تكون فى القلوب وفى اللسان ، وفى البطن ، وفى الفرج ، وفى اليدين ، وفى الرجلين ، وفى جميع الجسد . ويفصلون ذلك فيقولون :

أما كبائر القلوب فأربع ، الشرك بالله تعالى ، والاصرار على معصية الله تعالى ، والقنوط من رحمة الله تعالى ، والأمن من مكر الله تعالى .

وأما كبائر اللسان فهي شهادة الزور ، وقذف المحصن (وهو الحر البالغ المسلم) واليمين الغموس (وهي التى تبطل بها حقا وتحقق بها

باطلا ، وقيل هي التي يقطع بها مال المسلم ظلما ولو سواكا ، وسميت غموسا لأنها تغمسه في غضب الله تعالى ، وقيل لأنها تغمس صاحبها في النار) والسحر — والسحرة هم النفاثات في العقد الذين أمرنا الله بالاستعاذة منهم •

وكبائر البطن هي ، شرب الخمر والمسكر من الاشربة ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم •

وكبائر الفرج هما ، الزنا ، وعمل قوم لوط في الادبار •
وكبائر اليمين هما ، القتل والسرقة •

وكبيرة الرجلين هي الفرار من زحف العدو ، بأن يفر الواحد من اثنين غير متحرف الى الامام ولا متحيز الى فئة ولا معتقد الكفرة •

وكبيرة الجسد كله هي عقوق الوالدين ، وتفسير العقوق جملة ان يقسم عليه في حق فلا يبر قسمهما ، وان يسألاه في حاجة فلا يعطيها ، وأن يأمنه فيخونها ، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما ، وأن يشتماه فيضربهما •

ومن الاستنباطات الرائعة لسيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قوله حين سئل عن الكبائر ، أقرأ من أول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها الى قوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وانك اذا راجعت هذه الايات البيئات وجدته انما استنبط ذلك بنور من ربه ، وسبحان من علم أصفياه ما لم يكونوا يعلمون •

ويروى سيدى الامام أبو طالب المكي حديثا مسندا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « ان العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خصت له دخل الجنة ، ويأتى. قد ظلم هذا ، وشتم هذا ، وضرب هذا ، فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته ، حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة يا ربنا قد فنيت حسناته ، وقد بقى طالبون كثير ، فيقول الله تعالى ، ألقوا عليه من سيئاتهم ثم صكو له صكا الى النار » •

ويقول السادة الصوفية في معنى قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ان انفاحشة الباطنة هي الحسد . ويقولون في حكمهم الحاسد جاحد ، لانه لا يرضى بقضاء الواحد . كما يقولون ، الحاسد اذا رأى نعمة بهت ، واذا رأى عثرة شمت .

ويقول سيدي يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال ، ان لم تنفعه فلا تضره ، وان لم تسره فلا تغمه ، وان لم تمدهحه فلا تذمه . وقد كان سيدي الشيخ عبد السلام الطلواني رضى الله عنه يتمثل بالبيتين التاليين :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم
وما عليك اذا أذنبت من بأس
الا اثنتين فلا تقربهما أبدا
الشرك بالله والاضرار بالناس

وقد جاء في الخبر « الدواوين ثلاثة ، ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك . فأما الديوان الذى يغفر فذنوب العباد فيما بينهم وبين الله تعالى ، وأما الديوان الذى لا يغفر فأنشرك بالله تعالى . وأما الديوان الذى لا يترك فمظالم العباد » أى ان الله لا يترك مؤاخضة العبد على تلك المظالم التى هى من حقوق العباد .

لكن ينبغى أن نعلم أن ثواب الله على الصالحات منجز للعبد أما العقاب على المعاصى فان الله فيه بالخيار ان شاء عذب المعاصى وان شاء غفر له . ويقول سيدينا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى يغفر الذنب العظيم لمن يشاء ويعذب من يشاء على الذنب الصغير .

وأسوأ العبيد حالا في رأى السادة الصوفية عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه ، ويقيم على الاصرار ، ولا ينوى توبة ولا يعقد استقامة ، ولا يرجو وعدا بحسن ظنه ، ولا يخاف وعيدا لتتمكن أمه ، فهذا هو حقيقة الاصرار ومقام بين العتو والاستكبار ، وفي مثل هذا جاء الخبر « هلك المصرود قدما الى الغار » ونفس هذا العبد هى النفس الامارة ، وروحه من الخير فرارة ، ويخاف على مثله سوء الخاتمة ،

ولا يبعد منه سوء القضاء ودرك الشقاء ، وإن اللعنة هي الخروج من الذنب الى أعظم منه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

ويقول سيدنا الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ، ان الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث ، رضاه في طاعته ، فلا تحتقروا منها شيئاً لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه في معاصيه ، فلا تحتقروا منها شيئاً لعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده المؤمنين ، فلا تحتقروا منهم أحداً لعله ولى الله تعالى .

ويقول السادة الصوفية ان من الرجاء تحسين الاخلاق مع الخلق ، وجميل الصبر عليهم ، وحسن الصلح عنهم ، ولطيف الإدارة لهم . تقربا الى الله عز وجل بذلك ، وتخلقا بأخلاقه سبحانه فانه يعفو عن قدرة ، ويغفر عن سلطان . وجعل سبحانه عفو العبد عن أخيه سبيلاً لعفو الله عنه في قوله الكريم (وليعفوا وليصغروا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) .

أما عن الشراب اللذيذ الذى أشار اليه سيدي الشيخ في عبارته وهو شراب القوم ، أى أهل الله ، وهم السادة الصوفية فانما يقصد به معرفة الله ، فهم مشربهم ، الذى يردونه ، ويصدرون عنه ، وهى في رأيهم أطيب شئ في الدنيا ، ولذلك يقول الامام مالك بن دينار رضى الله عنه ، خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شئ فيها ، قيل ، وما هو ؟ قال المعرفة ثم أنشأ يقول .

ان عرفان ذى الجلال لعز
وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء
وعليهم من المحبة نور

والمعرفة عند السادة الصوفية هى دعامة الدين ، ويقولون في تعريفها انها صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى في معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طالع بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل لقباله ، وصدق الله في جميع أحواله ، وانقطعت عنه هواجس نفسه ،

ولم يصغ قلبه الى خاطر يدعوه الى غيره ، فاذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه برياً ، ومن المساكنات والملاحظات نقياً ، ودامت في السر مع الله مناجاته ، وحق في كل لحظة اليه رجوعه ، وصار محدثاً (أى ملهما) من قبل الحق سبحانه بتعريف أسرارهِ فيما يجريه من تصارييف اقداره يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة * أما المعرفة عند العلماء فهي العلم ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله عارف ، وكل عارف عالم *

أما ما يشير اليه سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله عنه من أن معرفة الله تكون على قدر تمييز الانسان في فهم أسماء الله وصفاته فيفسره ما يقول به السادة الصوفية من أن المعرفة معرفتان ، معرفة حق ، ومعرفة حقيقة — فمعرفة الحق هي معرفة وحدانيته سبحانه على ما أبرز للخلق من الاسامى والصفات أما معرفة الحقيقة فلا سبيل اليها لأن حقيقة معرفته لا يطبقها الخلق ، ولا ذرة منها ، لان الكون بما فيه يتلأشى عند ذرة من أول باد يبدو من بوادى سطوات عظمته ، لذلك قالوا ، ما عرفه غير لأن الصمدية ممتنعة عن الاحاطة والادراك بقوله تعالى (ولا يحيطون به علما) * وقد حكى عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال ، سبحانه من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته *

وقد سئل سيدي أبو الحسين النورى رحمه الله ، كيف لا تدركه العقول ولا يعرف الا بالعقول ؟ فقال ، كيف يدرك ذو أمد من لا أمد له ؟ أم كيف يدرك ذو عاهة من لا عاهة له ولا آفة ؟ أم كيف يكون مكيفا من كيف الكيف ؟ أم كيف يكون محيئا من حيث الحيث ؟

وقد قيل في أبيات نسبت لامامنا على كرم الله وجهه :

رأيت ربى بعين قلبى	فقلت لا شك أنت أنب
أنت الذى حزت كل أين	بحيث لا أين ثم أنت
فليس للاين منك أين	فيعرف الاين أين أنت
وليس للكيف منك كيف	فيعرف الكيف كيف أنت
أحطت علما بكل شيء	فكل شيء أراه أنت
وفى فنائى فنى فنائى	وفى فنائى رأيت أنت

وعلى قدر معرفة العبد بربه تكون خشيته منه ، ولذلك قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فمن لا خشية عنده لا يعتبر من علماء الآخرة وان حصل كثيرا من العلم وانما يكون من علماء الدنيا وكان السادة الصوفية اذا أشاروا الى واحد من هؤلاء يقولون ، حدثنا فلان وكان من أوعية العلم ولا يقولون وكان عالما •

ويقول امامنا على كرم الله وجهه في علماء الآخرة هؤلاء ، هلك خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ، يحفظ الله تعالى بهم حجه حتى يودعها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، وهجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، فاستلأنوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى أولئك أولياء الله من خلقه ، وعماله في أرضه ، والدعاة الى دينه ، ثم بكى وقال ، واشوقاه الى رؤيتهم •

وذلك الذى قائه امامنا على يفسر لك ما قاله سيدنا عبد الله بن مسعود عند موت أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، فقد قال ، أحسب أن تسعة أعشار العلم قد مات بموت عمر ، فقالوا له ، تقول ذلك وفيما جلة الصحابة ، قال لست أعنى العلم الذى تريدون ، انما أعنى العلم بالله تعالى • فجعل رضى الله عنه العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم ، وجعل العلم بالله تعالى تسعة أعشار العلم •

ويرشدنا سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه الى طلب العلم وانعمل به فيقول ، تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزين عند الاخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم الله فى الخير قادة وهداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتص آثارهم ، وترمق أعمالهم ويقتدى بفعالهم ، وينتهى الى رأيهم ، وترغب الملائكة فى خلقتهم وبأجنحتهم تمسحهم ، حتى كل زطب ويابس لهم مستغفر ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وشبايع البر ونعامه ، والسماء ونجومها •

وفي قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا
سديدا) ان الله تعالى جعل مفتاح القول السديد والعلم الرشيد
والسمع المكين التقوى ، وهى وصية الله تعالى لمن قبلنا كما هى وصيته
لنا اذ يقول تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم
أن اتقوا الله) ويضيفون أن هذه الآية الاخيرة هى القطب الذى يدور
عليه القرآن الكريم كله .

ويقول الامام سهل التستري رضى الله عنه ، العلماء ثلاثة ، عالم
بالله تعالى : وعالم لله تعالى وعالم بحكم الله تعالى . ويعنى بالأول
العارف الموقن ، ويعنى بالتالى العالم بعلم الاخلاص وبالاحوال
والمعاملات ، ويعنى بالثالث العالم بتفصيل الحلال والحرام . ويقول
رضى الله عنه كذلك ، الناس كلهم موتى الا العلماء ، والعلماء نيام
الا الخائفين ، والخائفون منقطعون الا المحبين والمحبون أحياء شهداء
وهم المؤثرون لله تعالى على كل حال .

وفي التفرغ لله ومحبته المحبة التى يعتد بها السادة الصوفية
ويبدلون فى سبيلها كل مجهود مستطاع يقول سيدى عمر بن الفارض
وهو سلطان العاشقين فى احدى غرامياته .

نسخت بحبى آية الحب من قبلى
فأهل الهوى جندى وحكى على الكل
وكل فتى يهوى فأتى امامه
وانى برىء من فتى سامع العذل
ومن لم يكن فى عزة الحب تائها
بحب الذى يهوى فبشره بالذل

وفي احدى مناجاته يقول رضى الله عنه

أنتم فروعى ونفلى	أنتم حديثى وشغلى
يا قبلى فى صلاتى	إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عيني	اليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى	والقلب طور التجلى
أتست فى الحى نارا	ليلا فبشرت أهلى
قلت امكثوا فلعلى	أجد هداى لعلى
دنوت منها كفاحا	ردوا لىالى وصللى

صارت جبالي دكا من هيبة المتجلى
ولاح سر خفى يدريه من كان مثلى
وصرت موسى زمانى مذ صار بعضى كلى
فالموت فيه حياتى وفي حياتى قتلى
أنا الفقير المعنى رقبوا لىالى وذلى

وفي الابيات المتقدمة يشير سلطان العاشقين الى ما وقع لسيدنا موسى عليه السلام عند تجلى الحق للجبل الذي أندك مع صلابته من هبة المتجلى ، وقد أشار الى ذلك سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه بقوله عن الجبل : أندك من تجليات العظمة والجلال . ويتعرض سيدى الامام القشيري رضى الله عنه الى موقف سيدنا موسى في هذا المقام عند قوله تعالى (ولما جاء موسى لميقاتنا ... الآية) فيقول في لطائف الاشارات جاء موسى مجيء المشتاقين المهيمين : جاء موسى بلا موسى ، جاء موسى ولم يبق من موسى شىء لموسى ، آلاف الرجال قطعوا مسافات طويلة فلم يذكروا ، وهذا موسى خطا خطوات فالى يوم القيامة يقرأ الصبيان (ولما جاء موسى لميقاتنا ...) .

ويستطرد رضى الله عنه قائلا :

« ويقال لما جاء موسى لميقات باسط الحق ، سبحانه ، سقط بسماح الخطاب فلم يتمالك حتى قال (أرنى أنظر اليك) فان غلبات الوجد عليه استتطقت بطلب كمال الوصلة من الشهود ، وكذا قالوا :

وأبرح ما يكون الشوق يوما
إذا دنت الخيام من الخيام

وفي ذلك أشار الى غاية القرب ، أى صفاء الحال ، لأن قرب المكان لا يصح على الله سبحانه .

ويقال صار موسى عليه السلام عند سماع الخطاب بعين السكر فنطق ما نطق ، والسكران لا يؤخذ بقوله ، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف .

وأضاف رضى الله عنه الى ما تقدم روائع من لطائف اشاراته الى أن قال :

« ويقال في قوله تعالى (انظر الى الجبل) بلاء شديد لموسى لانه نفى عن رؤية مقصودة ومعنى برؤية الجبل ، ولو أذن له أن يغمض جفنه فلا ينظر الى شيء لكان الأمر أسهل عليه ولكنه قال (لن ترانى ولكن انظر الى الجبل) » .

« ثم أشد من ذلك أنه أعطى الجبل التجلى ، فالجبل رآه موسى لم يره ، ثم أمر موسى بالنظر الى الجبل الذى تقدم عليه فى هذا السؤال وهذا والله لصعب شديد ، ولكن موسى لم ينازع ، ولم يقل أنا أريد النظر انيك فاذا لم أرك لم أنظر الى غيرك بل قال : لا أرفع بصري عما أمرتنى بأن أنظر اليه وفى معناه أنشدوا » .

أريد وصاله ويريد هجرى
فاترك ما أريد لما يريد

« ويقال لما رد موسى الى حال الصحو وأفاق رجع الى رأس الأمر فقال (ثبت اليك) يعنى ان لم تكن الرؤية هى غاية المرتبة فلا أقل من التوبة ، فقبله تعالى لسمو همته الى المرتبة العلية » .

« وفى قوله (ثبت اليك) اناخه بقوة العبودية ، وشرط الانصاف ألا تبرح محل الخدمة وان حيل بينك وبين وجود القربة لان القربة حظ نفسك ، والخدمة حق ربك ، وهى تتم بالا تكون بحظ نفسك » .

وفى كلام سيدى الامام القشيرى المتقدم تفسير كاف لقول سيدى الشيخ عبد السلام انحلوانى : ومن عجز عن الادراك أدركه الله بلطفه وفقه أنه خادم وجب عليه أن يؤدى الخدمة كما أمره سيده ، وصدق سبحانه وتعالى اذ يقول (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) والهام العارفين من كلمات الله التى لا تنفذ فهم يغفون من معين واحد لا نهاية لمدده بقلوب خشعت وخضعت فعرغت ، فشربت وسقت غيرها وذلك ما يرمز اليه الامام السهروردى حين قال :

لا تسقنى وحدى فما عودتى أنى أشح بها على جلاس
أنت الكريم ولا يليق تكراً أن يصبر الندماء دون الكاس

ويقولها صريحة شيخى وسيدى الشيخ على عقل فى فتوحاته المهمة لفورها والتى نقلناها عنه ، رحمه الله :

شراب الحب يعرف بالمذاق وما كل السقاة له بساق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى وقل الصادقون فما تلاقى
ألا يا ساقى العشاق مهلا تعالى أملاً كؤوسك من حقائق
غرامى قد مزجت به رجائى على خوف فمن خوفى مذاقى
وروحى أدركت معنى التجلى فمنه أرى اصطباحى واغتباقى
وكيف أحب غير الله يوماً وليس سواء فى الاكوان باقى
ومن عرف المحبة عن يقين محال أن يميل الى فراق

اللهم اجمعنا على الباب فى زمرة الاحباب الذين سقيتهم شراب
محبتك الصافية ، ومودتك الخائصة وقلت فيهم (يحبهم ويحبونه أدلة
على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون
لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

التمسك بالله تعالى

« فالعقل أن يتمسك العبد بالله ولا يميل عما قضاه ، والكتاب بشير نذير ، والنبي رسول كبير ، بلغ الكتاب وفسره ، ما كذب الفؤاد ما غيره فمن اتبع الرسول فقد استمسك بالعروة الوثقى ، وكان مع ربه ثابتاً لا يتغير » .

جاءت السطور المتقدمة في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق اتقى السيد/ سالم جمعه ، حفظه الله ورعاه ، وهي ترشدنا بكلماتها النورانية الى التمسك بالله على هدى الكتاب والسنة ، في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والسراء والضراء ، والسر والعلانية وذلك شأن المؤمنين الصادقين ، أهل الوفاء والتمكين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الطريقة فغمرهم نور الحقيقة .

ويقول سيدي الشيخ : فالعقل ان يتمسك العبد بالله ، وهو قول حق يؤيده كتاب الله الكريم في قوله تعالى مؤنبا بنى اسرائيل (أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) فقد نفى العقل عنهم حين نصحوا غيرهم ولم ينصحوا أنفسهم ، ونفس الانسان أقرب اليه من نفس غيره ، وهي أولى بالرعاية وأحق بالعناية ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

أما عدم الميل عما قضاه الله ، فيقتضى الرضا والتفويض اليه فيما كان وما يكون ، لانه سبحانه لا يقع في ملكه الا ما يريد ، وانما يجرى القضاء بأحكام الله ، الست تراه تعالى يقول لأحب أحبائه سيدينا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا) كما قال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال أيضا (واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) وغير ذلك كثير في كتاب الله عز وجل .

وقد اجتمع لولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر من أطرافه
فصبر على الطاعات وما فيها من التكاليف ، وصبر على المحن
وما فيها من التصاريح وصبر على الناس وما فيهم من المتاعب وصبر
على العوافي وما فيها من الفتن ، أما السيئات فلم يكن لها عليه سبيل
فقد شرح الله صدره ، ووضع عنه وزره ، فهو المعصوم بعصمة الله
والطاهر المطهر بأمره سبحانه •

وقد جعله سبحانه اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر
وذكر الله كثيرا ، لذلك حرص السادة الصوفية على أن يكونوا على
صورة أصحابه الاعلام الذين لم يدعوا مجهودا في مرضاة الله ورسوله
الا بذلوه فأخذوا بالعزائم والمجاهدات ، دون الرخص والتأويلات ،
ويقول سيدي جلال الدين الرومي رضى الله عنه فيما ترجمه عنه من
الفارسية الى العربية صديقي الفاضل الشيخ الصاوي شعلان مد الله
في عمره :

« ولقد كان الأولون في بعض ما أحل لهم أزهد منا فيما حرم علينا
وكانوا لصغائر الذنوب أشد استعظاما منا لكبائر المعاصي ، حتى كادوا
يفوتون بفطرهم صومنا ، ويتحدثون بنومهم يقظتنا ، وربما تركوا سبعة
أبواب من الحلال من أجل باب من الحرام يخشونه ، فعملوا صالحا
وكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وانفقوا برا ، وقدموا أجرا ، فعمش أيها
المؤمن في ذكراهم كأنك معهم ، ولا تسلط الهوى في نفسك ، ولا تدع
الاحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ، فان الفخار اذا انكسر
لا يرفع ولا يعاد طينا » •

« ان الظواهر أضلت ابليس فلم ير من جوهر آدم الا الماء والطين
وأضلت الظواهر أبا جهل حين نظر بعينه الى سيدنا محمد القرشي ،
صلى الله عليه وسلم ، على انه يتيم أبى طالب ، ولم يره على أنه رسول
الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله • وما ذنب البستان اذا
قصر عن جنى ثماره وما ذنب النهار اذا أغمضت العين عن شهود
أنواره » •

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى من رحمته بعباده تعرف الى
خالقه بما يلائمهم ، فتعرف الى العامة بخالقه فقال سبحانه (أفلا

ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السماء كيف رفعت • والى
الجبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت) وتعرف الى الخاصة
بكلامه وصفاته ، فقال تعالى ، (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقال تعالى (وننزل من القرآن
ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى
فادعوه بها) ، وتعرف الى الانبياء بنفسه كما قال تعالى (وكذلك أوحينا
اليك روحا من أمرنا) •

والقرآن الكريم كلام الله الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، أنزله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم فبلغه كما أنزل
اليه ، وفسر ما أجمله من أحكام الله تعالى ، فكانت السنة مبينة للشرع
ومتمة له ، والخواص يذوقون من حلاوة القرآن ما لا يذوقه العوام
لان الكلام على من على وحكيم من حكيم ، ويعطى الله فى فهمه ما يشاء
لمن شاء من غوامض خطابه ، وخواص اشاراته •

ويقول سيدى عامر بن عبد الله رضى الله عنه : قرأت ثلاث آيات
من كتاب الله عز وجل استعنت بهن على ما أنا فيه ، فاستعنت بقوله
تعالى (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير
فلا راد لفضله) فقلت : ان أراد أن يضرنى لم يقدر أحد أن ينفعنى
وان أعطانى لم يقدر أحد أن يمنعنى • وقوله تعالى (فاذكرونى
أذكركم) فاشتغلت بذكره عن ذكر من سواه • وقوله تعالى (وما من
دابة فى الأرض الا على الله رزقها) فوالله ما اهتمت برزقى منذ
قرأتها فاسترحمت •

وقد اشتغل الناس بهم الرزق عن الرزاق ، مع انه سبحانه ضمن
الرزق لكل دابة فى الأرض ، وكان الاولى مع هذا الضمان الصادر من
القادر المقتدر أن يشتغل العباد بربهم وهم مطمئنون على وصول
أرزاقهم اليهم من الأسباب التى اقامها وكلفهم أن يسعوا فيها درءا
للتواكل والكسل ، وربط بين العمال والعمل ، فان أفضل ما أكل العبد
انما يكون من كسب يده ، وقد كسب الانبياء عليهم الصلاة والسلام
عيشهم بأيديهم ، ويرحم الله أمير الشعراء شوقى اذ يقول :

من أحسن الأمثال فيما أحسب
الخبز لا يعطى ولكن يكسب
موسى الكليم استنجر استجارا
وكان عيسى فى الصبا نجارا

وقد رعى صلى الله عليه وسلم الغنم ، وعمل وكيلا أجيرا فى أموال
السيدة خديجة رضى الله عنها فى شبابه الباكر •

ومن عجب أمر الله تعالى أنه يرزق عبده المساك ويثنى عليه فى انفاقه
ويذمه فى البخل به ، لاظهار الاحكام ، وبيان الحلال والحرام ،
والتبشير بالثواب ، والتخويف من العقاب ، فقد أظهر أمره ، وأخفى
قدره ، ليهنأ العاملون بأمره ، وتسقط حجة المستندين فى التقصير الى
قضائه وقدره •

ويقول سيدى الامام القشيري رضى الله عنه فى لطائف اشاراته
عند قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) •

« المسلم لا يتحرك فى باطنه عرق للمنازعة مع التقدير ، فان الاسلام
يقتضى تسليم الكل بلا استثناء ، ومن استثقل ثميئا من التكليف أو بقى
منه نفس لكرهية شىء فيبعد غير مستسلم لحكمه •

« ويقال نور فى البداية هو نور العقل ، ونور فى الوسائط هو نور
العلم ، ونور فى النهاية هو نور العرفان ، فصاحب العقل مع البرهان
وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة فى حكم العيان » •

« ويقال من وجد أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور ، فلا يشكك
عليه شىء من ذوات الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه
وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » •

« ويقال أول أثر لانوار الغيب فى العبد ينبهه الى نقائص قدره
ومساوىء غيه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود
ربه ، ثم غلبت الأنوار على سره حتى لا يشهد السر بعد ما كان يشهد
كالناظر فى قرص الشمس تستهلك أنوار بصره فى شعاع الشمس ،
كذلك تستهلك أنوار البصيرة فى حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب

الوجود دون الشهود ، ثم بعدد خمود العبد بالكلية ، وبقاء الاحدية
بغيت السرمدية » .

ويقول سيدي ابن عدناء الله السكندري في حكمه : اجتهدك فيما
ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك «
وهو في هذه الحكمة البالغة يوجهنا بمنطق سليم الى العمل للآخرة ،
لان الله سبحانه ضمن لنا رزق الدنيا ولم يضمن لنا رزق الآخرة ، ومع
ان رزق الدنيا مضمون ومكفول فقد بذلنا فيه كل جهودنا المستطاعة
ولم يضمننا الضمان من بذلنا . وكان الأخرى أن نسعى بالمثل أو أكثر
للآخرة سعيها ، فلا نقصر في طلبها وهي غير مضمونة .

ويقول سيدي ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه : اعرينا في الكلام
ولحننا في الأعمال ، فياليتنا لحنا في الكلام وأعرينا في الأعمال (وهو
أيضا يشير الى عنايتنا بالظواهر واهمالنا البواطن ، فاننا نحرص على
أن نتطق ألسنتنا الكلام صحيحا ، ولا نعبأ بفساد أعمالنا ، وكان الأولى
ان نعكس اذا لم نستطيع تصحيح الناحيتين معا .

ولست أنسى ما حييت تجربة تربوية وقعت لى في شبابى ونفعتنى
طول حياتى ، وذلك انى كنت مرشحا للترقية وتهايت لى ظروف الفوز
بها من كل جانب ، ولكنى لم أظفر بها ، فوقع فواتها عنى موقعا سيئا
ضاق له صدرى ، وجزعت به نفسى ضيقا شديدا ، فرأيت أن أزور
سيدي الشيخ عبد السلام لأنفس الشدة ، وبينما أنا راكب اليه ،
وفى وسط الطريق ، اذا بهاتف رحمانى يهتف فى صدرى : ده ده أنت
ها تعمل زى اللى بيقول فيهم ربنا (ومن الناس من يعبد الله على
حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر
الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) فانقلب ضيقى الى خوف من
الله تعالى واستغفرت ربه وانبت وتبت اليه وسألته العفو عنى ،
وصرفت نفسى عن الاشتغال بموضوع الترقية كلية ، وما كدت أصل
الى سيدي الشيخ حتى قصصت عليه أمر الهاتف فابتسم رضى الله
عنه وقال لى : دى خواطر القرآن عظيمة جدا ، وكأنه يقول لى : الزم
ما نصحك به ربك وارض بقضائه وان كان على غير ما تحب ، وكنت
بعد ذلك أخاف أن أشتغل بأمر الترقية قليلا أو كثيرا حتى جاءتني

الترقية ذات يوم على غير انتظار ، وسبحان الله الفعال لما يشاء ، وتعودت بعد ذلك أن أترك ما أريد لما يريد ربي عز وجل ، وتأكد لي مما جرت به المقادير صدق ما ورد في الحديث الشريف : ما كان لك فهو آتيك على ضعفك وما ليس لك فلن تدركه بقوتك •

هذا وكما تتفاضل أقدار الناس في الدنيا ، كذلك تتفاضل درجاتهم في الآخرة (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ويقول السادة الصوفية ان المؤمنين يتفاضلون فيما بينهم . فالعباد يفضل الله بعضهم على بعض في زكاء الأعمال ، والعارفون يفضل بعضهم في صفاء الاحوال ، فتقوم تفاضلوهم بصدق القدم ، وقوم تفاضلوهم بعلو الهمم ، والتفضيل في الآخرة أكبر ، فالعباد تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم « انكم لترون أهل عليين كما ترون الكوكب الدر في أفق السماء وان أبا بكر وعمر منهم » •

ويقول سيدي حاتم الاصم رضى الله عنه : عجبت ممن يعمل بالطاعات ويقول اني أعملها ابتغاء مرضاة الله ، ثم تراه أبدا ساخطا على الله رادا لحكمه ، أتريد أن ترضيه ولست براض عنه ؟ كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه • وهو بذلك يحذرنا من السخط على المقدور مهما كان مرا ، فنكون مع الله على ما أراد ، ولا نميل عما قضاه كما قال سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله عنه • ويقول سيدي حاتم أيضا : أربعة يندمون على أربعة :

- المقصر اذا فاتته العمل
- والمنقطع عن أصدقائه اذا نابته نائبة •
- والممكن منه عدوه بسوء رأيه •
- والجري على الذنوب •

ويقول السادة الصوفية : أصل الطاعة ثلاثة أشياء : الخوف والرجاء والحب • وأصل المعصية ثلاثة أشياء : الكبر والحرص والحسد •

ويقول سيدي أبو على الدقاق رضى الله عنه في الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها التقويم ثم الاقامة

ثم الاستقامة ، فالمتقويم من حيث تأديب النفوس ، والاقامة من حيث تهذيب القلوب ، والاستقامة من حيث تقريب الاسرار .

ويرشدنا السادة الصوفية الى أن الطاعات يجب أن يصحبها الاخلاص والصدق ، وأن تكون خالية من الرياء ، ويعرفون الاخلاص بأنه التقوى من ملاحظة الخلائق ، والصدق بأنه التقوى من مطالعة النفس فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا اعجاب له . ويقول الامام الجنيد رضى الله عنه : الاخلاص سر بين الله تعالى وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله . ويقول سيدى سهل التستري رضى الله عنه : أهل لا اله الا الله كثير والمخلصون منهم قليل . ويقول السادة الصوفية : ما أخلص عبد قط أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

ويفرق السادة الصوفية بين الصادق والصاديق فيقولون أن الصادق من صدق في أقواله ، والصاديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله . وأقل الصدق عندهم استواء السر والعلانية . ويعمل السادة الصوفية في علاج أمراض النفس على ذكر الله تعالى ذكر كثيرا ، ويقولون ان الذكر ركن قوى في طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام ذكره عز وجل .

ولذلك يقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه في الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

ان الطريق هـى الذكر الكثير فلذ
بالذكر هذا هو التقوى هو القدم

كما يقول رضى الله عنه :

والعاشقون لهم فى الحب ان صبروا
روض من العز لم يذبل له ثمر

مياحه الذكر والتقوى منابحه
والعلم والدين والآيات والعبر
خل المعارف للعشاق تقطعها
ان كنت منهم فسر واسهر كما سهروا

وذكر الله عند السادة الصوفية على قسمين: ذكر اللسان ، وذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب ، فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه .

ويقول سيدي الشيخ على عقل رضى الله عنه في ذكر القلب :

وقفت على نجوى الاله جوانحي
لذلك قلبي منزل كله ذكر
وأخليت قلبي من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزلله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطق أجلا لا وما عاقنى سير
ففى صحتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

ويقول فى أثر ذكر اللسان على القلب رضى الله عنه :

رب يسر لى وأحسن موقوفى
ذاك قلبي طالبا منك شفاه .
ولسانى لم يكن الا لكم
لم أحرك بسوى الله الشفاه

ويرشدنا رضى الله عنه الى التمسك بالخالق وعبادته وذكره ،
ويحذرننا من الاشتغال بالخلائق فيقول :

إذا مارمت أسباب السعادة
تمسك فى حياتك بالعبادة

وان رمت النجاة الجأ اليه
وان رمت العطاء فدع عباده
علامة حبك الرحمن عندي
قيام الليل والذكر الشهادة
ولولا الذكر ما كسبت قلوب
بقدر الذكر تكتسب الافاده
فنيينا في المحبة عن سواء
وأدركنا بتقواه وداده
دموع الناس من حزن. ولكن
دموع العارفين من العبادة
وما خاب امرؤ لله يسعى
ويجمله من الدنيا مراده
ويندد رضى الله عنه بأهل الغفلة عن الله تعالى فيقول :
من لم يذوقوا ذكر خلاق السما
هم والبهائم في المقام سواء
بل ربما فطن البهيم لربه
والغافلون عن الهدى بلهاء
والاصل في الدنيا المحبة والهدى
لولا الهدى لم تخلق الاشياء

ويتعرض السادة الصوفية لفضائل ذكر الله تعالى فيقولون انه غير
مؤقت ، بل ما من وقت من الاوقات الا والعبد مأثور بذكر الله اما
فرضا واما ندبا . والصلاة وان كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في
بعض الاوقات . والذكر بالقلب مستدام في جميع الحالات ، ويقول
في ذلك سيدي أبو بكر الشبلي رضى الله عنه :

ذكرتك لا أنسى نسييتك لمحة
وأيسر ما في الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى
وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى
شهدتك موجودا بكل مكان
فخاطبت موجودا بغير تكلم
ولاحظت معلوما بغير عيان

ويقول بعض العارفين : لولا أن ذكره تعالى فرض على لما ذكرته
اجلالا له ، مثلى يذكره ؟ ولم يغسل قمه بألف توبة ، ومن خصائص الذكر
أن الله تعالى يذكر في مقابلته ذاكره فيعطيه ويرقيه لأنه تعالى يقول
(فاذكرونى أذكركم) ويتعرض سيدي القشيري في لطائفه في
اشارات إلى فضل الله على الأمة المحمدية في ذلك فيقول انه سبحانه
قال لبنى إسرائيل (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) بينما قال للامة
المحمدية (فاذكرونى أذكركم) ولا شك أن ذكر المنعم أكبر من ذكر النعم
وكانه رضى الله عنه أراد أن يبين لنا الانقش في معرفة الله عند التحدث
بنعمه ، بل نذكره تعالى مع التحدث بها ، فتجمع بين الفضيلتين وتعمرنا
بركات المنعم المتفضل بالعطاء والثواب وما أكرمه عز وجل حين يمنح
عبده التوفيق للطاعة ويثيبه عليها ، ويمدحه بها مع أن الفضل فضله
والعبد ملكه .

ويقول السادة الصوفية : اذا تمكن الذكر من القلب ، فان دنا منه
الشیطان صرع (كما يصرع الانسان اذا دنا منه الشيطان) فتجتمع
الشیاطين فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد حسه الانس ويقول
سيدي سهل التستري رضى الله عنه : ما من يوم الا والجليل
سبحانه ينادى : يا عبدى ما أنصفتنى ، أذكرك وتنسانى ، وأدعوك
الى وتذهب الى غيرى ، وأذهب عنك البلىا وأنت معتكف على الخطايا
يا ابن آدم ما تقول غدا اذا جئتنى ؟

وحين يتعرض السادة الصوفية للحديث القدسي : « أنا جليس من ذكرنى » ، يقولون للذاكرين : ما الذى أفدتم من مجالسة الحق سبحانه ، وكأنهم بذلك يقولون من لم يستفد فهو غافل عن ذكره سبحانه ولو كان ذاكرة حقيقة لاستفاد . ولذلك يقول سيدى أبو على الدقاق رضى الله عنه : الذكر منشود الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطى المنشود ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وكم رأيت ذاكرين من ذوى الهمة فى أتباع القطب الاكبر وشيخنا الاشهر سيدى الحاج محمد أبى خليل ساكن ضريحه المشرق بالزقازيق طيب الله ثراه ، ولا أنسى انى مرة طلبت فى مولده المبارك من صديقى الراحل الشيخ أحمد غلبون رحمه الله رحمة واسعة ان يصحبنى لزيارة بعض الاحباب فى سرادقهم : فقال لى انتظر حتى أكمل الاسم الذى أذكره فقلت له كم بقى عليك لاتمام ذكره فقال عشرة آلاف ، فانظر كيف كانت همته فى طلب الله تعالى حتى صارت الآلاف عنده فى الذكر كالأحاد ، ولا تعجب أن يكون هذا حال الذاكرين الله كثيرا فقد توج الله بهم أرباب المقامات الجليلة فى قوله الكريم (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) .

الصبر والشكر

« اما عن صحتي ، فقضاء قضاء القاضى فى جميع الامور • قدر ونفذ القضاء ، ولطف فى قضاائه وقدره حيث علم ضعف من قضى عليه ، فلطف به لطفه الخفى ، وعامل باحسانه من أيقن أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأنه بين يدي ربه ، فالداران له سبحانه وتعالى ، ومنه واليه تعالى الحمد والشكر ، فان تفضل على عبده اقدره على حمده وشكره ، وبه جل وعلا نحمده ونشكره ونسأله اللطف فيما جرت به المقادير » •

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنه ، الى تلميذه الوفى الصالح السيد / سالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وواضح منها ان سيدى الشيخ كتبها وهو مريض ، لكنه لم يشك المرض ، بل صبر على البلاء ونظر اليه على أنه قضاء من رب الارض والسماء ، صحبه لطف الله الخفى ، واحسانه الى عبده الضعيف الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، واحسانه سبحانه انما جاء عن قدرة ، فكان رحمة من الرؤوف الرحيم الذى وسعت رحمته كل شئ ، ومع صبر الشيخ على البلاء ، حمد الله وشكره بتوفيق منه سبحانه ، فكان سيدى الشيخ فى هذا المقام من القلة الكرام البررة الذين قال تعالى فى شأنهم (وقليل من عبادى الشكور) •

والرضا بما يجرى به قضاء الله من أعظم مقامات اليقين ، ومما يقوله شاعر الصوفية الاكبر ، وصاحب المثنوى ، سيدى جلال الدين الرومى طيب الله ثراه :

« فالذى يهب الروح يجوز له أن يقتل ، فضع رأسك أمامه مثل اسماعيل وأسلم الروح على خنجره فرحا ضاحكا حتى تبقى روحك ضاحكة الى الأبد ، ومن أجل تلك الحال كان الامتحان الذى يميز الخبيث من الطيب ، فهو كالنار التى تخلص الذهب من الزبد ، وان الطفل يرتعد امام ابرة الطبيب ولكن الام المشفقة يسعدها مثل هذا الألم » •

أقول والصبر على البلاء من لوازم الرضا والتسليم ، ويمعرف
السادة الصوفية الصبر فيقولون : هو الوقوف مع البلاء بحسن الادب،
كما يقولون ان الصبر هو الثبات مع الله سبحانه وتعالى وتلقى بلائه
بالرحب والدعة ، وأنشدوا في ذلك •

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة
وحسبي ان ترضى ويتلفنى صبرى
كما أنشدوا :

صبرت ولم اطلع هواك على صبرى
واخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة ان يشكو ضميرى صبابتى
الى دمعتى سرا فتجبرى ولا ادرى

ويقول سيدى أبو على الدقاق : رحمه الله : فاز الصابرون بعز
الدارين لأنهم نالوا من الله معيته ، قال تعالى (ان الله مع الصابرين)،
ويقول سيدى أحمد بن خضرويه رضى الله عنه : من صبر على صبره
فهو الصابر لا من صبر وشكا •

ويحكى السادة الصوفية ان الامام الشبلى رضى الله عنه حبس وقتا
فدخل عليه جماعة فقال لهم : من انتم ، فقالوا : أحباؤك جاءوا زائرين،
فأخذ يرميهم بالحجارة وأخذوا يهربون ، فقال : يا كذابون ، لو كنتم
أحبائى لصبرتم على بلائى •

ويكشف لنا امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن فلسفة
صبره فيقول :

ما من بلاء يصيبنى الا وأرى لله على فيه أربع نعم : النعمة الاولى
ان البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى ، النعمة الثانية أنه لم يقع
أكبر مما وقع ، النعمة الثالثة أن الله صبرنى عليه فاحتملته ، النعمة
الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه •

أما وقد بلغ أمير المؤمنين فى صبره هذ المبلغ فلا يعجب القارىء الكريم
من قوله رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما
أركب •

وقال ابن عيينة رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) أى لما أخذوا رأس الأمر (يعنى الصبر) جعلناهم رؤساء •

ويقول الامام أبو على الدقاق رضى الله عنه : ان الصبر حده الا تعترض على التقدير ، فأما اظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر ، ويستدل على ذلك بقصة سيدنا أيوب عليه السلام حيث قال تعالى فى شأنه :

(انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) مع انه تعالى اخبر عنه انه قال (انى مسنى الضر وانت أرحم الراحمين) ويضيف رضى الله عنه قائلا : استخرج الله منه هذه المقالة (مسنى الضر) لتكون متنفسا لضعفاء هذه الامة •

وقال بعض السادة الصوفية : ان الله تعالى قال فى شأن سيدنا أيوب عليه السلام (انا وجدناه صابرا) ولم يقل صبورا لانه كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه فلم يكن فى حال الاستلذاذ صابرا فلذلك لم يقل الله « صورا » •

ويحكى الامام القشيري رضى الله عنه فى رسالته المباركة انه سمع استاذة أبا على الدقاق رضى الله عنه يقول : حقيقة الصبر الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه مثل أيوب عليه السلام فانه قال فى آخر بلائه : « مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » ولم يصرح بقوله « أرحمنى » •

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى (فاصبر صبرا جميلا) الصبر الجميل ان يكون صاحب المصيبة فى القوم ولا يدرى الناس من هو •

وقد مات ابن لامامنا السبط أبى عبد الله الحسين بن على رضى الله عنهما فلم ير الناس عليه جزعا فسألوه فى ذلك فقال وما أروع ما قال: نحن أهل البيت نسأل الله فيعطينا ، فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضىنا • ويقول رضى الله عنه فى وصف الدنيا وأهلها : الناس عبید .

الدنيا ، والدين لعق على السنتهم يحوطونه مادرت به معاشهم فاذا
محسوا بالبلاء قلل الديانون (اللعق جمع لعقة) •

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه في لطائف الاشارات عند قوله
تعالى (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) :

« البلاء الاختبار ، فيختبرهم مرة بالنعمة ليظهر شكرهم أو كفرانهم ،
ويختبرهم أخرى بالمحن ليظهر صبرهم أو ذكرهم أو نسيانهم •

« والبلاء الحسن توفيق الشكر في المنحة ، وتحقيق الصبر في المحنة ،
وكل ما يفعله الحق فهو حسن من الحق لأن له أن يفعله ، وهذه حقيقة
الحسن وهو ما للفاعل أن يفعله •

« ويقال : البلاء الحسن أن تشهد المبلى في عين البلاء • ويقال البلاء
الحسن ما لا دعوى لصاحبه ان كان نعمة ولا شكوى ان كان محنة •
ويقال البلاء الحسن ما ليس فيه ضجر ان كان عسرا ، ولا بطر ان كان
يسرا •

« ويقال بلاء كل احد على حسب حاله ومقامه ، فاصفاهم ولاء أو فاهم
بلاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الاولياء
ثم الامثل فالامثل » •

ويضيف الامام القشيري رضى الله عنه في اشارته عند قوله تعالى
(ان الله سميع عليم) :

« تنفيس لقوم وتهديد لقوم ، أصحاب الرفق يقول لهم : ان الله
« سميع » لأننيكم فيروح عليهم بهذا وقتهم ويحمل عنهم بلاءهم
وانشدوا في ذلك :

إذا ما تمنى الناس روحا وراحة
تمنيت أن أشكو اليك فتسمعنا

« وإما الاكابر فلا يؤذن لهم في التنفس ، وتكون المطالبة متوجهة
اليهم بالصبر ، والوقوف تحت جريان التقدير من غير اظهار ولا شكوى ،

فيقول : لو ترشح منك ماكلفت بشره توجهت عليك الملامة ، فان لم يكن منك بيان فاني سميع لقاتلك عليم بحالتك •

« ويقال في قوله تعالى (عليم) تسليية لارباب البلاء ، لان من علم ان مقصوده يعلم حاله سهل عليه مايقاسيه فيه ، قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) •

ويقول السادة الصوفية ان الله تعالى وصف لنبيه عليه الصلاة والسلام العلاج الناجح لضيق الصدر فقال سبحانه (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون • فسيح بحمد ربك وكن من الساجدين • واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى ان ضاق صدرك بسماع ما يقوله اعداؤك فيك من ذمك فارتع بلسانك في رياض تسبيح ربك والثناء عليه فيزول ضيق صدرك ، وقف على بساط العبودية بالخدمة تلحق بالرفيق الاعلى وتجلس على بساط القربة ، فان أشرف خصالك قيامك بحق العبودية • ويؤيد هذا المعنى ان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر قام الى الصلاة فنفس عن صدره • وما أخرجنا للتأسي به صلى الله عليه وسلم في ذلك •

أما ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه : ومنه واليه تعالى الحمد والشكر ، فانه يشير به الى ما يقوله السادة الصوفية من انه سبحانه مستحق للحمد لظهور سلطانه ، ومستحق للشكر لوفور احسانه ، وحقيقة الحمد الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وحقيقة الشكر الاعتراف بنعم المنعم على وجه الخضوع • وللشكر عند السادة الصوفية ثلاثة أقسام :

فشكر باللسان ، وهو اعتراف العبد بالنعمة بنعت الاستكانة •
وشكر بالاركان ، وهو قيام الجوارح بالعبادات والوفاء بالخدمة •
وشكر بالقلب ، وهو اعتكاف القلب على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة •

ويقول الامام الشبلى رضى الله عنه : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويقول بعض العارفين شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخاصة على ما يرد على قلوبهم من المعاني •

ويهون السادة الصوفية على أنفسهم بلاء الدنيا مادام دينهم محفوظاً عليهم ، ويحكون في هذا المقام ان رجلاً شكا الى الامام سهل التستري فقال : ان لصاً دخل دارى وأخذ متاعى فقال له : اشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك (يعنى الشيطان) وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع .

ويقول الامام أبو القاسم الجنيد ان استاذہ الامام السرى السقطى سأله يوماً فقال له : يا ابا القاسم ، ما الشكر فأجابه : الا يستعان بشئ من نعم الله على معاصيه ، فقال له : من اين لك هذا ؟ فأجابه : من مجالستك .

ويقول السادة الصوفية في الفرق بين الشاكر والشكور ان الشاكر هو الذى يشكر على الموجود ، والشكور هو الذى يشكر على المفقود ، وفي قول آخر الشكور الذى يشكر بماله ينفقه في سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة الا وهو يذكره ، ويشكره بنفسه فيستعملها في طاعة الله .

وقد ورد ان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ليلة فتوضاً ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركم فبكى ، ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة ، فقالت له ام المؤمنين سيدتنا عائشة : ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال صلى الله عليه وسلم : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟

ويجكى السادة الصوفية عن امامنا السبط أبو محمد الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه التزم الركن من بيت الله الحرام وقال ينجى ربه : الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكراً ، وابتليتنى فلم تجدنى صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بتركى الشكر ، ولا أدمت الشدة بتركى الصبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم .

ويفهم السادة الصوفية من الاية الكريمة (وهو الذى انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلاً ما تشكرون) انه تعالى ذكرنا بعظيم منته علينا بأن خلق لنا هذه الاعضاء وطالبنا بالشكر عليها ، وشكره

عليها هو استعمالها في طاعته ، فشكر السمح الا تسمع الا بالله والله ،
وشكر البصر الا تنظر الا بالله والله ، وشكر القلب الا تشهد غير الله والا
تحب به غير الله •

ويقول السادة الصوفية ان فضل الله على العبد كما يكون في جلب
النعم يكون كذلك في دفع النقم ويستدلون بقوله تعالى (ولولا فضل
الله عليكم ورحمته وان الله رءوف رحيم) وقد جاءت مكررة لمعنى
آية سابقة عليها في سورة النور وهي (ولولا فضل الله عليكم ورحمته
في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) ، وهم يقولون
انه مع عظيم جرمهم في حديث الافك فانه لم ينتقم منهم وأمرهم
بعدم العودة الى مثله ابدا (يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم
مؤمنين) وبذلك بين لهم سبحانه ان حسن الدفع عنهم كان بفضل الله
وبرحمته وجميل عطائه ، وكثير من يشهد حسن العطاء ويشكر الله
عليه ، وقليل من يشهد من ربه حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك ،
لان العطاء ظاهر جلي ودفع الضرر باطن خفي وقد عبر عنه سيدي
الشيخ بقوله : فلطف به لطفه الخفي •

وينبهنا الله سبحانه الى شكره على دفع السوء عنا بقوله الكريم
(ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا
اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون)
ويقول السادة الصوفية في التعقيب على هذه الآية : لقد بالغ في الاحسان
انيك من كان يظهر لك الغيب من غير التماس أو سبق شفاعة فيك •

أما ما يقوله سيدي الشيخ : فان تفضل على عبده اقدره على حمده
وشكره ، فانه يشير به الى ما يقوله السادة الصوفية من تفاوت طبقات
الحامدين لتبليانهم في أحوالهم ، فطائفة حمدوه على ما نالوا من انعامه
واكرامه من نفعه ودفعه ، وطائفة حمدوه على ما لاح لقلوبهم من
عجائب اسرارهم ومكنونات بره وخفي غيبه ، فهو سبحانه رب العالمين
ربي الاشباح بوجود النعم وربى الارواح بشهود الكرم ، واعيت
نعمه العادين بقوله الكريم (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ومن
ذلك ندرك ما أرشدنا اليه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من
عجزنا عن حمده تعالى والثناء عليه بما هو اهله حين قال صلوات الله

وسلامه عليه في مناجاة ربه جل وعلا : « إلا أحصى ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك » .

وفي عجز الخلق عن حمده بما هو أهله سبحانه يقول الامام القشيري رضي الله عنه : علم الحق سبحانه وتعالى شدة ارادة أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه ، فأخبرهم أنه حمد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله (الحمد لله) فانتعشوا بعد الذلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستقبلت اسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق .

ويقول الامام أبو طالب المكي رضي الله عنه : ان الله تعالى قرن الشكر بالايمن ورفع بوجودهما العذاب فقال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما) ويضيف رضي الله عنه قائلا : وفي أحد الوجوه من قوله عز وجل (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) قال : طريق الشكر ، فلولا ان الشكر طريق يوصل الى الله تعالى لما عول العدو على قطعه ولما قال ابليس اللعين (ولا تجد أكثرهم شاكرين) .

ويقول رضي الله عنه كذلك : والشاكر على مزيد ، والشكور في نهاية المزيد ، وهو الذي يكثر شكره على القليل من العطاء . ويتكرر منه الشكر والثناء على الشيء الواحد من النعم . وقد قطع الله تعالى . بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فيه ، واستثنى في خمسة أشياء : في الاغناء ، والاجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة ، فقال تعالى (فسوف يعطيك الله من فضله ان شاء) وقال تعالى (فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) وقال تعالى (يرزق من يشاء) وقال تعالى (يغفر لمن يشاء) وقال عز وجل (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) بينما قال تعالى في الشكر (لئن شكرتم لأزيدنكم) .

وفي الخبر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت؟ قال : بخير ، فأعاد النبي صلى الله عليه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت؟ قال : بخير ، فأعادوا عليه الثالثة : كيف أنت؟ فقال بخير أحمد الله وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم : « هذا الذي أردت منك » أي اظهر الحمد والشكر والثناء .

ويقول السادة الصوفية ان قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه) مع قوله تعالى (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) فيه تنبيه لذوى الألباب الذين وصل لهم القول ليتذكروا ان يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم .

كما يقول السادة الصوفية ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم ، وترك التفكير في نعمه والتذكر لآلائه سبحانه وتعالى مع أنه أمرنا بتذكرها وجعلها سبيلا للفلاح في قوله الكريم (فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) والآلاء هي النعم .

والله تعالى يقول (ان الانسان لربه لكنود) ومعناها انه يشكو المصائب وينسى النعم ، مع أن النعم التي يتقلب فيها أضعاف المصائب التي تحل به . ويرى السادة الصوفية أن المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام وكلها نعم من الله تعالى : فهي إما ان تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، وإما ان تكون كفارة ، وهذا لخصوص أصحاب اليمين ، أو تكون عقوبة ، وهذا للكافة من المسلمين ، وتعجيل العقوبة في الدنيا رحمة ونعمة ، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين .

ويرى السادة الصوفية ان الايمان نعمة كبرى ، ودوام الايمان نعمة أخرى ، فلو لم يرد الله سبحانه دوام الايمان لرجع القلب الى الكفر ، لانه تعالى يقول (يمحو الله ما يشاء ويثبت) أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ، ويثبت ما يجب . وقد من سبحانه على فريق المؤمنين في قوله الكريم (أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) أى قواهم بمدد يثبته ويقويه ، وهو معنى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) .

ولذلك كان من دعوات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياقلب القلب ثبت قلبى على طاعتك » فلو قلب سبحانه قلوبنا عن التوحيد كما تتقلب جوارحنا في الذنوب فبأى شيء كنا نطمئن ، فثبتت الايمان في القلوب من كباثر النعم ، ومعرفة ذلك شكر لنعمة الايمان ، وجهله غفلة توجب العقوبة ، ونعوذ بالله من الغفلات والعقوبات .

ويقول السادة الصوفية ان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفة العبد بتقصيره عن شكر الله شكر ، والاعتذار الى الله من قلة الشكر شكر ، والتواضع بالنعم شكر ، وشكر الخلق والثناء عليهم شكر لله لانهم أسباب المعطى سبحانه وقد جاء في الحديث القدسي « عبدى لم تشكرنى مالم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه » .

وقد علمنى شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه درسا فى الصبر والشكر مما لا أنساه ، وذلك أنى دخلت عليه فى مرضه الأخير فوجدته فى حالة شديدة للغاية وخيل الى أنه يحتضر فقد كان صوته خافتا جدا ، ولكن حملة أدبه العالى أن يخفف عنى ما أحسه من ألمى فقال بصوته الخافت تكلم ، فقلت : ماذا أنكلم يا سيدى ، قال : أى شىء ، قلت : سأنتكلم ان شاء الله عندما يقتضى الكلام ، وكان ألى من حالة الشيخ قد بلغ منتهاه ، فاذا به مع اعيائه يسرى عنى بكلامه معى فيقول رضى الله عنه : له الملك وله الحمد ، عطف سبحانه الحمد على الملك ، والملك يشمل الخير والشر ، وذلك اشارة منه تعالى الى أنه يجب أن يحمده عباده فى الخير والشر على السواء ، ثم سكث الشيخ ولكن كلماته جالت بى فى عالم الملكوت ونقلتنى من اليأس الى الرجاء ومن الجزع الى الصبر ، ومن القلق الى الرضا ، ومن الرضا الى الحمد فى السراء والضراء ، وبان لى فضل الله على سيدى الشيخ فى صبره وشكره ، وحمدت الله على ادراكه والأخذ عنه ، وذلك حظ جزيل ، لا أستطيع شكر الله عليه الا بالعجز عن شكره ، ولست أفى الشيخ حقه مهما أثنيت عليه ، وكفاه شرفا أنه جمع بين الصبر والشكر ، وقد قون الله تعالى بينهما ووصف المؤمنين بهما فى قوله الكريم (ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) .

ما شاء الله كان

« وقد خلق مالك الملك خلقه ، وبأمره دار الفلك كما خلقه ، فسير الخلق بما به دار ، فكان لكل خلق قرار ورسالة يقوم بها ، وكل يظن أنه مصيب بفعلها ، مع أن البعض مخطئ والبعض مصيب ، والبعض ناجح والبعض يخيب ، والله هو الفاعل المختار ، فليس لإنسان أن يختار أو يحتار » .

جاءت السطور المتقدمة في رسالة بعث بها شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى لتلميذه الصالح المبارك الصديق العزيز السيد / سالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وهى تمس قضية دقيقة حيرت افهام الناس وهى قضية القضاء والقدر ، وقد أمرنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نخوض فيها حتى لا نزل بنا القدم بعد ثبوتها .

والخوض الذى نهينا عنه هو التدخل فى سلطان الله سبحانه وتعالى والبحث عن حكمته فيما يجرى به قضاؤه أو السخط على المقدور بينما نحن مطالبون بالرضا بما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر ، فلا سخط على المقدور ولا اعتراض منا على أمر من الأمور ، بل تسليم مطلق ، ورد الأمور لمشيئته العالية والنافذة سبحانه ، لأنه تعالى مالك الملك والملوك ، يؤتى ملكه من يشاء ، فلا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وكل أفعاله تعالى حسنة ، ولكن قل من يفهم ذلك ، فأكثر الناس يرى أن ما صادف هواه من تلك الأفعال هو الحسنة ، وما خالف هواه هو السيئة ولكنه تعالى يقول (قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) .

وقد يشتبه ذلك القول الكريم على بعض الافهام مع قوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) ولعل درس المؤمن أن السيئة من الله إيجادا ومن أنفسنا أسنادا لزال الاستنباه واستقام الفهم على الوجه الشرعى الصحيح ، ويؤيد ذلك قوله تعالى « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شئ قدير » فى حين يقول سبحانه قبل ذلك

(وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا
نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) •

إذا علمنا ذلك على الوجه الشرعي تبيننا معنى ما يقوله سيدي الشيخ
عبد السلام « والله هو الفاعل المختار ، فليس لإنسان أن يختار أو يختار »
وهو قول رائع كما ترى ، وتتميز روعته في ضوء ما بينه في ذلك المقام
أمامنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد سأله رجل عن القدر فقال
الامام للرجل : طريق دقيق لا تمشي فيه ، فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين :
أخبرني عن القدر ، قال الامام ، بحر عميق لا تخض فيه ، فقال الرجل ،
يا أمير المؤمنين : أخبرني عن القدر ، فقال الامام : سر خفي لا نفسيه ،
فقال الرجل ، يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر ، وكأنما كان الرجل في
الحاحه هذا محتاراً في القدر ،

فقال أمير المؤمنين وأبدع :

ان الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ، فقال ، كما شاء ، فقال
الامام : ان الله يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، فقال الرجل :
كما شاء ، قال الامام للرجل : ألك مشيئة مع مشيئة الله ، أو فوق مشيئة الله ،
أو دون مشيئة الله ؟ اما ان قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه ، وان
قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته كانت
مشيئتك غالبة على مشيئته •

ولامامنا الشافعي رضى الله عنه في تلك المشيئة الربانية شعر رقيق
يناجي فيه ربه تعالى يقول فيه :

وما شئت كان وان لم أشأ وما شئت ان لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت وهذا أعنت وذا لم تص
فمنهم شقى ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن

أما شيخنا الملم سيدي الشيخ على عقل رضى الله عنه فيقول في الرضا
والتسليم في الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

ماذا يضريك لو رضيت وما علمت المـاهـيه
واذا عجزت عن الأمور دع الأمور كما هـيه
واذا رضيت قضاء ربك لا تخاف القاضيـه
انى من التوجيهـد فى حشرى أمنت الطاغـيه
ومنابت الأشواق من ثمر المحبة زاهـيه
فنيـت به عن غيره فاستمسكت بالباقيـه
رضيت فلما أخلصت بقيت وان تك فانيـه
شرفت به وتلذذت بشهوده فى عافـيه
ان كان جسمى بالفناء سـقوفه متداعـيه
فالروح بعد فنائه فى الخلد شمس سامـيه

وينهانا رضى الله عنه عن البحث فى القضاء فيقول فى الهامه الفورى
الرائع :

سلم لأمر الله لا تقف الهوى من سلم الأمر احتواه أمان
ومنازل التسليم خير وقاية ممن يخوض وماله عرفان
ماذا يفيدك أن تعل رحمة أو أن يكون على القضاء بيان
تمسى الذى لم يبيخ الا علة وقضى ولم يسطع له برهان
ومن البلادة أن ينقب عاجز عن سر من من خلقه الأكوان
خذ من حياتك عدة من شرعه ان الشريعة للهدى ميزان

ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الكبير (والد سيدى الشيخ
عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما) فى ديوانه :

أفعاله محكمة وقل من يفهمها
يفعل ما يشاؤه لحكمة يعلمها

ويعلق رضى الله عنه على هذين البيتين بقوله فيقول : ما فرحت بشيء
من نظمى قط فرحى بهذين البيتين ، وأرجو أن ينفعانى غدا ان شاء الله
تعالى ، وانى أكرهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها .

وبين لنا امامنا الشافعى رضى الله عنه أن أرزاق العباد ليست مرتبطة
بمواهبهم العقلية بل ترتبط بقضاء الله الذى تخفى عنا أسرار ه فيقول:

كم من قوى قوى في تقلبه مهذب الرأي عنه الرزق ينحرف
ومن ضعيف ضعيف الرأي مختلط كآته من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الاله له سر خفى علينا ليس ينكشف

وليس معنى هذا ان يتواكل الناس ولا يتخذون الاسباب في التكسب
بل يجب اتخاذ الاسباب شرعا والتفويض لله في نتائجها ، ويقول
سيدى ابن عطاء الله السكندرى في ذلك : فلا بد لك من الاسباب وجودا
ولابد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث اثبتها تعالى بحكمته
ولا تستند اليها لعلك بأحدثته .

ولعلم الله تعالى بضعفنا البشرى ضمن لنا سبحانه الرزق لئلا
تشغلنا أسباب طلبه عن الراضى فقال تعالى مؤكدا عونه في أرزاقنا (وما
من دابة في الارض الا على الله رزقها) وكما كلفنا السعى على أرزاقنا
في الدنيا كلفنا السعى في طلب الآخرة لنيل رضاه سبحانه فقال تعالى
(ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان
سعيهم مشكورا) ثم بين لنا جل وعلا ان التفاضل في درجات الآخرة
أكبر منه في أرزاق الدنيا فقال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض
والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وبين لنا صورة من
صور اسلافنا الصالحين في السعى للآخرة فقال سبحانه (أمن هو
قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل
يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب)
ومن لوازم السعى للآخرة صفاء العبادة والمعاملة .

وقد اجتمع مشايخ حرم الله تعالى على ابي الحسين على بن هند
القرشى الفارسى رضى الله عنه فسألوه عن صفاء العبادة والمعاملة
فقال :

« ان للعقل دالة ، وللحكمة اشارة ، وللمعرفة شهادة ، فالعقل
يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد ان صفاء العبادات لا ينال الا
بصفاء معرفة أربعة : فاول ذلك معرفة الله تعالى ، والثانى معرفة
النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد
الله ووعيده .

« فمن عرف الله تعالى قام بحقه ، ومن عرف النفس استعد لمخالفاتها ومجاهدتها ، ومن عرف الموت استعد لوروده ، ومن شهد وعيد الله ينزجر عن نهيه وينتدب لأمره . »

« فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه : على الوفاء والادب والمروءة ، فلما الوفاء فانفراد القلب بفردانيته والثبات على مشاهدة وحدانيته بنور أزليته والعيش معه ، واما الادب فمراعاة الاسرار من الخطرات وحفظ الاوقات والانقطاع عن الحسد والعداوات ، واما المروءة فالثبات على الذكر نطقا وفعلا وصيانة اللسان وحفظ النظر وحفظ المطعم والملبس ، وينال ذلك بالادب ، لان أصل كل خير في الدنيا والآخرة الادب » .

هذا وقد كتب الامام الحسن البصري الى امامنا السبط الحسن ابن علي رضى الله عنهما يسأله عن القضاء والقدر ، فكتب السبط الكريم يقول في روعة بالغة كما ترى :

« من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر ، ومن حصل ذنبه على ربه فقد فجر ، وان الله تعالى لا يطاع استكراها ولا يعصى بغلبة ، لانه تعالى مالك لما ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم ، فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، فان لم يفعلوا فليس هو الذى اجبرهم على ذلك ، ولو اجبر الخلق على الطاعة لاسقط عنهم العقاب ، ولو اهلهم فان ذلك عجز في القدرة ، ولكن الله له فيهم المشيئة التى غيبتها عنهم ، فان عملوا بالطاعة فله المنة عليهم ، وان عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم » .

فاحرص أيها القارئ الكريم على الانتفاع بهذا الكلام النفيس الذى لا يتكلم به الا أهل بيت النبوة ، وهم معدن العلم والمعرفة ، ومصدر البيان والتبيين ، واليك درة أخرى من درر ذلك السبط الكريم رضى الله عنه وعن آله وذويه فقد قال فى تقوى الله واثرها :

« ان الله لم يخلقكم عبثا ، وليس بتارككم سدى ، كتب آجالكم ، وقسم بينكم معاشكم ، ليعرف كل ذى منزلة منزلته ، وان ما قدر له أصابه ، وما صرف عنه فلن يصيبه ، قد كفاكم مؤونة الدنيا ، وفرغكم

لعبادته ، وحثكم على الشكر ، وافترض عليكم واوصاكم بالتقوى ، وجعل التقوى منتهى رضاه ، والتقوى باب كل توبة ، ورأس كل حكمة ، وشرف كل عمل بالتقوى ، فاز من فاز من المتقين ، قال الله تبارك وتعالى (ان للمتقين حفازا) وقال (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) فاتقوا الله عباد الله ، واعلموا ان من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن ، ويسدده في أمره ، ويهيئ له رشده ، ويفلجه بحجته ، ويبيض وجهه ، ويعطيه رغبته مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . واليك درة ثالثة من درره رضى الله عنه ، لا تقل صفاء عن سابقتها يقول فيها :

« يا ابن آدم عف عن محارم الله تكن عابدا ، وارضى بما قسم الله تكن غنيا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلا . »

« انه كان بين ايديكم قوم يجمعون كثيرا ويبنون مشيدا ، ويأملون بعيدا ، أصبح جمعهم بورا ، وعملهم غرورا ، ومساكنهم قبورا . »

« يا ابن آدم ، انك لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك ، فجد بما في يديك فان المؤمن يتزود ، والكافر يمتنع ، وكان رضى الله عنه يتلو عقب كلامه هذا قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) . »

ونعى سيدى وشيخى على عقل رضى الله عنه على المؤمنين عنايتهم بأمور دنياهم وتهاونهم في أمور دينهم فيقول في الهامة الفورى الذى نقلناه عنه :

الناس في أيامنا سوقة	همهم المال ولبس الجديد
يسعون للدرهم في قوة	لا حر يثنى سعيهم أو جليل
وان دعوا الى الصلاة ادعوا	ان اشتداد الحراق السجود
أخلدوا للركون والنوم حتى	فترت همة وطاب تعود
اتركوا غيكم وكونوا جنودا	للذى عز في حماه الجنود
كل شيء يحد غير هواه	لم تحطه من القلوب حدود
ليس الغنى من افاد الغنى	ان الغنى من نجا بالخلود

واعلم ايها القارىء العزيز ان الله تعالى خلقنا بقدرته من العدم ، فهو اذن غنى عنا وعن طاعتنا ، لا تنفعه طاعة المطيع كما لا تضره معصية العاصي ، انما نحن الذين تعود علينا آثار الطاعة أو المعصية ، وقد تبين لنا ذلك في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والثواب منه تعالى بمحض فضله ، والعقاب بمحض عدله ، لا يسأل عما يفعل ، وكيف يسأل من يتصرف في ملكه بسلطانه ؟

ويقول سيدى الامام جعفر الصادق حفيد امامنا الحسين السبط رضى الله عنهما في ابداع ظاهر :

ان الله تعالى أراد منا شيئاً وأظهره لنا ، وأراد بنا شيئاً وطواه عنا ، فلا يجوز ان نشتغل بما أرادنا عما اراده منا •

ويقول العارفون ان الله تعالى يبعث الخلائق يوم القيامة فيسألهم عما طلبه منهم ولا يسألهم عما قضاه عليهم •

ويروى لنا سيدى سفيان الثورى رضى الله عنه حديثاً عن سيدنا عبد الله بن مسعود يقول فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« لا ترضين احداً بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن احداً على فضل الله عز وجل ، ولا تذمن احداً على ما لم يؤتكم الله تعالى ، فان رزق الله لا يسوقه اليك حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهة كاره ، وان الله تعالى بعدله وقسطه ، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » •

أقول وانما يحمد العبد ربه على نعمتين ، نعمة اليجاد ، ونعمة الامداد ، ولا بد لكل مخلوق منهما ، ولذلك علمنا سبحانه حمده في فاتحة الكتاب ، وأمرنا مع ذلك ان نشكر من جرت نعمة الله لك على يديه (ان اشكر لى ولوالديك الى المصير) فالحمد مختص بالله وحده والشكر يكون له سبحانه ولعباده الذين تجرى على ايديهم نعمه ، وقد ورد في الحديث القدسي : « عبادى لم تشكرنى ما لم تشكر من أجريته النعمة لك على يديه » •

وينبهنا السادة الصوفية الى مسألة دقيقة في الرضا بالقضاء فيقولون ان واجب العبد ان يرضى بالقضاء الذى أمره الله ان يرضى به،

اذ ليس كل ما هو بقضاء الله يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، فلا يجوز مثلاً أن يرضى بالمعاصي كما لا يجوز له أن يرضى بالمحن التي تصيب المسلمين فيجب أن يترك المعاصي ويدعو بكشف الضر عن المسلمين •

وقد سأل تلميذ استاذة : هل يعرف العبد ان الله تعالى راض عنه؟ فقال لا ، كيف يعلم ذلك ورضاه غيب ؟ فقال التلميذ : بل يعلم ذلك ، فقال : وكيف ؟ فقال : اذا وجدت قلبي راضيا عن الله تعالى علمت أنه راض عني فقال الاستاذ : احسنت يا غلام •

ويقول السادة الصوفية : من أراد أن يبلغ محل الرضا فيلتزم ما جعل الله رضاه فيه • كما يقولون : الرضا على قسمين رضا به سبحانه ورضا عنه ، فالرضا به ان يرضاه العبد مدبراً ، والرضا عنه ان يرضى العبد بما قضاه تعالى • وقد عرفوا الرضا فقالوا : هو سكون القلب الى أحكامه وموافقة القلب بما رضى الله به واختاره لعبده • وقد سئلت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة •

وقد قيل لامامنا السبط الحسين بن علي رضى الله عنهما : ان ابا ذر يقول : الفقير أحب الى من الغنى والسقيم أحب الى من الصحة ، فقال : رحم الله ابا ذر ، اما انا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له ، لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل له ، ولا تعجب ان يقول ذلك امامنا الحسين السبط ، فقد مات له ابن من ابناؤه فلم ير الناس عليه جزعا فسألوه في ذلك فقال ، وما أبدع ما قال : نحن اهل البيت نسأل الله فيعطينا فاذا أراد ما نكره فيما يحب رضىنا •

وقد سئل أبو عثمان الصوفي رضى الله عنه عن قول النبي صلى الله عليه وسلم « اسألك الرضا بعد القضاء » فقال لان الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا •

وما أهناً أهل الرضا والرضوان من المؤمنين الذين قال تعالى فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية • جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) •

الفرج بعد الشدة

« واني أتوكل عليه سبحانه موقنا بربوبيته وعجيب قدرته وأنه يقول للشئ كن فيكون ، فكم ضاق أمر وكاد العبد أن ييأس من الفرج ولكن سرعان ما يأتي الفرج القريب بأعاجيب قدرة المولى جل وعلا وهنا يتجلى الايمان به ويظهر صدق التوكل عليه » .

جاءت تلك السطور في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد - سالم جمعة حفظه الله ورعاه وزاده فضلا واحسانا وهي كما تراها تفتح للمؤمن باب الرجاء وتغلق عنه باب اليأس وتبين ان الرجاء في الله تعالى مظهر من مظاهر صدق التوكل عليه سبحانه وقوة اليقين به وأن انتظار الفرج بعد الشدة عبادة من عبادات المؤمنين المخلصين .

ويقول السادة الصوفية : على العبد فرض ان يرغبو مولاه وخالقه ومعبوده ورازقه من حيث فضله وكرمه لا من حيث نظر العبد الى صفات نفسه ولؤمه . كما يقولون : ان الرجاء هو أول مقام من مقامات اليقين عند المقربين وهو ظاهر أوصاف الصديقين ، ونور اليقين بالله عندهم يفوق نور الشمس المشرقة ومن كلامهم في هذا المعنى :

هذه الشمس قابلتنا بنور
ولشمس اليقين أبهر نورا
فأيننا بهذه النور لكن
بهاتيك قد رأينا المنيرا

ويقول سيدي ابن عطاء رضى الله عنه : على قدر قربهم من التتوى أدركوا ما أدركوا من اليقين ، وأصل التقوى مباينة النهي (أى الانتهاز عما نهى الله عنه) . ومباينة النهي مباينة النفس (أى مخالفة هواها) فعلى قدر مفارقتهم النفس وصلوا الى اليقين .

والله سبحانه وتعالى يبتلى عبده بأنواع من البلياء ليمحصه بالصبر ويحمله بها على اليقين به سبحانه وانتوكل عليه في كشف ضره ، ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ويقول سيدي أبو القاسم الحكيم رضى الله عنه في قوله تعالى (واصبر وما صبرك الا بالله) اصبر ، أمر بالعبادة ، وما صبرك الا بالله ، عبودية ، فمن ترقى من درجة لك أى من درجة الصبر لله ، الى درجة بك (أى الصبر بالله) فقد انتقل من درجة العبادة الى درجة العبودية .

ومن تمام عبوديته صلى الله عليه وسلم انه كان يقول : بك احياء وبك أموت ، وكان ابن شبرمة رضى الله عنه اذا نزل به بلاء قال : سحابة ثم تنتفشع ، وقال ابن عيينة رضى الله عنه في قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) لما أخذوا برأس الامر (يقصد الصبر) جعلناهم رؤساء (أى أئمة) .

والصبر حده الا تعترض سرا أو جهرا على تقدير ربك الذى أجراه عليك وسيدنا أيوب عليه السلام حين قال (أنى مسنى الضر) لم يكن متبرما بالقضاء وانما كان محتضرا بالدعاء ولذلك وصفه ربه بالصبر الجميل وقال في حقه عليه السلام (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) والواب هو التواب الرجاء الى الله في همة قوية : وقد جعل الله له ، عليه السلام ، فرجا من شدته حين قال له (أركض برجلك هذا معتسل بارد وشراب) فضرب الارض برجله فأخرج الله الماء بقدرته فاغتسل وشفاه الله وشرب فرواه الله وكان بينه وبين الشفاء والرى ضربة الارض باذن الله وسبحان من ملك (باللام المخففة) ومك (باللام المشددة) وسبحان من ابتلى وعافى وأنعم بالصبر وأثاب في الدنيا بالفرج القريب وفي الآخرة بالاجر العظيم ، وفي الخبر « ما من عبد الا يعطى أجره بحساب وحد الا الصابرين فانهم يجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حد .

وكان الامام سهل التستري رضى الله عنه يقول : الصالحون في المؤمنين قليل ، وأحسن الناس صبورا عند المصائب أكثرهم يقينا ، وأكثر الناس جزعا وسخطا في المصائب أقلهم يقينا ، ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تهون به مصائب الدنيا »

وفى تفضيل الصبر على الشكر يقول السادة الصوفية ان الله تعالى جعل الشكر له ولعباده فى قوله تعالى (أن اشكر لى ولوالديك) ولم يجعل معه فى الصبر من خلقه أحدا فقال تعالى (ولربك فاصبر) وقال (واصبر لحكم ربك) •

ومن لطف الله تعالى بعباده أنه ابتلى أكرم الناس عليه واقربهم زلفى لربه وهم ساداتنا الانبياء والمرسلون عليهم صلوات الله وسلامه وكذلك الأولياء الأصفياء وفى ذلك تسلية لعامة المؤمنين الذين هم أضعف قوة فى حمل أعباء البلاء ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه « نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل » وفى ذلك تنفيس على المكروبين من عامة المؤمنين •

ويقول الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه فى كتابه « المسائل » أن التفويض من خالص التوكل على الله عز وجل للثقة به والمعرفة بنفاذ قدرته ورحمته ورأفته ، والمريدون فى ذلك رجلان :

رجل اعتقد من قلبه أنه ألجأ أموره كلها الى الله ، متبرئاً من الحول والقوة من نفسه ومن الخلق ، الا الى الله تعالى ، ولا ينتظر لطفاً ولا صنفاً الا من عنده ، قد طابت وسخت نفسه بالجائه الامور الى مولاه •

والرجل الثانى اعتقد فى قلبه انه لا أمر له ولا حول ولا قوة ، ولكن ربه مالك نفسه وجميع أموره فيقول فى نفسه : الامور كلها لله ، وبالله تكون وتتصرف ، فألجأت الامور كلها لله عز وجل وأنا منتظر ما يقضى ويقدر •

ويضيف الامام المحاسبى قائلاً : والمفوض مكتف مستريح ، ألم تسمع مولاي وهو يخبر عن العبد الصالح حين فوض أمره اليه سبحانه (وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد) ثم قال الله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب) •

ويعرف السادة الصوفية الرضا فيقولون : هو أن يكون العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل • ويقول سيدي ابن عطاء رحمه الله : ان الرضا يكون من نظر القلب الى قديم اختيار الله تعالى للعبد ، فيعلم

ان الله تعالى اختار له الافضل (فيما يراه الله بعلمه) فيرضى به ويترك السفط • ويحكى سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه فيقول دخلت على مريض أعوده فبينما كان يكلمنى أن أنة ، فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه ، قال : ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه •

ويقول السادة الصوفية كذلك ان علامة الصوفى الصادق ترك الشكوى واخفاء أثر البلوى ، وهو مقام الصديقين ، ويسترعى السادة الصوفية انتباهنا الى قوله تعالى فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ويعقبون على تلك الآية الكريمة فيقولون :

موضع التشديد فى هذه الآية ان الله تعالى أقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسول الله فيما شجر بينهم ثم ان وجدوا فى أنفسهم حرجا ، يعنى فى قلوبهم وأسرارهم وباطنهم ضيقا ، أو كراهة فى حكمه لو أنه حكم عليهم بالقتل ، فقد خرجوا من الايمان ، وأقسم الله على خروجهم من الايمان ، فلو قسمنا على ذلك ما أمرنا الله به من الصبر على أحكام الله عز وجل ، والرضا بما قسم لنا من الاخلاق والارزاق والآجال لم نجد معنا ومع كثير من الناس ذرة من الايمان ، ولولا رجاء الخلق فى سعة رحمة الله تعالى لهلكوا بذلك •

ولسيدى العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى (والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنهما ، حكمة يقول فيها شعرا :

سلم لربك ما قضى واصبر اذا أشتد الحرج
وأذكر حديث المصطفى الصبر مفتاح الفرج

والقرآن الكريم يؤيد الحديث الشريف الذى تضمنته الحكمة السابقة فى مواضع كثيرة من آيات الله البينات من مثل قوله تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) ومثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها

وكان الله بما تعملون بصيرا • اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم
واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا •
هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا (ثم انظر كيف كان سيدنا
يعقوب عليه السلام قوى اليقين بالله حين قال لبنيه (يا بني اذهبوا
فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من
روح الله الا القوم الكافرون) وكان بعد ذلك ان دخلوا مصر وتعرف
عليهم سيدنا يوسف عليه السلام (قالوا ائتك لأنت يوسف قال أنا
يوسف وهذا أخى قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله
لا يضيع أجر المحسنين) •

وها أنت ذا ترى أن سيدنا يوسف رد الفرج الذى من الله به عليه
وعلى آله الى شيئين هما التقوى والصبر ، فكان الفرج أجر الاحسان
فيهما ، وللسادة الصوفية دقة في فهم قوله تعالى (فاتقوا الله
ما استطعتم) فيقولون : اتقوا الله بجميع استطاعتكم فلا يدخر
المؤمن مجهودا مستطاعا الا بذله في مرضاة ربه ، وهم يقولون ان
التكاليف الشرعية كلها في حدود استطاعتنا لانه تعالى لم يكلفنا الا
ما نستطيعه لانه حكيم فلا يكلف النفوس فوق طاقتها •

ويقول السادة الصوفية في معنى قوله تعالى (رضى الله عنهم ورضوا
عنه) الرضا في الدنيا تحت مجارى الاحكام يورث الرضوان في الآخرة
بما جرت به الاعلام ، وهم يروون عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضى
الله عنه قوله : ما أبالى على أى الحالين وقعت ، على غنى أو فقر ،
ان كان فقرا فان فيه الصبر ، وان كان غنى فان فيه الشكر ، ويعقبون
على كلامه المتقدم فيقولون : ذهب عنه التمييز بين الارفق وضده ،
وغلّب عليه رؤية ما للحق سبحانه من الصبر والشكر • كما يروى السادة
الصوفية عن سيدنا أبى الدرداء رضى الله عنه قوله : أحب الموت
اشتياقا الى ربي ، وأحب المرض تكفيرا لخطيئتي ، وأحب الفقر تواضعا
لربي • ويقول سيدى أبو بكر بن عبد الله رضى الله عنه : فى المحن ثلاثة
أشياء ، تطهير وتكفير وتذكير ، فالتطهير من الكبائر والتكفير من الصغائر
والتذكير لاهل المصفاة •

ويقول سيدى سهل التستري رضى الله عنه : أول مقام فى المعرفة
أن يعطى العبد يقينا فى سره تسكن به جوارحه ، وتوكل فى جوارحه

يسلم به في دنياه ، وحياة في قلبه يفوز بها في عقباه ، أقول وهؤلاء
العارفون الاوفياء الاتقياء الاصفياء هم حزب الله وهم المفلحون كما
أخبر سبحانه عنهم ، ولله در القائل في وصف أجدهم :

مرید صفا منه سر الفؤاد
فهام به السر في كل واد
ففسى أى واد سعى لم يجد
له ملجأ غير مولى العباد
صفا بالوفاء وفي بالصفاء
ونور الصفاء سراج الفؤاد
أراد ما كان حتى أريد
فطوبى له من مرید مراد

ويقول سيدي العارف بالله الشيخ أحمد الطوانى رضى الله عنه في
محبة الله لاهل الابتلاء :

يا صاحب البلوى دع الشكوى الى
غير الاله وامثل حكم الاله
واشكره فهي نعمة اذ قد أتى
اذا أحب الله عبدا ابتلاه

وفي الحديث الشريف : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر
اجتبه وان رضى اصطفاه » •

ويقول سيدي القطب الكبير عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه في
التسليم لأمر الله تعالى :

لا الامر أمرى ولا التدبير تدبيرى
ولا الامور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

أما سيدى على البيومى سلطان الموحدين رضى الله عنه فيقول :

كل له ورد يكون وسيلة
لمعاشه ومعاذه ومعاده

وجعلت وردى فى الخروج عن السوى
وأكون مع مولاي تحت مراده

وأما سيدى وشيخى الشيخ على عقل فيقول فى ثباته عند الاحداث
والترامه اليقين والتقوى ، مما نقلناه عنه من الهامه الفورى :

علمونى كيف المسير الى الله
وقالوا خذوا الرضا تيجانا

نتتادى الى اليقين هلموا
وبهذا لربنا نتدانى

قد نشأنا على اليقين صغارا
وكبرنا وما جهلنا المكانا

ونطقنا وما نطقنا بهجر
بل جعلنا تقواه منا لسانا

وادخرنا اليقين للحشر ذخرا
وملأنا من الثبات جنا

ولبسنا من الحياء شعارا
وجعلناه فوقنا طيلسانا

قد علمنا أن المحبة كنز
كل من صانها سما بنيانا

وهو فيما يقول يعلمنا رضى الله عنه ان المحبة تقتضى الرضا
والتسليم فمن شك من بلاء نزل به خرج بشكواه عن حال المحبين من
السادة الصوفية الذين يقول أحدهم : لو قطعنى البلاء اربا اربا
ما ازددت لك الا حبا حبا ، وأنشد بعضهم :

فلو قطعتنى فى الحب اربا
لما حن الفؤاد الى سواك

وقد ذهب شيخ من الصوفية الى تلميذ من تلاميذه ليعوده في مرض أصابه فقال التلميذ لشيخه : انى طريق الفراش هكذا منذ أربعة أشهر فقال له شيخه معلما ومرشدا : أحصيت أيام البلاء فهل أحصيت أيام الرخاء فدلله بارشاده على أن ينظر الى العافية التى متعه الله بها سنوات طوال بدل ان يشكو من علته في مدة قصيرة اذا قيست بسنوات العافية .

ومن الرضا عند أهل الرضا الا يقول العبد هذا يوم شديد الحر ، ولا هذا يوم شديد البرد ولا يقول : الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، بل يرضى ويسلم ويطمئن الى حسن التدبير ولطف التقدير ، ويقول سيدى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبحت ومالى سرور الا فى انتظار مواقع القدر .

والرضا يكون فى المصائب والشدائد التى تصيب العبد ، ولا ينبغى ان يرضى العبد بالمعائب ويقول انها من تقدير الله على عبده مع أن الله نهاه عنها وحذره منها ، وقد ذم الله المتخلفين عن جهاد الأعداء فقال تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى مع النساء ثم قال (وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) وذم من تمتع بمتاع الدنيا ونسى العمل للآخرة فقال تعالى (ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) .

ويضرب لنا امامنا أبو عبد الله الحسين السبط رضى الله عنه أروع مثل فى الثبات عند الشدائد وفى اللجوء الى الله فى تفريجها فيقول مناجيا ربه وقد أحاط به جيش الطاغية ابن زياد فى واقعة كربلاء المشؤومة :

اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو انزلته بك وشكوته اليك رغبة منى اليك عن سواك ففرجته وكشفته ، فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة الهى أنت ولى فى الدنيا والآخرة ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

وكان أبوه الامام على كرم الله وجهه يدعو عند كل شدة بهذا الدعاء:
« يا (كيـعـص) أعوذ بك من الذنوب التي توجب النقم ، وأعوذ بك
من الذنوب التي تغير النعم ، وأعوذ بك من الذنوب التي تهتك الحرم،
وأعوذ بك من الذنوب التي تحبس غيث السماء ، وأعوذ بك من الذنوب
التي تدبيل الاعداء ، انصرنا على من ظلمنا » .

والسادة الصوفية مع الرضا والتسليم يلجأون في الشدائد الى الله
تعالى بالدعاء لكشف الضر عنهم ، وقد قالوا في تعليل الدعاء مع التسليم:
الدعاء مظهر للعبودية فانداعى يزين جوارحه بدعاء ربه ، كما أن الدعاء
اقتمار بأمر الله تعالى وهو القائل (ادعوني استجب لكم) وفي ذلك
المعنى قيل :

أدعوك رب كما أردت تضرعاً
فاذا رددت يدي فمذا يرحم

وقد قال رجل لسيدى ذى النون المصرى رضى الله عنه : زودنى
كلمة ، فقال له :

« لا تؤثرن الشك على اليقين ، ولا ترضى من نفسك بغير التسكين
وان تأتئك نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر ، وارم بآمالك نحو الدائم
الخبير تجده بآمالك قائماً ، واغتنم مواصلة الله تعالى فان لله تعالى
عبادا ألفوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فأملوه على معرفته ، وواصلوه
على عين يقين ، فسمت أبصارهم نحو عظيم ، جليل قدرته ، فسقاهم
من حلاوة مواصلته ، والعقهم من لاذة مخالضته ، فلبكائهم حول العرش
دوى ، ولدعائهم حنين تتفتح أبواب السماء لسرعة تفتحها لاجابة
دعائهم .

ومن دعاء الامام الجنيد رضى الله عنه :

أَسْأَلُكَ سُؤَالَ خَاضِعٍ خَاشِعٍ مِثْلَ ذَلِكَ مُتَوَاضِعٍ ضَارِعٍ اسْتَدْتِ إِلَيْكَ
فَاقَّتَهُ ، وَأَنْزَلَ بِكَ عَلَى قَدْرِ الضَّرُورَةِ حَاجَّتَهُ ، وَعَظَمْتَ فِيمَا عِنْدَكَ رَغْبَتَهُ

وعلم الا يكون شيء الا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع اليك الا من بعد
اذنك ، فكلم من قبيل قد سترته ، وكلم من بلاء قد صرفته ، وكلم من
عشرة قد اقلتها وكلم من زلة قد سهلت بها ، وكلم من مكروه قد رفعته
وكلم من ثناء قد نشرته ، أسألك يا سامع أصوات المستغيثين ، وعالم
خفى أضمار الصامتين ، وأنت المطلع في الخلوات على أفعال المتحركين
ونأظر الى ما دق وجل من آثار الساعين ، أسألك الا تحجب بسوء فعلى
عنك صوتي ، ولا تفضحني بخفي ما اطلعت عليه من سري ، ولا تعاجلني
العقوبة على ما علمته من خواتي ، وكن بي في كل الاحوال رافقا ،
وعلى في كل الاحوال عاطفا ... » .

ويقول سيدى القطب الكبير الامام عبد القادر الجيلاني قدس الله
سره في الاستغاثة بالله عند الشدائد :

يا من تحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من اليه المشتكى واليه أمر الخلق عائد
يا حي يا قيوم يا صمد تنزه عن مضاد
أنت العليم بما بأيت به وأنت عليه شاهد
فرج بحولك كربتى يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك . يستعان به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قريبا يا الهى لا تباعد
يا ذا الجلال وعافنى مما من البلوى أكابد
هذى يدي وبشددتى قد جئت يا مولاي قاصد
فلكم الهى قد شهدت لفيض لطفك من عوائد
ثم الصلاة على النبى وآله الغر الاماجد
وعلى الصحابة كلهم ما خر للرحمن ساجد

فأما سيدى العارف بالله الشيخ احمد الطوائى الكبير فيقول فى
استغاثته من قصيدته المستغيثة :

يا عدتى فى كربتى وصاحبى فى غربتى
وحافظى فى شدتى ويا ولى نعمتى
انجز قضاء طلبتى ولذتى ببغيتى
وسق الى حاجتى ولا تطل تشيتى
أجب أجب لى دعوتى فأنت أنت عمدى
وليس تحت حيلتى سواك يا أمنيلى
ولا بحولى طلبتى تقضى ولا بقوتى
با عالمى بقصتى أغث أغث بسرعة
بجاء سمح الملة أزكى البرايا المخبى
وصل كل برهة عليه - حتى الساعة
وعم كل الاممة وازفف لى تحيتى

وكيف لا يغىث الله المستغيث به وهو سبحانه وتعالى القائل (أمن
يجيب المخطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض آله
مع الله قليلا ما تذكرون) •

المحبة في الله تعالى

« وقد حملنا لك حبا كله لله ، يتصل بالدم والعظم والجسم لا نبغى به الا وجه الله تعالى ، لانه حب الاخوة في الله تعالى ، فمن هذا الحب ومن القلب اهديك سلاما لا تشوبه شائبة من هوى النفس ، واشكر لكم مكاتبكم التي تدل على صفاء القلب بل صفاء الحب في الله تعالى » .

جاءت تلك السطور في رسالة بعث بها سيدي وشيخي العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلواني رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق الوفي اتقى السيد - سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وهى سطور من نور تضىء لنا سبيل المحبة في الله تعالى في صفاء لا تشوبه شائبة من غرض دنى يجعل المحبة كسراب بقلعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا كمحبة أهل الدنيا المعلولة .

والمحبة في الله تعالى تقتضيها الاخوة التى أقامها الله بين المؤمنين مع اختلاف أوطانهم واجناسهم في قوله الكريم (انما المؤمنون اخوة) وفى قوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقد من سبحانه علينا نحن المؤمنين بالتأليف بين قلوبنا على بساط المحبة في الله تعالى وبين لنا أن ذلك التأليف نعمة منه عز وجل فقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فالجماعة رحمة والفرقة عذاب ويد الله مع الجماعة .

والمحبة في الله تعالى عامة وخاصة ، فالعامة تكون لعامة المسلمين والخاصة تكون لخاصتهم من الوالدين والأقربين والاساتذة والشيوخ المرين والأنبياء والمرسلين ، وتلك المحبة الخاصة تتفاوت بتفاوت النفع الاخرى ، فكلما كان نفع المؤمن في طريق آخرته أكبر كان حبه لمن انتفع منه أقوى ، فحب المؤمن لوالنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى من حبه لوالديه بل ومن حبه لنفسه ، وقد قيل لبعضهم

لم تحب شيخك أكثر من حبك لابييك ؟ فقال : أبى سبب حياتى الفانية
وشيخى سبب حياتى الباقية •

وقالوا فى ذلك شعرا :

أقدم استاذى على حق والدى
وان نالنى من والدى العز والشرف

فهذا مربى الروح والروح جوهر
وذاك مربى الجسم والجسم كالصندف

ومن حق الله على عبده المؤمن أن يحب حبيبه ويعادى عدوه لانه
ليس من محبة الله أن تحب من يبغضه الله أو تبغض من يحبه لان
ذلك من أقوى شواهد المخالفة • وقد ناجى بعض المؤمنين ربه فاستند
فى مناجاته الى محبة أحباب الله فقال مناجيا :

ادعوك يارب مضطرا على ثقة
فما وعدت به المضطر يدعوكا

حان الرحيل وما أعددت من عمل
الا محبة اقوام أحبوكا

وكأنه فى مناجاته يشير الى ما جاء فى الحديث الشريف ان رجلا سأل
رسول الله صلى عليه وسلم : متى الساعة ؟ فقال له : ما أعددت لها ؟
قال : ما أعددت لها كثير صوم ولا صلاة الا محبة الله ورسوله ، فقال
صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب • قال أنس رضى الله عنه :
فما فرحنا بشيء فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ،
لانه رضى الله عنه كان والسادة الصحابة واثقين من محبتهم لمولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وقد حكوا ان الامام الشاذلى رضى الله عنه استمع وهو فى هودجه
الى اثنين من تلاميذه الذين صحبوه الى بلادنا العزيزة فقال احدهما
لصاحبه ان قلنا اساءك فلاطفته جمع اساءته لك ، فأجابه انى تذكرت

رأى المجنون فى البيداء كلبا
فجر له من الاحسان ذيلا

فلاموه على ما كان منه
وقالوا قد انظرت السكب نبلا
فقال دعوا الملامة ان عيني
رأته مرة في حى ليلي

قالوا فما كاد سيدى ابو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يسمع
البيت الاخير حتى اهتز طربا وأخذ يكرره وهو يتمايل يمنا ويسرة ،
وكأنه أراد ان يعلمنا التسامح مع عباد الله المؤمنين ارضاء لرب
العالمين فلا نقابل السيئة بالسيئة بل نغفو ونصفح ان لم نستطع ان
نقابل السيئة بالحسنة .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه فى « الاحياء » ان حب الله
تعالى اذا قوى غلب على القلب واستولى عليه حتى انتهى الى حد
الاستهتار فيتعدى الى كل موجود سواء ، فان كل موجود سواء اثر
من آثار قدرته ، لذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا حمل اليه باكورة
من الفواكه مسح بها عينيه وأكرمها وقال انها قريبة عهد بربها .

ويستطرد امامنا الغزالى رضى الله عنه قائلا فى المحبة الخالصة لوجه
الله تعالى : وما من مؤمن محب للآخرة ومحب لله الا اذا أخبر عن
حال رجلين احدهما عالم عابد والاخر جاهل فاسق فوجد فى نفسه ميلا
الى العالم العابد ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف ايمانه
وقوته وبحسب ضعف حبه لله وقوته ، وهذا الميل حاصل وان كانا
غائبين عنه بحيث يعلم انه لا يصيبه منهما خير ولا شرفى الدنيا ولا فى
الآخرة ، فذلك الميل هو حب فى الله ولله من غير حظ . فانه انما يحبه
لأن الله يحبه ولانه مرضى عند الله تعالى ولأنه يحب الله تعالى ولانه
مشغول بعبادة الله تعالى ، الا أنه اذا ضعف لم يظهر اثره ولا يظهر
به ثواب ولا أجر ، فاذا قوى حمل على الموالاة والنصرة والدفاع
بالنفس والمال واللسان ، ويتفاوت الناس فيه بحسب تفاوتهم فى حب
الله عز وجل .

ويضيف رضى الله عنه قائلا : ولو كان الحب مقصورا على حظ ينال
من المحبوب فى الحال أو المآل لما تصور حب الموتى من العلماء والعباد
ومن الصحابة والتابعين بل من الانبياء المنقرضين صلوات الله عليهم

وسلامه ، وحب جميعهم مكنون في قلب كل مسلم متدين ، ويتبين ذلك بغضبه عند طعن اعدائهم في واحد منهم وبفرحه عند الثناء عليهم وذكر محاسنهم ، وكل ذلك حب لله لانهم خواص عباد الله ♦

ويقول الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه القيم « التعريف بالحب الشريف » ما نصه :

« فمن علامة الله محبة الله محبة كل من أحبه الله ومن اختصه الله وقربه أو نص كتابه على محبته إياه ، من ملك ونبى ، ورسول وولى ، ومؤمن وتائب ، ومتطهر ومحسن ومجاهد ، ومثلهم ممن أشاد بمزيتة وفضل منزلته ♦

« وتتفاضل الوسيلة بحسب منزلة المحبوب الثانى من الحبيب الأول، فلا وسيلة أذن اعظم ولا أنجح من حب أحب أحب الله وهو سيدنا ومولانا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولذلك يقول سيدى محمد بن أبى المجد :

الا يا محب المصطفى زد صباية
وضمخ لسان الذكر منك بطييه
ولا تعبأن بالمبطلين فانمنا
علامة حب الله حب حبييه

ويقول صاحب روضة التعريف رحمه الله تعالى :

« ان محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على انحاء ، قيل معناها اتباعه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) وقيل اعتقاد نصره والدفاع عن سنته واجتناب مخالفته والانتقاد لامره ، وقيل دوام ذكره ، وقيل ايثاره وقيل الشوق اليه ، وقيل وجوب مناصحته « اذا نصحووا لله ورسوله » وقيل توقيره وتعظيمه (ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) وقيل احترام أهل بيته (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) وقيل رعاية أزواجه (وأزواجه أمهاتهم) وقيل الصلاة عليه (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقيل

زيارة قبره ، ويلحق بمحبته صلى الله عليه وسلم محبة أصحابه وخلفائه ومحبيه وقد ورد في ذلك كله من الاحاديث الصحيحة ما هو مشهور .»

وانى أقول ان المحب يجب أن تجتمع فيه كل المعانى المتقدمة التى عددها صاحب روضة التعريف فى معنى المحبة ، لانها جميعا تأتلف ولا تختلف ويشتد بعضها بعضا ، وهى فروع لاصل المحبة فى الله تعالى والترابط بينها قائم على الدوام .

ويقول صاحب روضة التعريف أيضا .

« ولما عداوة العدو وبغضه البغض فلازم منه ما لازم من ضده مع اختلاف قصده ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) وقال تعالى (افئتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) ويقول الشاعر :

صديقى من يصادى من اصافى
ويرمى بالعدواة من رمانى

ويقول الآخر :

انما المخلص عندى
فى ولائى وداوى
من يوالى من أوالى
ويعداوى من اعادى

وعلاوة محبة الله ورسوله انما هى الطاعة ، فيأتمر المؤمن المحب بأوامر الله وينتهى بنواهيه سبحانه ، وقد سئل الامام الجنيد رضى الله عنه عن علامة المحبة فقال : لا تستثقل اتباع أوامره واجتناب نواهيه . ولا تدل معصية الله على عدم محبته وانما تدل على عدم كمال المحبة ، ومن ذلك ندرك معنى دعاء سيدى الامام ابى الحسن الشاذلى فى حزنه الكبير حين يقول : واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالاحسان لا ينفع مع البغض منك ، والاساءة لا تضر مع الحب منك ، وقد ابهمت الامر علينا لنرجو

ونخاف ، فأمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، فليس كرمك مخصوصا
بمن أطاعك وأقبل عليك ، بل هو مبذول بالسبق منك لمن شئت من خلقك
وان عصاك واعرض عنك » •

أقول : وقد اشترك عبدان في المعصية ، آدم عليه السلام ، وإبليس
عليه اللعنة ، فاصطفى الله آدم في قضائه وغفر له ، وجعل لعنته
الدائمة على إبليس والعياذ بالله ، وكذلك من علامات محبة الله تعالى
مداومة ذكر المحبوب سبحانه ، ويقول سيدي يحيى بن معاذ الرازي :
حاولع المرید بذکر شیء الا استفاد منه محبة ذلك الشيء ، وأنشدوا في
ذلك شعرا •

خطرات ذكرى تستثير مودتى
واحس منها فى الفؤاد ديبيا
لا عضولى الا وفيه صباية
فكان اعضائى خلقن قلوبا

والذاكرون الله كثيرا ينجذب بعضهم لبعض بحكم التجانس القائم
بينهم والتقاء أرواحهم على بساط محبته سبحانه وتعالى ، ويجب
أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، ويتمنون الخير
لجميع المؤمنين ، ولا يحتقرون احدا منهم بذنوب أو غفلة • ولكل مسلم
على أخيه عشرة حقوق وهى : ان يسلم عليه اذا لقيه ، ويجيبه اذا
دعاه ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته اذا مات ،
ويبر قسمه اذا أقسم عليه ، وينصح له اذا استتمحه ، ويحفظه
بظهر الغيب اذا غاب عنه ، ويجب له ما يحب لنفسه ، ويكره له
ما يكره لنفسه •

وقد قالوا فى معنى وصفه تعالى للسادة الصحابة رضوان الله عليهم
(رحماء بينهم) يعنى متوادين بينهم ، يدعوا صالحهم لطالهم ، واذا
نظر الصالح الى الطالح قال : انلهم اهده وتب عليه واغفر له ، واذا
نظر الطالح الى الصالح قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير
وثبته عليه وانفعنا به •

وقد سئل امامنا على بن أبى طالب عن بعض الصحابة فقال عن
أيهم تسألون ؟ قالوا عن سلمان ، قال ادرك علم الاولين والآخرين ،

قالوا فعمار ؟ قال : علىء ايماننا الى مشائسته ، قالوا : حديفة ، قال صاحب السر اعطى الكشف عن المنافقين • وها أنت ذا تراه كرم الله وجهه قد ذكر كلا منهم بما حباه الله به ولم يحسده على ما آتاه الله من فضله والله تعالى يقول (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) كما يقول (ام حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب) ويقول على لسان لقمان عليه السلام (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) •

والسادة الصوفية ليس لهم شغل سوى القيام بحقه تعالى ، ولذلك تراهم يقطعون العلائق والنوائق والشواغل التي تشغلهم عنه سبحانه لان طريقتهم تقوم على فراغ القلوب لخالقها جل وعلا ، حتى لقد كان الامام الشبلى رضى الله عنه يقول لتلميذه الحصرى في ابتداء امره ان خطر ببالك من الجمعة الى الجمعة الثانية التي تأتيني فيها غير الله تعالى فحرام عليك ان تحضرني • كما ان السادة الصوفية يقولون : ما لم يستو عند المرید قبول الخلق وردهم لا يجيء منه شيء ، بل أضر الأشياء له الاستغفال بالناس لانه علامة الافلاس •

هذا واللغة التي خاطب بها سيدى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه تلميذه الصالح السيد - سالم جمعة هي لغة الحب الخالص لله وفى الله بين الشيخ وتلميذه ولا شك ان سيدى الشيخ كتب كلماته من وجدانه الصادق وحبه الخالص وهو ما أهنيء به صديقى الحميم واخى فى الله السيد - سالم جمعة زاده الله من فضله ، وقد قال السادة الصوفية : ان قبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته ومن رده قلب شيخه يرى علامة ذلك لا محالة ولو بعد حين •

ولا يفهم القارئ العزيز من ذلك انه يجب على المرید ان يعتقد العصمة فى شيخه فان العصمة واجبة للمرسل الكرام والأنبياء العظام ، وانما الشيخ محفوظ بعناية ربانية تؤهله لقيادة المريدين فى التربية الطريقية ، وعلى المرید أن يحسن الظن بشيخه ويدع ما لا يفهمه من أحواله لله مادام الشيخ يربيه على آداب الكتاب والسنة والجماعة

بلسانه وقلبه وهى مهمة شاقة وان بدت للمريد انها سهلة حين يجنى ثمارها يانعة وهى دائية القطوف ، وما درى ان شيخه حمل عنه المشقات حين أنزله منازل القربات (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين) • وليس ذلك مقصورا على ذرية الصلب انما هو شامل لذرية الروح (يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) أما ذرية ابليس فيقول تعالى محذرا منها ومنه (أفنتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) •

وكيف يستسهل المريد مهمة شيخه الذى يسلك به طريق الاخرة وهو طريق دقيق المسالك والاشك ان الدليل فى صحراء القيامة اثنى عبثا من الدليل فى صحراء الدنيا لان صحراء الدنيا طريقها ظاهر محسوس (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) اما صحراء الآخرة فطريقها خفى لا ينكشف الا لاهل البصائر النافذة الذين هياهم الله لدلالة السالكين وارشادهم الى بر السلامة والامن من الفزع الاكبر • والمريد الذى تصح عقيدته فى شيخه ولا يعترض عليه بقلبه ينال ما قسم الله له من مكاشفات الغيب التى خص بها شيخه فلا يحتاج للتطفل على موائد غيره لان بيت أبيه الروحى أولى بغذائه من بيوت الآخرين •

وصلة المريد بشيخه صلة روحية وهى بذلك لا تتوقف على حياة الشيخ الجسدية ، ولذلك يتربى المريدون على يد خلفاء الشيخ فى طريقه وان لم يعاصروا الشيخ فى حياته فكم مضت قرون على انتقال سادتى الائمة أحمد الرفاعى وعبد القادر الجيلانى واحمد البدوى وابراهيم الدسوقي وأبى الحسن الشاذلى وماتزال مدارسهم تخرج العارفين والهداة المرشدين وذلك ببركة متابعتهم لجدهم سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) •

وقد انتقل الى رضوان الله شيخنا وصاحب طريقتنا سيدى العلم الاشهر والقطب الاكبر الشريف الجسينى الحاج محمد أبو خليل وسكن

ضريحه المبارك بالزقازيق في ٢٩ يونية ١٩٣٠ وحدثني شاهد من لخواننا الاناضل أن مجلس الذكر أقيم في سرادق العزاء وحضره عدد عديد من أتباعه فأخذ عالمنا وعارفنا اللهم سيدي الشيخ على عقل ينشد بالهامه الفورى على مسمع الذاكرين فكان مما انشد :

والله والله العظيم ثلاثة الشيخ حاضر
هو سامع ما قد سمعت وناظر ما أنت ناظر

فهام الذاكرون وكادوا ان يطيروا من هيامهم لو استطاعوا الى ذلك سبيلا وذلك من قوة اتصالهم بروحه القوية وشدة محبتهم الربانية لشيخهم الذى سلك بهم طريق الفلاح الى ساحة القدس •

وتفسير ذلك ان الموت ليس بعدم محض بل هو انتقال من حال الى حال ومن عالم الى عالم ، وانت في نومك غيرك في يقظتك ، لان عالم النوم غير عالم اليقظة ، فالروح في النوم تنتقل بالرؤيا من الفرش الى العرش كما يقولون ، بينما البدن لا يبارح الفراش ولا الغرفة التى ينام فيها ، وكذلك عالم الموت تبطل فيه وظائف الأعضاء التى تستخدمها الروح حال الحياة البدنية حيث كانت تنظر بالعين وتسمع بالأذن وتمشى على الرجلين وتتناول باليدين الخ فهمدت تلك الأعضاء حيث بارحت الروح بالموت الجسد وفارقتة الى عالم البرزخ وهو الفاصل بين الدنيا والآخرة •

وحياة الروح فى عالم البرزخ لا شبهة فيها ، فهى ثابتة بالكتساب والسنة ولئن كان الشرع الشريف منعنا من الكلام فى سر الروح بقوله تعالى (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) فان الشرع اذن لنا بالتكلم فى حال الروح بعد الموت • ويقول الامام الغزالي رضى الله عنه فى « الاحياء » ما خلاصته :

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها آيات وأخبار كثيرة :

أما الآيات فما ورد فى الشهداء اذ قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) والآية نص فى أرواح الشهداء السعداء •

ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده انهم لأسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يحدرون على الجواب » رواه مسلم فهذا نص في بقاء روح الشقي وبقاء ادراكها •

« ولا يخلو الميت من سعادة أو شقاوة قال صلى الله عليه وسلم « اعتبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط •

« وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدنيه في قبره » رواه احمد وانشاف الامام الغزالي قائلا •

« ان روح المؤمن لا تموت وعلم المؤمن عند موته لا يمحي وصفائه لا يتكدر وانيه أشار الامام الحسن البصري بقوله : التراب لا يأكل محل الايمان وبالابمان تتفاوت درجات السعداء كما تتفاوت درجات الأغنياء بحسب كثرة المال وقلته ، فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون أنى لقاء الله تعالى الا بأنوارهم قال تعالى (يسعى نورهم بين أبديهم وبأيمانهم) •

ثم يقول الامام الغزالي :

« والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك تتألم بأنواع الحزن والغم والكمد وتتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة البدن ، وما هو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده » •

وفي هذه المناسبة أكشف الستار عن تجربة وقعت لي في شبابي الباكر حيث تمنيت أن أطمئن الى صحة انتسابي بالنبوة في طريق الله الى سيدي الشيخ أبي خليل رضى الله عنه حيث لم يسعدني الحظ بلقائه

في حياته الشريفة انما اسعدني الحظ بادراك خليفته المربي الكامل
سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ، فكان ان حظيت
في نفس الليلة برؤية سيدى الشيخ أبى خليل في رؤيا طويلة لا أنسى
منها الايام سعادتي بها فلقد احتضننى طويلا ومن مهابته القيت بوجهي
في صدره فوضع يده اليمنى على عاتقى الابر و يده اليسرى على عاتقى
الايمن وبعد ربع ساعة على هذا العطف الابوى انحانى كلمنى بالسريانى
قائلا : « لو كنت تأخذ عشرة نقد من فيلول اينون كانت تعيينك على
طلب العلم ، أنا زمان كنت اجيبها على ألم نشرح » ثم قدمت له أحد
أصحابي الذين كنت قدمتهم في الطريق لسيدى الشيخ عبد السلام
فعاهده فقال لى سيدى الشيخ أبو خليل رضى الله عنه : أيوه أنا شفته
مع الاستاذ رشاد ، ثم هم رضى الله عنه بلبس نعليه وقال : أقوم
ب خويا أصلى الصبح أحسن الشمس قربت تطلع ، فانتبهت من نومي
فوجدت أنه لم يبق على الشروق الا نصف ساعة فأسرعت بالوضوء
وصليت الصبح حاضرا قبل أن تطلع الشمس ببركة سيدى الشيخ طيب
الله ثراه .

وقد قصصت تلك الرؤيا على سيدى الشيخ عبد السلام فسرته
وفسر لى الاستاذ رشاد بأنه المرشد ، وقد استبشرت بها كثيرا لى
ولصاحبى المخلص الاستاذ فهمى عبد الجواد المفتش السابق بوزارة
التربية . ورأيت بركة الرؤيا فيما علمنى الله بعدها ما كنت أجهله من
علوم الشريعة حتى صارت لى فيها مؤلفات عديدة أسأل الله ان ينفعنى
وقراءها بها يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . والرؤيا واضحة في صلة
الشيخ بالمريدين في طريقه وان لم يجتمعوا به في حياته الدنيوية ، وقد
استحييت ان أسأل سيدى الشيخ عبد السلام عن معنى « فيلول
اينون » وكنا ان نكون محل رعاية روحية من مثايخنا وهم في
برازخهم . وفي سيدى أبى خليل وخليفته سيدى عبد السلام وسيدى
على عقل يقول أخى في الله المرحوم محمد زكى عبد السلام الحلوانى:

الله أكبر قد وضحت طريقة

وثبتت اقدا ما وسدت منارا

خفقت بنود الحق حولك دائما

وشهدت جنودك للتقى أنصارا

حتى كأنك لم تغب من بينهم
مارددوا الانشاد والاذكارا

عبد السلام على يمينك يجتلي
كأبى قصفة يملأ الانظارا

وعلى يزخر بالروى كأنه
ديم السماء تفجرت انهارا

وجاء في الرسالة القشيرية ان ابا بكر الرشيدى رأى محمدا الطوسى
في المنام يقول له : قل لابی سعيد الصفار المؤدب :

تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا
وأظهرتم الهجران ما هكذا كنا

لعل الذى يقتضى الامور بعلمه
سيجمعنا بعد الممات كما كنا

قال فانتهت وقلت ذلك لابی سعيد الصفار فقال : كنت أزور قبره
كل يوم جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة .

وحكى عن بعضهم انه قال : رأيت فى المنام رسول الله صلى الله
عليه وسلم وحوله جماعة من الفقراء (أى الى الله) فبينما هو كذلك
اذ نزل من السماء ملكان وبید أحدهما طست وبید الآخر إبريق ، فوضع
الطست بين یدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل یده ثم أمر
الملكین حتى غسلوا أيديهم ، ثم وضع الطست بين یدى فقال أحدهما
للآخر : لا تصب على یده فإنه ليس منهم ، فقلت : يا رسول الله أليس
قد روى عنك أنك قلت « المرء مع من أحب » فقال : بلى ، فقلت وأنا
أحبك وأحب هؤلاء الفقراء : فقال صلى الله عليه وسلم : صب على
یده شأنه منهم .

اللهم اجعلنا من أصفیائك الذين قلت فيهم (يحبهم ويحبونه أذلة
على المؤمنین أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبیل الله ولا يخافون
لومة الإثم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) .

الافتقار إلى الله تعالى

« الملائكة والأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون وكل الخلق لا يطلبون سواك ونحن الضعفاء ، وأنت ربنا ، لا نلجأ لغيرك ، فلا تردنا عن بابك الذى وسع الخلق وقد شهدوا لك بالربوبية وقد قضيت وقلت (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم اليينا لا ترجعون) بفضلك مؤمنون بالرجعى اليك ، فعاملنا بالاحسان اذ الفضل منك واليك » .

جاءت تلك السطور فى رسالة بعث بها شيخى وسيدى عبد السلام الحلوانى الى تلميذه الصالح المبارك الصديق العزيز السيد - سالم جمعة مد الله فى عمره وزاده من فضله ، وهى كما يرى القارئ تنطق بافتقار الخلائق كلهم الى الله عز وجل مهما علت اقدارهم ، ويستوى فى ذلك الافتقار اهل السموات وأهل الارض : فكلهم خلق الله ، ويجرى عنهم من عطائه غذاء الاجساد والارواح ، وكما انفرد سبحانه بخلقهم انفرد برزقهم ، وشمل رزقه من آمن به منهم ومن كفر ، ومن جحد فضله ومن شكر .

ويلجأ سيدى الشيخ الى ربه لجوء المؤمن بربه ، المقر بفقره اليه وضعفه بين يديه فى حسن ظن بكرمه الذى يسع السائلين الواقفين ببابه ، يرجون رحمته وينتظرون احسانه ، وهو سبحانه أجود الاجودين ويعطى بسؤال وبغير سؤال ولكن السؤال مظهر من مظاهر افتقار العبد لربه ، كما هو اقرار بوجود الله وكرمه ، وبقربه من عبده ، يسمع له ويستجيب .

وما أرق ما يقول سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه فى دعائه :
لئن مددت يدي اليك داعيما لطالما كفيتنى ساهيا ، أقطع منك رجائى بما عملت يدائى ؟ حسبى من سؤالى علمك بحالى . وهو الذى يقول : أطلب حاجتك بلسان الفقر ، ويعرفنا رضى الله عنه كيف نتحقق بالفقر الى الله تعالى فيقول : من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو . ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لان النفوس كلها فقيرة عند هيئته .

ويقول سيدي السرى السقطى رضى الله عنه : اجعل فقرك اليه تستغن به عن سواه • ويقول سيدي الحارث المحاسبى رضى الله عنه : صفة العبودية الا ترى لنفسك ملكا وتعلم انك لا تملك لنفسك ضرا ولا نفعا كما يقول : اذا أنت لم تسمع نداء الله فكيف تجيب داعي الله ، ومن استغنى بشيء دون الله جهل قدر الله • ويقول سيدي شقيق البلخي رضى الله عنه : من لم يعرف الله بالقدره فانه لا يعرفه ، قيل وكيف يعرف بالقدره ؟ فقال يعرف ان الله قادر اذا كان معه شيء ان يأخذه منه ويعطيه غيره ، واذا لم يكن معه شيء ان يعطيه •

ومن اقوالهم هذه تعلم ان الفقر عندهم ليس معناه فقر الجيوب كما يتبادر الى الذهن ، بل معناه الحاجة الى الله على الدوام في أمرين في حفظ ما أتاك من فضله ، وفي اعطائك ما تحتاج اليه من أمر الدين أو الدنيا • أما عن حفظ ما آتاك فيضمنه لك شكر نعمته سبحانه فقد قال تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) فأكد الحفظ بل وزيادة النعمة ، وشكر النعمة عند السادة الصوفية العارفين هو الا تستعملها في معصية الله فان استعملتها في معصيته تكون قد بدلت نعمة الله كفرا • فكفرت النعمة ولم تشكرها • واما اعطاؤك ما تحتاج اليه من أمر الدين والدنيا فانه تعالى فتح لك باب كرمه الواسع بقوله سبحانه (واذا سألك عبادى عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) ولما كان الله تعالى قادرا على سلب النعمة فوجب ان يطيعه العبد فيها ليحفظها عليه ويزيده من فضله • ويستوى في ذلك النعم الظاهرة والنعم الباطنة (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) وينصحن السادة الصوفية العارفون ان نترك الذنوب الظاهرة شكرا لنعم الله الظاهرة وان نترك الذنوب الباطنة شكرا لنعم الله الباطنة وبذلك الترك تتطهر ظواهرنا وبواطننا فلا نسرق ولا نزنى ولا نغتاب ولا نقتل النفس التى حرم الله الا بالحق الى غير ذلك من الجرائم الظاهرة ولا نحقد ولا نحسد ولا نشمت بمصائب الناس الى غير ذلك من العيوب الباطنة • والنعم الظاهرة هى النعم المحسوسة كالسمع والبصر والرزق الخ ، والنعم الباطنة هى الخافية كالإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم واليوم الآخر وما يتصل بالعقيدة من خفايا اليقين من الرضا والصدور والشكر والمحبة الخ •

ولا يقف اثر الطاعة على حفظ النعم وزيادتها في الدنيا ، بل يتعدى اثر الطاعة والمعصية الى حياتنا الاخرية التي آمنا بها ، ولذلك يقول سيدى شقيق البلخى : من دار حول الشهوات فانه يدور بدرجة في الجنة ليأكلها ، وينقصها في الدنيا ، كما يقول : جعل الله أهل طاعته أحياء في مماتهم وأهل المعاصى أموات في حياتهم .

ويحذرنا سيدى ابو يزيد البسطامى رضى الله عنه من ان تشغلنا النعم عن النعم سبحانه فيقول : ان الله تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه فخلع عليهم خلعه فاشتغلوا بالخلع عنه ، وانى لا أريد من الله الا الله . فانظر كيف جرد عبادته من الشوائب والعلل حتى صارت خالصة لله تعالى فعلم بما أمره به في قوله الكريم (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين النقيمة)

وتلك درجة الخواص ، بل خواص الخواص ، ولا تتأتى للعابد مرة واحدة بل لابد في الوصول اليها من مجاهدات حتى يأذن الله للمجاهد ببلوغ النهايات مصداقا لقوله الكريم (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لم يح المحسنين) ويقول سيدى أبو يزيد متحدثا عن نفسه في ذلك : غاطت في ابتدائي في أربعة أشياء ، توهمت انى أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما انتهيت رايت ذكره سبق ذكرى ومعرفته تقدمت معرفتى ومحبته أقدم من محبتى وطلبه لى أولا حتى طلبته . ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل في مجاهداته من الهامه الفورى الذى نقلنا عنه :

حسبت الهوى سهلا فخفضت عيابه

فطورا به أطفو وطورا به غطى

الى ان أتتني من لدنه عناية

وصلت بها بر السلامة والأنس

ويقول سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : ثلاث خصال من صفة الاولياء : الثقة بالله في كل شيء ، والغنى به عن كل شيء ، والرجوع اليه في كل شيء . ولذلك يقول سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه في مناجاته :

« يا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، ويا بادىء العارفين بما به عرفوه
ويا موفق العابدين لصالح ما عملوه ، من ذا الذى يشفع عندك الا
بإذنك ومن ذا الذى يذكرك الا بفضلك .

ويرى سيدى الجنيد رضى الله عنه ان حسن الاعتماد على فضل
الله لا ينافى بذل المجهود فى سبيله سبحانه لان الأعمال الصالحة
انما رسمها الله لعباده ليجاهدوا أنفسهم بها فى الوصول الى مرضاته
ومن أقواله فى هذا المقام :

ان العارفين بالله أخذوا الاعمال عن الله واليه رجعوا فيها ولو بقيت
ألف عام أنقص من أعمال البرذرة الا أن يحال بى دونها وانه لأؤكد
فى معرفتى وأقوى فى حالى .

ثم انه رضى الله عنه يدعو فى المجاهدات الى الاقتداء بمولانا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فانه صلوات الله وسلامه عليه مع اصطفاء
الله له بلغ فى مجاهداته وعبادته الغاية القصوى التى يستطيعها البشر
ولا غرو فقد أمره مولاه بالعبادة الدائمة والاصطبار عليها فى مثل قوله
تعالى (رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل
تعلم له سميا) ، ويقول سيدى الجنيد رضى الله عنه : الطرق كلها
مسدودة على الخلق الا من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم
واتبع سنته ولزم طريقته فان طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه .

وفى المجاهدة والعبادة يجب أن يستعين العبد بمولاه اذ لا حول
ولا قوة الا بالله تعالى ، ومما علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه
وسلم انه قال لسيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه يا معاذ لا تدعن دبر
كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . وقد
قال تعالى لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما رميت اذ رميت
ولكن الله رمى) ولهذا يجب أن يكون المؤمن مفتقرا الى ربه ومستندا
اليه فى كل أحواله حتى لو جاءته الاسباب بما يحب ويرضى لانها من
فضل الله عليه ولا تغنيه الاسباب مهما كانت عن مسببها سبحانه ،
ولذلك يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى : فلا بد لك من الاسباب
وجودا ولا بد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتتها تعالى
بحكمته ولا تستند اليها لعلمك بأحدثه .

ولهذا نراه رضى الله عنه فى مناجاته لربه تعالى يقول فى ابداع
لا يخفى : الهى أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى
ويشرح سيدى ابن عجيبة الحسنى رضى الله عنه هذه المناجاة فيقول :

أنا الفقير فى غناى الوهمى الادعائى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى
الحقيقى الاصلى ؟ فغناى بموافقة الاسباب الظاهرة ليس وجوده منى
ولا بقاءه بيدى ، فأنا فقير فى حالة وجوده فكيف لا أكون فقيرا فى حالة فقد
أو يقول : أنا الفقير فى حالة حياتى التى يظهر فيها صورة غناى
بعشيرتى وأحبابى فكيف لا أكون فقيرا بعد مماتى حين يتخلف عنى
أحبابى وجيرتى أو يقول : أنا الفقير اليك فى حال غناى بك فلا غنى
لى عن زيادة مددك ، وهذا كما قال القائل :

أنا الفقير اليكم والغنى بكم
وليس لى بعدكم حرص على أحد

فكيف لا أكون فقيرا فى حال فقرى اليك اذا كنت فقيرا فى حال
نظرى الى غناى بك ، وكيف لا أكون فقيرا فى حال نظرى الى فقرى
اليك ولله در القائل .

انى اليك مع الأنفاس محتاج
لو كان فى مفرقى الاكليل والتاج

وقال الامام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : من أشار الى الله
ثم رجع بحوائجه الى غيره أفقره الله الى الخلق ثم نزع له الرحمة
من قلوبهم ، ومن شهد محل افتقاره الى الله ورجع بحوائجه اليه أغناه
الله من حيث لا يحتسب ، واعطاه من حيث لا يرتقب .

ثم يستطرد سيدى ابن عجيبة قائلا :

فليثق العبد بربه ، وليشتغل بما أمره به ، وليكن كما قال بهلول
المجنون : نعبده كما أمرنا وهو يرزقنا كما وعدنا ، ولا يتعلق بمخلوق
أصلا قلبا ولا قالبا .

ويناجى سيدى ابن عطاء الله السكندرى ربه مرة أخرى فيقول :

« الهى أنا الجاهل فى علمى فكيف لا أكون جاهلا جهولا فى جهلى »

ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول :

انا الجاهل فى علمى العارض الذى علمتنى فكيف لا أكون جاهلا فى
جهلى الاصلى الذى أركرتنى ؟ أو يقول : أنا الجاهل فى حال نسبتي
الى العلم الذى علمتنى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى الذى هو أصلى
ومحلى ؟

وما نسبة علم العبودية فى جانب علم الربوبية الا كنقرة العصفور
من البحر ، كما قال الخضر عليه السلام لسيدنا موسى عليه الصلاة
والسلام ، قال تعالى (وما أوتيتهم من العلم الا قليلا) .

ثم ان من تحقق بفقره الاصلى لا يسكن الى غناه العارض ، ومن
تحقق بجهله الاصلى لا يسكن الى علمه الفرعى ، فان الامور كلها بيد
الغنى الكريم والقلوب كلها بيد المدبر الحكيم ، كما أبان ذلك فى المناجاة
النائلة بقوله :

الهي ان اختلاف تدبيرك ، وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك
العارفين بك من السكون الى عطاء ، واليأس منك فى بلاء .

ويشرح ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول :

اختلاف التدبير هو اقامة كل عبد فى حكمته وعلى حسب ارادته
ومشيئته من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل ، من قبض
أو بسط من سقم أو صحة أو مرض ، من ايمان أو كفر الى غير
ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة . وسرعة حلول المقادير
هو تبديل تلك الاحوال فى أسرع حال ، من فقر الى غنى ومن غنى الى
فقر ، ومن علم الى جهل ، ومن جهل الى علم ، ومن عز الى ذل ، ومن
ذل الى عز ، ومن قبض الى بسط ، ومن بسط الى قبض ، ومن سقم
الى صحة ، ومن صحة الى سقم ، ومن ايمان الى كفر والعياذ بالله
ومن كفر الى ايمان ، فقلوب الخلائق بيد الواحد القهار ، يقلبها كيف
يشاء ويختار ، ويفعل بها ما يشاء (الا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

ويقول السادة الصوفية : علامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى
فيها ما غاب عن غيره ، وجلاء القلب لا يكون الا بالايمان واليقين ، فعلى
قدر قوة الايمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة

الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة باسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد ، وبقدر كماله سيكون استغراقه في أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه في أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية .

أقول وكلامهم المتقدم يفسر لنا الحكمة القائلة : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، فمن عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى ، ومن عرف نفسه بالجذل عرف ربه بالعلم ، ومن عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرف نفسه بالحاجة عرف ربه بالاستغناء ، ومن عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء . وهكذا .

ولست اعنى بالمعرفة العلم بذلك واعتقاده ، وإنما قصدت المعرفة العملية المذاقية ، ويغرى سيدى جلال الدين الرومى بين العلم والعلم فيقول : هل قطفتهم وردا من الواو والراء والذال ؟ اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى . فهو رضى الله عنه يعلمنا الا نقف عند العلم بالهزاء الخاص بكلمة ورد بل يجب أن نسعى اليه لمعرفة ، وذلك تعليم بالرمز اعتاده العارفون من الصوفية ، وعندما سئلوا لماذا تكثر في كلامكم من الاشارات دون ان تصرحوا بالعبارات أجابوا : اننا نكلم أهلنا ولا نكلم غيرهم . والأخرس لا يفهمه الا أهله حين يتكلم معهم بالاشارة .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : فرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة والسبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحا وشبعان ، ومن ذلك ندرك أن الافتقار الى الله تعالى حال يذوقه أهل الوجدان وليس علما يروى باللسان ويسمع بالأذان ، وقد قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) وليس المراد فقراء المال بل المراد جميع الناس وفيهم أغنياء المال وأصحاب الجاه والسلطان ، ولقد وقفت ذبابة على وجه الخليفة ابى جعفر المنصور فدفعها بيده فعادت ودفعها مرة أخرى فعادت وكان يجالسه الامام جعفر الصادق سليل الامام الحسين رضى الله عنهم ، فتنسأ أبو جعفر عن حكمة خلق الذباب فأجابه الامام جعفر : خلق الله الذباب لادلال الملوك واشعارهم أنهم عبيد .

ولقد دخل الشاعر أبو العتاهية على الخليفة هارون الرشيد وكان في مجلس غناء فقال الخليفة : اسمعنا شعرك يا أبا العتاهية فقال :

عش ما بدالك كم تراك تعيش
اتظن سهم الحاديات يطيش
عش كيف شئت لتأتينك وقفة
يومما وليس على جناحك ريش

فبكى الرشيد ، فلام جلساؤه أبا العتاهية فقال الرشيد : دعوه فقد وجدنا في غفلة فأراد أن يوقفنا منها .

ويقول سيدي الامام ابو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : العبودية جوهرة أظهر بها الربوبية . ويشرح ذلك سيدي ابن عجيبة رضى الله عنه فيقول : ان الربوبية تقتضى مربوباً موصوفاً بضد ما اتصف به ربه من الكمالات الالهية والنعوت القدسية ، فمما ظهرت أوصاف الربوبية التي هي الغنى والعزة والقدرة وغير ذلك من الكمالات الا في أضدادها من الفقر والذلة والضعف وغير ذلك ، فالفقر الحقيقي شامل لسائر الموجودات والغنى المطلق واجب لمن تجلى في الارض والسموات .

ولهذا طلب سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله عنه ان يعامله ربه باحسانه اذ الفضل منه سبحانه واليه .

ويقول أبوه العارف بالله سيدي الشيخ أحمد الطوانى الخليجي في استغفاره رحمه الله :

قبائح كنت فيها أسرى وطورا أسير
سررت منها زمانا وغمها مذكور
نسيتها ووعاها - كتابي المسطور
ماذا أقول لربي اذا بدا التحرير
يا رب أنت عفو وأنت رب قدير
وشأن من جل يغضى اذا أساء الحسير
ويستعيب عقابها كيلا يقال نظير

يارب انى حقير جدا وأنت الكبير
وأين ترب خسيس من ربه يا مجير
وما أريد احتجاجا عليك بل استجير
أجير عبيدك يا من سواه ليس يجير
ولى اليك شفيع يدر الظلام المنير
غوث الأنعام المرجى اذا السماء تمور
به توسلت فاجبر كسرى فانى كسير
وابسكب عليه التحايا ما فاض منه النور

ولينظر القارىء الكريم فى اللجوء أرائع الذى لجأ به مولانا رسول
الله صلى الله عليه وسلم الى ربه حين لم يستجب لدعوته أهل الطائف
واغروا به سفهاءهم وعبيدهم فضربوه بالمجارة حتى أدموا قدميه
خدعا ربه فى افتقار اليه واستنجا به وقال :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس :
يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى؟
الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب
غلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له
الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو
يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه « من اعطى الدعاء لم يحرم
الاجابة » كما يقول : من أذن له فى الدعاء منكم فقد فتحت له أبواب
الرحمة ، وما سئل الله شيئا أحب اليه من العفو والعافية » .

وفى ضوء الحديثين المتقدمين يقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى
رضى الله عنه فى حكمه النثرية : متى اطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه
يريد ان يعطيك . ويقول رضى الله عنه شعرا :

ففى افتقارى وتسالى ومد يدى
أقوى دليل على ان تقضى الأربا
لو لم تردنى لما ارجو وآمله
من فيض جودك ما علمتنى الطلب

ويقول رضى الله عنه : العارف لا يزول اضطرابه ولا يكون مع غير الله قراره ، ويفسر ذلك سيدى ابن عجيبة فيقول ، وأما وجه كونه لا يكون مع غير الله قراره فلان قلب العارف رحل الى الله من الكون بأسره ، فلم تبق له حاجة الى غيره ، فقراره انما هو شهود الذات الاقدس ، وسابق العناية لا يتركه يركن الى غير مولاه ، وما تولى الله أوليائه بمحبته حتى حفظهم من شهود غيره ، فكيف بالركون، فكيف بالسكون ؟ هيهات هيهات ، هذا لا يكون •

ويقول فى هذا المقام سيدى وشيخى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى :

الوذ بالله لا أبغى به بدلا
ومن يلوذ بباب الله يسعده
أخلى فؤادى له من كل شائبة
ان عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرى بغير الله متجها
والكل والجزء والأحشاء تبعده
إذا مددت يدي لله أسأله
مددت الى بمعنى فضله يسده

وكنتم أمزح معه وأقول ما رأيتم فى باب الاحتراس أبلغ من قولكم يا سيدى : مدت الى بمعنى فضله يسده ، وليت أهل البلاغة سمعوك فنقلوا كلامك هذا مثلا للاحتراس القوى الدقيق المتصل بعقيدة التوحيد والذى نفيت به التشبيه والتماثل فى براعة ، فكان رضى الله عنه يبتسم ويدعو لى •

اللهم اجعلنا فى افتقار دائم اليك حتى نغنى بافتقارنا اليك عن غيرك .
فان الافتقار اليك هو الغنى الحق (ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) •

نور البواطن

« ويتحول الاشرار من الظاهر الى الباطن ، فبعد أن كنت ترى الولي مشرقاً تراه قد انطفأ الى الحالة العادية حتى لتتأجى نفسك أين النور الذى كنت أراه ولا تدري أنه مع الله ، زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ومن ماثله فى الدرجات والمقامات » .

ذلك مما كتب سيدي وشيخي العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلواني رضى الله عنه لتلميذه الصالح المبارك الصديق الوفي السيد سالم جمعه حفظه الله ورعاه ، وهى سطور من نور ترينا ألا نقف فى الحكم على الناس عند الظواهر وتعلمنا أن قلوب بعض الأولياء تحجب أنوارها ولا تنبع على الجوارح وتبقى خفية لا يعلمها الا الله ، وقد يكشفها بما شاء لبعض خواصه فيقول بعضهم لبعض :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق
واشرح هواك فكلنا عشاق

ويقول سيدي وشيخي الشيخ على عقل طيب الله تراه الهاما فى وصف هؤلاء المحبين الكرام الذين كتموا حبهم بين الجوانح فلم يتعرف اليهم الا أمثالهم :

أحن على ذل وأهوى على مدى
وأسرى على علم بقلبي أواصله
وهل يدرك الآيات الا رجالها
وهل يعرف الوجدان الا مزاوله
وذو الوجد لا يغضى عن الحب لحظة
به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
شهدنا وشاهدنا وطابت نفوسنا
فهامت به أرواحنا اذ نسائله
أسامر ليلي خاليا بشهوده
وقلبي بنور الحق فاضت مناهله

أما عن زهد الخلق وترك أحوالهم استغناء بالله عنهم فيقول فيهم فيما نقلناه من الهامه الفورى رضى الله عنه :

تخل ولا تحفل بجنس ولا أنس
وعش فى هدى الرحمن تسعد بالأنس
وأقبل على مولاك بالقلب مخلصا
وأسلم وسلم واتجه طالب القدس
وخذ لك بالايمان أصدق وجهة
وطهر بها نفسا عن الغى والرجس
تجرد تجرد مولاك أكبر ناصر
وفوض له ما كان فى الغد والأمس
إذا قيل لى اطلب قلت ربي مطلبى
وان قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى

ويقول أيضا فى الهامه الفورى رضى الله عنه :

نحن فى عالم اليقين رجال
قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم
انما نحن فوق ذاك شريفا
فتح الباب ثم قال لجوه
فولجنا وبعدها قد وصلنا
أما سيدى القطب الكبير ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه فيصف حال الأولياء الأخفياء بقوله :

يقولون لى ما العلم ما السر ما الذى
هو الجوهر الغالى عن البحر خبرنا
فقلت لهم هذى مطالع نورنا
ومغربها فينا ومشرقها منا
تركنا البحار الزاخرات وراءنا
فمن أين يدري الناس أنى توجهنا

ويقول الامام الغزالي رضي الله عنه في كتاب الاحياء :

ان لله تعالى شربا يسقيه في الليل قلوب أحبائه ، فاذا شربوا طارت قلوبهم في الملكوت الأعلى حبا لله تعالى وشوقا اليه .

ويقول الامام القشيري رضي الله عنه في الرسالة :

« أول رتبة في القرب من طاعة الله والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته ، وأما العبد فهو التدلس بمخالفته والتجافي عن طاعته ، فأول البعد بعد تحقق التوفيق ، ثم بعد عن التحقيق ، بل البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق ، قال صلى الله عليه وسلم مخبرا عن الحق سبحانه : « ما تقرب الى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل ، حتى يحبنى وأحبه ، فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ، فبى يبصر وبى يسمع .

« فقرب العبد أولا قرب بايمانه وتصديقه ، ثم قرب باحسانه وتحقيقه . وقرب الحق سبحانه ما يخصه اليوم به من العرفان ، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك من وجوه اللطف والامتنان .

« ولا يكون قرب العبد من الحق الا ببعده عن الخلق ، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون .

« وقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة ، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التائيس للأولياء .

« ومن تحقق بقرب الحق سبحانه وتعالى فأقله دوام مراقبته اياه ، لأن عليه رقيب التقوى ثم رقيب الحفظ والوفاء ثم رقيب الحياء ، وأنشبدوا :

واخوان صدق قد سئمت حديثهم
وأمسكت عنهم ناظري ولساني
وما الزهد أسلى عنهم غير أننى
وجدتك مشهودا بكل مكان

ومن كلام الامام القشيري تدرك أن ما يدعيه أعداء التصوف على السادة الصوفية من القول بالحلول والاتحاد ، انما هي دعوى باطلة

أقامها هؤلاء الأعداء واستدلوا فيها الى شطحات لبعض الصوفية لم يقصدوا بها ظاهر الألفاظ وإنما يجب تأويلها تأويلاً يليق مع حسن اعتقادهم في الله تعالى وتغانيهم في حبه • ويقول سيدي أبو الحسين النوري رضي الله عنه في دفع تلك التهمة عن السادة الصوفية فيما ورد عنه في رسالة الامام القشيري رضي الله عنه ما نصه :

« أما القرب بالذات ، فتعالى الله الملك الحق عنه ، فانه متقدس عن الحدود والأقطار ، والنهاية والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به ، جلت صمديته عن قبول الوصل والفصل •

« فقرب هو في نعته محال ، وهو تداني الذوات •

« وقرب هو واجب في نعته ، وهو قرب العلم والرؤية •

« وقرب هو جائز في وصفه ، يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل باللفظ •

أقول ، وقرب الفضل باللفظ هذا هو ما عبر عنه الامام القشيري اجمالاً بقوله : وخصائص التأسيس للأولياء ، كما تقدم : وهو مقام في التصوف قال عنه الامام الغزالي رضي الله عنه « يضيق نطاق النطق عنه » فهو يذاق بالوجدان ويعجز عن وصفه اللسان ، كما قالوا :

لا تسئل وصف جهنم فهو سر
بسوى الذوق ماله افشاء

أو كما قال الامام الغزالي نفسه في ذلك المقام :

فكان ما كان مما لست أذكره
فطن خيرا ولا تسأل عن الخبر

أو كما قال سيدي الامام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه :
« أول منزل يطرؤه المحب للترقى منه الى العلا النفس ، فاذا اشتغل بسياستها ورياضتها الى أن انتهى الى معرفتها وتحققها أشرقت عليه أنوار المنزل الثاني وهو القلب ، فاذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه منه شيء أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح ، فاذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئاً فشيئاً

الى تمام نهاياته ، وهذه طريق العامة — وأما طريق الخاصة فهي طريق
مسلك تضمحل العقول في أقل القليل من شرحها .

وسبحان ربى الذى فضل العباد بعضهم على بعض (انظر كيف فضلنا
بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) ويقول الامام
القشيري : فالعباد (بتشديد الباء) فضل بعضهم على بعض ولكن في
زكاء أعمالهم ، والعارفون فضل بعضهم على بعض ولكن في صفاء
أحوالهم ، وزكاء الأعمال بالاخلاص ، وصفاء الأحوال بالاستخلاص ،
فقوم تفاضلوا بصدق القدم ، وقوم تفاضلوا بعلو الهمم ، والتفاضل في
الآخرة أكبر فالعباد تفاضلهم بالدرجات وأهل الحضرة تفاضلهم بلطائفهم
من الأنس بنسيم القرية بما لا يبين بصفة ولا عبارة ، ولا رمز يدركه
ولا إشارة ، منهم من يشهده ويراه مرة في الأسبوع ، ومنهم من لا يغيب
عن الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفانونون في نصيب
كل أحد .

ومن أروع الأمثلة التى ضربها الله لخواصه من الأولياء قصة أهل
الكهف ، وقد شرحها الله تعالى في سورة الكهف شرحا وافيا ، ويتعرض
الامام القشيري بإشارات المنيرة الكاشفة لمواقفهم فيقول في روعة
ظاهرة :

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا) قوله
تعالى (من آياتنا) يفيد أن قلب العادة من لدن الله غير مستنكر ويقال
الإشارة فيه ألا تتعجب من قصتهم ، فحالك — أى رسول الله صلى الله
عليه وسلم — أعجب في ذهابك إلينا في شطر من الليل حتى قاب قوسين
أو أدنى (قرب مكانة وتكريم) وهم قد بقوا في الكهف سنين .

وعند قوله تعالى (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) يقول
رضى الله عنه : أخذناهم عن احساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن
شواهدهم بما استغرقناهم فيه من حقائق ما كاشفناهم به من شهود
الأحدية ، واطلعناهم عليه من دوام نعت الصدية .

وعند قوله تعالى (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) لقاهم
أولا التبيين ثم رقاهم عن ذلك باليقين .

وعند قوله تعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله) .

يقول رضى الله عنه : كانوا في منسج من الكهف ولكن كان شمعا الشمس لا ينبسط عليهم مع هبوب الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تتقاصر وتتصاغر بالقياس الى أنوارهم ، ان نور الشمس ضياء يستضىء به الخلق ونور معارفهم أنوار يعرف بها الحق ، فهذا نور يظهر في الصورة ، وهذا نور يلوح في السريرة ، ونور الشمس يدرك الخلق وينورهم كانوا يعرفون الحق .

وفي قوله عز اسمه (ذلك من آيات الله) فيه دلالة على أن في الأمر شيئا بخلاف العادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء .

وعند قوله تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) يقول رضى الله عنه ، فالله يهدى قوما بالأدلة والبراهين ، وقوما بكشف اليقين ، فمعارف الأولين قضية الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم أصحاب عيان .

(ومن يضلل الله) أى من وسمه الله بسمة الحرمان ، فلا عرفان ، ولا علم ، ولا ايمان .

وعند قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) يقول رضى الله عنه : يقال كلب خطا مع أحبابه خطوات فالى يوم القيامة يقوم الصبيان (وكلبهم باسط ..) وهو قول الحق ، فهل ترى أن مسلما يصحب أوليائه من وقت شبابه الى وقت مشيبيه يرده يوم القيامة خائبا ؟ لأنه لا يفعل ذلك .

وعند قوله تعالى (وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) يقول رضى الله عنه : أيام الوصال عندهم قليلة وان كانت طويلة ، ولو كان الحال بالصد لكان الأمر بالعكس ،

وقد لبثوا طويلا ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ولم يكن لهم علم بتفصيل أحوالهم .

أقول وأتشد بعضهم في هذه المناسبة :

والله لو حلف العشاق أنهم
موتى من الحب ما ماتوا وما حنثوا
ترى المحبين صرعى في ديارهم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

وعند قوله تعالى (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) قال الامام القشيري رضى الله عنه : لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم الا خواص عبادته ، ومن كان تقريبا في الحال منهم ، لأن الله تعالى يستر أوليائه عن الأجانب ، فلا يعلمهم الا أهل الحقيقة ، فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب ، كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم .

وهذا الذى قاله يفسر لك ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام في آخر عبارته التى جاءت في صدر المقال : زهد الخلق وتركهم وترك أحوالهم فلا يعلمه الا الله ومن مثله في ترقى الدرجات والمقامات . وزهد الخلق وتركهم يكون بصرف القلب عن الاشتغال بهم أو الركون اليهم ، لأن الاشتغال بعيوبهم يصرفه عن الاشتغال بعيوب نفسه ، كما يصرفه عن ذكر ربه ، والركون اليهم يضعف توكله على الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيته . وشعار كل ولى (حسبى الله) وان استعان الولى بأحد من الناس فإنه يركن الى ربه في تسخير الناس باعتبارهم أدوات يحركها الله كيف يشاء .

وقد يكون اعتزال الخلق بالجسد والقلب معا ، كما اعتزل أهل الكهف قومهم الكافرين ، وقد حكى الله عنهم في اعتزالهم قلبا وقالبا فقال تعالى : (واذا اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) . ويقول الامام القشيري رضى الله عنه في ذلك : العزلة عن غير الله توجب الوصلة بالله ، بل لا تحصل الوصلة بالله الا بعد العزلة عن غير الله ، ويقال لما اعتزلوا ما عبد من دون الله آواهم الحق الى كنف رعايته ، ومهد لهم موى في

كفف عنايته ، ويقال من تبرأ من اختياره في احتياله ، وصدق رجوعه الى الله في أحواله ، ولم يستعن - بغير الله - من أشكاله وأمثاله آواه الى كنف اغضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهياً له محلاً يتقياً فيه في برد ظلاله ، بكمال اقباله •

وكذلك اعتزل سيدنا ابراهيم الخليل أهله عندما أصرّوا على الكفر وحكى الله عنه (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً) ومعنى ما تدعون أى ما تعبدون ، وادعوا ربى أى أعبدوه ، وكانت نتيجة ذلك الاعتزال ما حكاه الله تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً) ويقول الامام القشيري رضى الله عنه : لما أيس من أصله أنسه الله بما أكرمه من نسله ، فأنبثهم نباتاً حسناً ورزقهم النبوة ولسان الصدق بالذكر لهم على الدوام (بالصلاة عليه وعليهم في التشهد) فقال تعالى : (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً) •

أقول واعتزل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شبابه قومه حين سفهت نفوسهم بعبادة الأصنام ، وخلا في غار حراء بربه ، ينشد وصاله في أنس لا يعرف الوحشة ، وهمة لا تعرف الكلل ، وجهاد لا يشوبه الملل ، وعزم لا يعتوره الوهن ، وشوق متقد ، وحب يملأ الجوانح ، وذلك بتوفيق الهى ، واستعداد ربانى ، يشهد بهما قوله تعالى (فانك بأعيننا) وفي الميقات الذى أراده الله جاءه جبريل عليه السلام بأولى آيات الشفاء والرحمة والنور والحكمة (اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم) ولا عجب فهو صلى الله عليه وسلم صفوة الخالق ورسوله للخلائق ، اصطنعه لنفسه وأجرى على يديه رحمته للعالمين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين •

وان تعجب فاعجب لهذا الرسول الأكرم ، ينتقلب في الدنيا ويطرحها من قلبه ، ويمشى في الناس بنوره ، ويركن في كل أحواله الى ربه ويقول له حين رده أهل الطائف رداً غير كريم :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ،

الى بعيد يتجهمني ، أم الى عدو ملكته أمرى ان لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بالله » •

وأولياء الله وهم المتقون يناجيهم الله فى أسرارهم بعلوم شتى من كلماته التى لا تتفد ، ولئن كان سبحانه يكلم أنبياءه ورسله وحيا ، فإنه يخاطب الأولياء الهاما ، ولذلك يقول أحدهم حدث كذا فقيل لى ، أى ألهمنى ربى بسر خفى فى باطنه مستتر عن الناس ، وقد يكتمه الولى فيما بينه وبين ربه ، وقد يفصح عنه تعليما لغيره باذن ربه كما يقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه •

طال ليلى وحبيبي قال لى
لذ بجاهى انه أكرم جاء
وتعلق بى تجدد من رحمتى
ما تنساه وما لست تراه
قلت يا مولاي انى مذهب
ما احتيالى وفؤادى فى أساه
والخطايا حملتنى حملا
وجبال الوزر فوقى ما تراه
قال لا تخف منا اذا ما جئتنا
من أتانا قد شفى الله بلاه
واذا المؤمن قد يممنا
أدركته رحمتى حتى أراه

ويقول الامام القشيرى رضى الله عنه ان ما يخص الله به أوليائه من لطائف العلوم لا حصر له ، فان أعلم البشر ، وسيد العرب والعجم ومن شهد له الحق بخصائص العلم حين قال : (وعلمك ما لم تكن تعلم) يقال له (وقل رب زدنى علما) ليرجع الى ربه فى الاستزادة من العلم • وما يقذف الله فى قلوب أوليائه من العلوم والمعارف انما يزيدهم به اطمئنانا الى صحة سلوكهم الى الله تعالى واتصالهم به سبحانه على هدى الشرع

الشريف فلا تنازعهم نفوسهم الى الخروج عنه أو التواني في طلب الله
أو الغفلة عنه .

وفي هذا المقام يحكى السادة الصوفية أن تلميذا لسيدي سهل التستري
رضي الله عنه ، يقال له اسحق بن أحمد ، وكان من أبناء الدنيا في نشأته
فخرج من جميع ما كان له ثم تاب وصحب سهلا رحمه الله ، فقال يوما
لأستاذه سهل رضي الله عنه : يا أبا محمد ، ان نفسى هذه لا تترك الضجيج
والصراخ من خوف فوت القوت والقوام ، فقال له أستاذه : خذ ذلك
الحجر وسل ربك أن يصيره لك طعاما تأكله ، فقال له : ومن امامى في ذلك
حتى أفعله ؟ فقال الامام سهل : امامك ابراهيم عليه السلام حيث قال :

(رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن
قلبي) .

فالنفس لا تطمئن الا برؤية العين لأن من جبلتها الشك ، فقال سيدنا
ابراهيم عليه السلام : أرنى كيف تطمئن نفسى ، فأنى مؤمن بذلك ،
والنفس لا تطمئن الا برؤية العين . وكذلك الأولياء يظهر الله لهم الكرامات
تأديبا لنفوسهم وتهذيبا لها وزيادة لهم ، أما معجزات الأنبياء فان الله
يعطيها لهم : للاحتجاج بها في الدعوة الى الله والدلالة عليه والاقرار
بوحدانيته سبحانه .

والدليل على وقوع العلوم الدينية للأولياء أن بعض الأميين منهم
آتاهم الله من العلوم ما علموا به جهابذة علماء الشرع في أزمانهم ، كما
وقع بين سيدي على الخواص (وهو أمى) وبين سيدي عبد الوهاب
الشعرانى (وهو عالم وقته) ومن يطلع على كتاب درر الغواص على
فتاوى الخواص يرى ما يدهش الألباب ، ولا حرج على فضل الله تعالى .
وكذلك كان شيخنا الأكبر سيدي الحاج محمد أبو خليل أميا وتصاغر
العلماء في ساحته حين لمسوا بأنفسهم ما حباه الله به من فضل كبير وند
أدركت بحمد الله رجالا ممن رباهم فما وجدت نظراء لهم في هذا
الزمان لا في علمهم ولا في عظمهم ولا في الفتوحات الربانية التى تعلمنا
منها الشئ الكثير والتى نقلنا وننقل منه للسادة القراء ما يزدادون به
يقينا .

ويصف المرحوم الشيخ عبد الباري الشرقاوي وكان من علماء الأزهر
الأفاضل سيدي الشيخ أبا خليل وقد عاشه طويلا وانتفع من علمه
الدني :

انما الشيخ كالسما مقام
يحسب المرء أفقها منتهاها
فبراهما محدودة بحدود
لو أتاها لما رآها وتاما
ورأى فوقه السماء كما كانت
وبانت له حدود سواها
من ير الشيخ في علو مقام
وجلال وهيبة يلقيها
لم ير العارف الولي ولكن
كرة العالم العظيم رآها

فانظر رعاك الله كيف نفذ الشيخ الأمام بروحه ونوره وعلمه الى
رجل فاضل من العلماء المتخصصين في علوم الشرع حتى شبه الشيخ
بالسما مقام ، وحقا لقد سما الشيخ حتى كان السما وصفا حتى كان
الضياء .

واني أقرب للافهام ما يقع في القلوب من الهام الله بواقعة وقعت لي
في شرح الشباب وكنت أتصدر حلقة علم في مسجد قريتنا بأمر من شياخي
رحمه الله وكان الدرس يومئذ في خصائص مولانا رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقلت ان من خصائصه الشريفة أن الغمامة كانت تظله فتقيه
حرارة الشمس اكراما من الله تعالى ، وكان يجلس في الحلقة ضيف لي
من أهل العلم فاعترضني علانية وفي شيء من الحدة وقال : ليست هذه
خصوصية للنبي صلى الله عليه وسلم وانما هي عامة في سائر المرسلين ،
فأجبتته في هدوء اذا كان لديك الدليل على العمومية فهات الدليل ونحن
نسلم لك فسكت ، واذا بهامس لطيف يهمس في قلبي : قل له اذا كان تظليل
الغمامة عاما للمرسلين فلماذا حكى الله عن سيدنا موسى عليه السلام وهو من
الكبار أولى العزم فقال تعالى (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) فلو كان
مظلا بالغمامة ما تولى الى الظل ، وسرني هذا الخاطر الرحمانى كل

السرور وقد جاعنى ببركته صلى الله عليه وسلم ولكنى كنته حتى صلبنا
وخرجنا فألقيت به لضيقي سرا وصارحته بأنه من الهام الله ، وراعت أنه
فى ضيافتى فلم أشأ أن أخرج به بين الناس ، ولكنى أفهمت الناس بعد
ذلك ما كان •

وكذلك وقع لى وأنا فى الحرم النبوى الشريف أنى كنت أتكلم مع بعض
القوم فى موضوع التوسل به صلى الله عليه وسلم فقلت لبعض السامعين :
من انذى ينعم علينا قالوا ربنا سبحانه ، قلت هل ينعم أحد معه سبحانه
قالوا : لا حاشا وكلا ، قلت لهم فلماذا يقول الله تعالى فى قصة سيدنا زيد
ابن حارثة رضى الله عنه : (واذا تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه
أمسك عليك زوجك واتق الله) فسكتوا ، فقلت لهم ، لا يتنافى انعام الله
وانعام رسول الله لأن انعام الله هو انعام المسبب سبحانه وهو فى معرض
التوحيد وانعام رسول الله هو انعام السبب الذى أقامه الله تعالى بحكمته
وهو فى معرض الأسباب ، فالله تعالى أنعم قضاء وقدر والرسول صلى
الله عليه وسلم أنعم سببا تنفيذا للقضاء ، فأسلم زيد على يده واعتق من
الرق على يده وتزوج من السيدة زينب القرشية على يده صلوات الله
وسلامه عليه ، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى ، فالتوسل به صلى الله عليه
وسلم هو استدرار رحمة الله تعالى وقد قال مخاطبا له (وما أرسلناك الا
رحمة للعالمين) فهو صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة ، وتكلمت طويلا
بالحام من الله تعالى فى هذا المقام حتى قال قائلهم « عجيب » ، والحمد لله
الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله •

واذا كنا ونحن لا نساوى شيئا بالقياس الى السلف الصالح يلهمنا
الله تعالى فى قلوبنا ما لا عهد لنا به فكيف بهؤلاء السلف الذين أخلصوا
دينهم لله ، وطرحوا الدنيا وزينتها عن قلوبهم ، وعاشوا للآخرة التى
خلقوا لها وألزمهم الله كلمة التقوى فكانوا أحق بها وأهلها ، ورحم
الله من قال :

واذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأوه بالأبصار

اللهم اجمع قلوبنا على محبتك ، واجعلنا بفضلك من أهل صفوتك ،
واكتب لنا مع عبادك الصالحين عزتك التى قلت فيها (والله العزة ورسوله
وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) •

الآرزاء مقدرة

« قال تعالى : (له مقاليد السموات والارض يبيسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شئ عليم) ان سرت الى أقصى الارض أو أدناها فالمقدور معك حيث تكون » .

جاءت تلك العبارة في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبدالسلام الحلواني طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة حفظه الله ورعاه وهي كما ترى عبارة تستند الى كتاب الله الكريم في علاج مسألة من مسائل المجتمع الهامة وهي مسألة الرزق وقد صارت شغل الناس انشاغل حتى طغت أو كادت تطفئ على ماعداها من المسائل حتى كأنهم خلقوا لها ولم يكلفوا شيئاً غيرها .

وكتاب الله الكريم ملئ بالآيات التي تكلمت عن الرزق وتأتى في قممها الآية الشريفة (وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) وهي وحدها كافية شافية في تسكين شائنة نفوس البشر من جهة أرزاقهم لو كانوا يفتقون ، غير ان الحرص على الدنيا وزينتها وفتنتها والوقوف عند حدها حجت أكثر البصائر فلم تر الحقيقة التي وعظمتنا بها (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

وقضية الرزق وان بدت في ظاهرها انها قضية دنيوية في حياة المؤمن الا انها في الواقع هي قضية دينه ودنياه ، فهي لازمة من لوازم معاشه وخادمة في طريق معاده . والموفق من المؤمنين هو الذي يكسب عيشه من حلال في اطمئنان بوعده ربه في تقدير رزقه ولا تصرغه دنيا المال عن اخراه فيغفل في طلب الرزق عن الرازق فيخسر اخراه ويندم يوم القيامة حيث لا ينفع الندم .

ومن عجيب رحمة الله بعباده أن يقسم لهم أرزاقهم مقدرة عنده قبل أن يخلقوا فيقول تعالى (وفي السماء رزقكم وما توعدون . فو رب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) ثم يبين لهم أن في الارزاق فتنة يجب عليهم ان يحذروها وأن تكون لهم عناية أكبر بأمر

الآخرة فيقول تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) ، فزينة أهل الغفلة في الدنيا بالمال والبنين وزينة أهل التقوى بالأعمال الصالحة واليقيين .

وانظر كيف ضرب لنا الامثال بمن كانوا قبلنا ، فقال مثلا لبنى اسرائيل (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تنطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحل عليه غضبي فقد هوى) والطيبات ما كانت حلالا ، وعند السادة الصوفية الطيب من الرزق ما يكون على مشاهدة الرزاق سبحانه .

وقوله تعالى : (ولا تنطغوا فيه) أى بتجاوز الحلال الى الحرام وعدم شكر الله ومنع حق الله في الاموال وانفاقها في معاصيه وعند السادة الصوفية لا تأكلوا منه على الغفلة عن ربكم والنسيان .

ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : اختلف الناس في كل شيء ، الا في الرزق والاجل ، اجمعوا على انه لا رازق الا الله ولا مميت الا الله . ويقول العارفون : اذا شهد العبد هذا بيقين ايمانه اطمأن قلبه فاستوى عنده الرزق والاجل ، فعلم يقينا انه لا بد من رزق ولا بد من اجل ، فلم يكن عليه الا مراعاة حكم الله ، وشهد من شهادته ان خلقا لا يقدر ان يزيد في عمره ساعة ولا ينقص منه ساعة وكذلك ما كان من رزقه لا يعطى لاحد سواء ولا يستطيع أحد ان يحول بينه وبينه .

والمال في ذاته خير . ويأتى الشر من قبله اذا افتنن المؤمن به فانفقته في شهواته وغفل بالانغماس في الشهوات عن آخرته ، أما اذا استعمله المؤمن في مرضاة ربه وكان كسبه من حلال فانه وسيلة من وسائل السعادة في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال صلوات الله وسلامه عليه « نعم المال الصالح للرجل الصالح » كما روى أحمد والطبرانى في الكبير والوسط بسند صحيح : وقال تعالى : (كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين) فعبر عن المال بالخير ، كما قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا) .

ويقول سيدى الامام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه في كتاب

المنح السنية أن سيدي الامام أبا الحسن الساذلي رضى الله عنه كان يقول لأصحابه : كلوا من أطيب الطعام . واشربوا من الذ الشراب ، وناموا على أوطأ الفراش ، والبسوا البين الثياب : فان احذكم اذا فعل ذلك وقال (الحمد لله) يستجيب كل عضو فيه الشكر ، بخلاف ما اذا أكل الشعير بالملح والبس العباءة ، ونام على الارض ، وشرب الماء المالح الساخن ، وقال (الحمد لله) فانه يقول ذلك وعنده اشتمزاز وبعض سخط على المقدور ، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشتمزاز والسخط الذي عنده يرجح في الاثم على من تمتع في الدنيا بيقين ، فان المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الحق سبحانه وتعالى ، ومن كان عنده اشتمزاز وسخط على مقدور الله فقد فعل ما حرمة الله تعالى .

ومن ذلك نعلم أن ما يطلب من المؤمن الغنى الا تنسيه النعمة ربه الذي انعم بها عليه . ولذلك يقول سيدي الامام الشعراني رضى الله

وبما انعم الله تبارك وتعالى به على عدم اشتغالي بالنعمة عن النعم سبحانه وتعالى ، وذلك من أكبر نعم الله عز وجل ، فقل من لا تشغله النعمة عن النعم : ويستطرد رضى الله عنه قائلا : والمعين لى على ذلك شهودى عدم ملكى لما خولنى الله تعالى فيه من الاطعمة والملابس انما انا عبد أكل من مال سيدي واسكن في داره .

ويقول سيدي الامام عبد القادر الجيلاني رضى الله عنه : احذر ان تشغل بما أعطاك الله من المال عن طاعته فيحجبك بذلك عنه دنيا واخرى ، وربما سلبك ذلك المال وافقرك وغيرك عقوبة لك ، واعلم أنك ان اشتغلت بطاعة الله عن ذلك المال فهو موهبة من الله تعالى لك وليس هو من المال المذموم ، فيكون المال خادمك وانت خادم المولى جل وعلا فتعيش في الدنيا مدلا وفي الآخرة مكرما .

ويقول سيدي وشيخي الشيخ عني عقل رضى الله عنه في الهامة الفوري الذي نقلناه عنه :

كل شيء يزول عند الممات غير حب الاله والصدقات
فاذا مت لم يكن غير ماقد منه صالحا قبيل الوفاة
تترك المال للوريث ولكن تؤنس القبر تركة الصالحات

والرضا بالرزق المقسوم من آداب السادة الصوفية ، ولذلك جاء في وصية سيدي على الخواص رضى الله عنه :

اياك ان تشره عينك فتنهني ما ليس لك ان يكون لك ، فانه لا يخلو اما ان يكون قسمه الله لك أو لم يقسمه ، فان كان قسمه لك فهو صائر اليك لا محالة اما بمشيئك اليه أو بمجيئه هو اليك من غير مشي ، وأما ان لم يكن قسمه الله لك فلا يمكنك الوصول اليه بحيلة من الحيل ، فاشتغل عن ذلك باحسان الادب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك في وقتك الحاضر ، فقد نصحتك وعليك ببذل طوقك وجهدك في طاعته معتذرا مفتقرا خائشاً مطرقاً غير ناظر الى عوض من دنيا أو أخرى ، فانك عبد ، والعبد لا يستحق على خدمة سيده شيئاً لانها من حقوق السيد .

وحين يدعو السادة الصوفية الى الزهد في الدنيا يظن الناس خطأ انهم يدعون الى الفقر وعدم امتلاك المال ، وهو ظن خطأ وليس من الصواب في شيء ، فان السادة الصوفية يقولون بصريح العبارة : ليس الزهد ان تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك بل الزهد ان تتركها من قلبك وهي في يدك . ومن ذلك تدرك انه قد يكون الغنى زاهداً بخروج الدنيا من قلبه وقد يكون الفقير غير زاهد لاستشرافه الى الدنيا وتعلق قلبه بها .

ولذلك يقول سيدي الامام الشعراني رضى الله عنه : اذا تنظف القلب من الشركاء والانداد من الاهل والمال والولد والملاذات والنشوهات والولايات والرياسات ولم يبق في القلب ارادة ولا أمنية فحينئذ لا يضر القلب ملاحظة الأسباب من المال والولد والاهل والاصحاب لان القلب حينئذ صار كالاناء المنكسر الذي لا يمسك ما يهكث فيه لانه قد انكسر بفعل الله عز وجل ، فكلما اجتمعت فيه ارادة بشيء غير الله تعالى كسرهما فعل الله فلم يتركها تصل الى القلب بل تكون خارجة والله تعالى لا يغار من شيء يكون خارج القلب بل يعطيه للعبد على وجه الكرامة له بين عباده فيطعم منه الواردين والنقاطين ولا حساب عليه في الآخرة ان شاء الله تعالى ، قال الله عز وجل في مثل ذلك (هذا عطاؤنا فادنن أو أمسك بغير حساب) فافهم ذلك واعمل على التخلص به .

ثم ان السادة الصوفية يرون ان الله تعالى يغنى عباده بالمال ويغنيهم كذلك بالخال ، وعندهم ان الغنى الحقيقى هو غنى الحال ومن أقوالهم فى ذلك : اغناء الله تعالى لعباده على قسمين ، منهم من يغنيهم بتنمية أموالهم ، ومنهم من يغنيهم بتصفية أحوالهم وهذا هو الغنى الحقيقى .

وهم يقولون أيضا ان صاحب الحال يجود على صاحب المال ، وصاحب المال عيال على صاحب الحال ، وصاحب المال يشفق وصاحب الحال ينفق ويتخلق مع الخلق بالهمة ، والخلق أحوج الى همة صاحب الحال منهم الى نعمة صاحب المال .

وعند تفسيره لاسمه تعالى « المعز » يقول سيدى الامام القشيرى رضى الله عنه :

اعزاه تعالى للعبد يكون فى الدنيا والاخرة ، فأما فى الدنيا فيكون بالمال والحال ، فالمال لتجميل الظواهر ، والحال لتزيين السرائر ، والمال يحصل به الاستغناء عن الامثال والاشكال ، والحال يحصل بها انتقار الى من لم يزل ويزال ، فالاعزاز بالمال فيما بين الخلق ، والاعزاز بالخال على باب الحق .

ويضيف رضى الله عنه قائلا فى روعة :

واعلم ان الله سبحانه يعز الزاهدين بعزوف نفوسهم عن الدنيا ، ويعز العابدين بسلامة نفوسهم عن الرغائب والمنى ، ويعز أصحاب العبادات بسلامتهم عن اتباع الهوى ، ويعز المريدين بزهادتهم فى صحبة الورى وانقطاعهم الى باب المولى ، ويعز العارفين بتأهيلهم لمقامات النجوى ، ويعز المحبين بالكشف واللقا ، والفنا عن كل ما هو غير وسوى ، ويعز الموحدين بشهود جلال من له البقا والبها .

ومن طرائف السادة الصوفية قولهم : ان الله تعالى خص الاغنياء بوجود الارزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق ، وقد حكوا ان رجلا قال لحاتم الاصم : من أين تأكل ، فقال : من خزائنه ، فقال الرجل : يلقى عليك الرزق من السماء ؟ فقال : لو لم تكن الارض له لكان يلقى على الخبز من السماء ، فقال الرجل : انتم تقولون الكلام ، فقال : انه لم

ينزل من السماء الا الكلام ، فقال : انا لا أقوى على مجادلتك ، فقال
لان الباطل لا يقوى على الحق .

ويتميز السادة الصوفية بقوة الثقة في الله وحسن التوكل عليه تعالى
في أرزاقهم وفي تدبير كل أمورهم لأن المقدور معهم حيث كانوا كما قال
سيدي الشيخ عبد السلام عفا الله عنه ، ويقول سيدي بشر الحافي
انه رأى أمير المؤمنين الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في منامه
فقال له : عظمي يا أمير المؤمنين فقال له : ما أحسن عطف الاغنياء على
الفقراء طلبا للثواب ، واحسن منه تيه الفقراء على الاغنياء ثقة بالله ،
قال سيدي بشر فقلت له : زدني يا أمير المؤمنين ، فقال له :

قد كنت ميتا فصرت حيا وعن قريب تصير ميتا
عز بدار الفناء بيت فابن بدار البقاء بيتا

وما أحلى ما يقول السادة الصوفية : كن كما كنت في بطن أمك مدبرا
(بفتح الباء المشددة) غير مدبر (بكسر الباء المشددة) مرزوقا من
حيث لا تحتسب ، وهم يقولون : ان القلوب كانت مفترقة في الدنيا
فقبضها الله تعالى عنها بقوله (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن
اتقى) فلما تعلقت القلوب بالآخرة قطعها الله سبحانه عنها بقوله
(والله خير وأبقى) .

ويقول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضى الله عنه في كتاب التنوير :
للزاهد في الدنيا علامتان ، علامة في فقدائها وعلامة في وجودها ،
فالعلامة في وجودها الايثار منها ، والعلامة آلتى في فقدائها وجود الراحة
منها ، فالايثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة منها شكر لنعمة
الفقدان . ويقول رضى الله عنه أيضا : ينبغي لك أيها العبد الا تأسى
على فقد شيء وألا تركز الى وجود شيء ، فان من وجد شيئا فركن
اليه ، أو فقد شيئا فحزن عليه ، فقد أثبت عبوديته لذلك الشيء الذي
أفرحه وجوده وأحزنه فقداه ، ويضيف رضى الله عنه قائلا : ليقبل ما تفرح
به يقبل ما تحزن عليه . وجاء في حكمه : عنايته فيك لا لشيء منك ، واين
كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته ، لم يكن في أزله اخلاص
أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك الا محض الافصال وعظيم
النوال .

وفى التعفف ورفع الهممة عن الخلق الى الخالق يقول السادة الصوفية:
ربما استحيا العارف ان يرفع صاحبه الى مولاه (أى استنادا الى علمه
بحاله كما قال سيدنا ابراهيم عليه السلام : علمه بحالى يغنى عن سؤالى :
ويكون ذلك الحياء من العارفين فى بعض الاحيان ولكنهم يسألون الله
فى احيان اخرى اظهارا للعبودية وامثالاً للربوبية) فكيف لا يستحى
ان يرفعها الى خليفته •

ومن شعر سيدى ابن عطاء الله فى ذلك قوله رضى الله عنه :

الله يعلم اننى ذو هممة تأبى الدنيا عفة وتظرفا
لم لأصون عن الورى ديباجتى وأريهم عز الملوك وأشرفا
أأريهموا انى الفقير اليهمو وجميعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من حقه هذا لعمري ان فعلت هو الجفا
شكوى الضعيف الى ضعيف مثله عجز اقام بحامله على شفا
فاسترزق الله الذى احسانه عم البرية منة وتلطفا
والجأ اليه تجده فيما ترتجى لا تعد عن أبوابه متحرفا

وكسب الارزاق من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا بد
من السعى فى تحصيل المعاش (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)
وخير ما أكل المرء من كسب يده ، وقد تاجر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ورعى الغنم وكذلك كسب سادتنا الانبياء والمرسلون أرزاقهم
بجهودهم ، ويقول المرحوم شوقى أمير الشعراء فى ذلك :

من أحسن الامثال فيما أحسب الخبز لا يعطى ولكن يكسب
موسى الكليم استؤجر استئجارا وكان عيسى فى الصبا نجارا

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم صفوة هذه
الامة يضربون فى الارض للتجارة ، كما كانوا يزرعون ، وانفقوا الاموال
الطائلة على الدعوة الاسلامية ولم يقفوا فى انفاقهم عند حد الزكاة
المفروضة بل تجاوزوها فقدّموا لانفسهم خيرا وبراً ، وما يزال سخاء
سيدنا عثمان بن عفان مضرب الامثال الى اليوم رضى الله عنه وعن
سلفنا الصالح اجمعين •

ومن السادة الصوفية العاملين من نشطت تجارته وربحت أرباحها طائلة وكانت عوناً للفقراء والمحتاجين ، وإذا نظرت في نفقة سيدي عبد الله بن المبارك بهرك ما قدمت يداه في سبيل الله عز وجل حتى قال القائل :

إذا سار عبد الله عن مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها
إذا ذكر الاخبار في كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت نهارها

وعندما يدعو السادة الصوفية الى اسقاط التدبير فانهم لا يقصدون بذلك ترك الأسباب وإنما يقصدون به حصول الراحة النفسية التي تمكن المؤمن من ترك الشواغل التي تحول بينه وبين السعي لآخرته : فيعيش بهذه الراحة مطمئناً الى تدبير الله تعالى ويطرق أسباب الرزق المشروعة موافقاً لمراد الله تعالى ومخالفاً لحظوظ نفسه ، فإذا اتسع رزقه رد الفضل في سعته الى فضل الله ، واستعمله في حقوق الله ولم يستعمله في حظوظ نفسه ، وإذا ضاق رزقه فيرد الامر الى تقدير الله لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وها هو ذا سيدي ابن عطاء الله الذي تكلم كثيرا في اسقاط التدبير يقول في صراحة لا خفاء فيها : فلا بد لك من الاسباب وجودا ولا بد من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها تعالى بحكمته ولا تستند اليها لعلك بأحدثته . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، كما أنه كان يقول : كنت أرى الشاب فيعجبني منظره فإذا قيل لي لا حرفة له سقط من عيني . وكان سيدي ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه يعمل أجيراً في البساتين وفي الحصاد ويأكل بعرق جبينه ، وكان يقول : عليك بعمل الابطال ، الكسب من الحلال والنفقة على العيال . وكان كبار فقهاء الامة يتاجرون ويكسبون حلالاً من تجارتهم كما فعل الامام أبو حنيفة ومالك رضى الله عنهما ، وكان لهم عناية لمظاهرم صيانة لمرآكرهم الاجتماعية بين الناس ، وترفعوا عن الاحتياج اليهم ، وكانوا لا يسألون الناس عن تعليمهم أجراً وكان أجرهم على الله ، وقد قالوا لاملنا مالك رضى الله عنه : انك تعيش عيشة امراء ولا تعيش عيشة علماء :

فاحتج عليهم بقوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) •

وإذا كان بعض سادتنا الصحابة قد تقشف فقد كان ذلك لضرورة حين قلت أموالهم وعظمت أحوالهم والله تعالى يقول (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) وفي الآية تطيب لنفوس المعسرين بقوله تعالى (سيجعل الله بعد عسر يسرا) • وقد نظرت مرة الى نوافذ غرفتي الستائر محيطة بها وأخذت ألوم نفسي على تركيب تلك الستائر وما فيها من اسراف ، فإذا بخاطر ينقدح في قلبي قائلا (لتركبوها وزينة) اشارة الى أن الستائر زينة مباحة شرعا •

وفي هذه المناسبة اذكر واقعة طريفة بين الصحابين الجليلين سيدي أبي أيوب الانصاري وسيدي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، فقد دعا سيدنا عبد الله سيدنا أبا أيوب الى طعام، فلما دخل الدار رأى ستائر على المنافذ ، ولم يكن للسادة الصحابة عهد بالستائر الا بستائر الكعبة المشرفة ، فقال سيدي أبو أيوب : ما هذا يا ابن عمر ؟ أكعبة في بيتك ؟ أنتخذ شيئا لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سيدي ابن عمر : شئ غلبنا عليه النساء ، فقال سيدي أبو أيوب : أقول لك لم يكن على عهد رسول الله وتقول غلبنا عليه النساء والله لا طعمت لك طعاما •

فانظر رعاك الله كيف حرص السادة الصحابة من ورعهم على ترك المباح خوف الوقوع في المشبوه ، فلا أقل من أن نترك المشبوه خوف الوقوع في الحرام •

اللهم ارزقنا حلالا طيبا ترضاه ، ووفقنا في حسن استعماله حتى ترى علينا اثر نعمتك من السرور والشكر وصلاح الحال والمآل فانك قلت وقولك الحق (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) •

حسبنا الله

« وقد الله ، ولا تسأل عن أحد ، وقد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، فإله لك مهما كان الأمر » .

جاءت تلك الكلمات المشرقة في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني ، نور الله ضريحه ، لتلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه ، زاده الله من فضله ، وهي تكشف لنا عن القطب الذي يدور عليه التصوف كله ، فانه يدور على الغنى بالله ، والاستغناء عن سواه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

وذلك التوجيه الذي يوجهنا اليه سيدي الشيخ عبد السلام هو نهاية الشوط في التربية الصوفية ، وهو يرفعنا به الى مقام الخواص وهم الواصلون الى الله تعالى ، وليس بينك وبين ربك مسافة تقطعها للوصول اليه ، وانما هو جهاد نفسك حتى يزول الحجاب بينها وبين الله فتراه أقرب اليها من كل قريب وأحب اليها من كل حبيب ، كما ترى بيده وخدم العطاء والمنع والضرر والنفع ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .
ولذلك يقول سيدي ابن عطاء الله السكندري ، رضى الله عنه في مناجاته :

« الهى ، هذا ذلى ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول اليك ، وبك استدل عليك ، فاهدنى بنورك اليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك ،

« الهى ، اغنى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختياري ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى ،

الهى ، بك أستنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا تكلنى ، وإياك أسأل فلا تخيبنى ، وفي فضلك أرغب فلا تحرمنى ، ولجنايك أنتسب فلا تبعدنى ، وببابك أقف فلا تطردنى .

« أنت الذى أشرقت الأنوار فى قلوب أوليائك حتى عرفوك ووجدوك ، وأنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ، ولم

يلجأوا الى غيرك ، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذى هديتهم حتى استبانتم لهم المعالم •

ماذا وجد من فقدك ؟ وما الذى فقد من وجدك ؟ لقد خسر من بغى عنك متحولاً ، وقد خاب من رضى دونك بدلاً ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الاحسان ، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان •
وينصحنا رضى الله عنه فيقول :

« تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلك يمدك بعزته ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ، كيف يشرق قاب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ ويرينا سيدى وشيخى الشيخ على عقل أن محبة الله هى معراج الوصول اليه سبحانه وتعالى ، فيقول رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

الحب ان ملك النفوس أعزها
والعاشقون بربهم علماء
والأصل فى الدنيا المحبة والهدى
لولا الهدى لم تخلق الأشياء
فاذا اتقينا الله جل جلاله
قضيت حوائجنا وسال الماء
من يصدقوا فازوا ومن سؤروا علوا
ولهم أضاعت فى الدجى الزهراء
من لم يذوقوا ذكر خلاق السما
هم والبهائم فى المقام سواء
بل ربما فطن البهيم لربه
والغافلون عن الهدى بلهاء
كونوا على هدى الطريق يعزكم
رب الورى هذا هو الاهداء
ليس العطاء المال عند أولى النهى
العلم عند الموقنين عطاء

وقد وقف رضى الله عنه نفسه على محبة ربه ، فلم يحفل باناس فهو
يقول الهاما لوقتته من عطاء الله تعالى لأوليائه :

أنا صب ثابت القدم	مستهام القلب من قدم
يجتلىنى الحب فى سهرى	ونجوم الليل من خدمى
أملنى فى الله يقبلنى	فسوى الرحمن لم أرم
لم يثرنى الناس فى كلم	انما الله مدى كلمى
أنا من حبى لحضرتة	تارك الناس كلهم
أنا من حبى لحضرتة	لم أفق من لذة النعم
لم أزل فى حى حضرتة	مرتعا للعالم والحكم
وفؤادى من هدايته	يرتوى من مورد الكرم
وبغلبى من محبته	همة من أعظم الهمم
هاجنى وجدى وبى حرت	لم تكن من شدة الضرم
بل هى الأنوار يقذفها	فسرت فى مهجتى ودمى

وقد طالب الله المؤمنين أن يقيمو الدليل على محبته تعالى بمتابعة
من أخذوا عنه محبة الله تعالى والاستغناء به عن غيره وهو مولانا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى
يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) كما بين لنا سبحانه
أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هى طاعة الله (من يطع الرسول
فقد أطاع الله) كما بين أن طاعته صلى الله عليه وسلم هى سبيل الاهتداء
(وان تطيعوه تهتدوا) وان مخالفته صلى الله عليه وسلم هى نذير الفتنة
والعذاب الأليم (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو
يصيبهم عذاب أليم) •

وعلى نور تلك الآيات البينات تأسى الصحابة الكرام بأقوال مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله ففازوا فوزا عظيما
(ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) ومن ثم ألحقهم الله
بالمكرام البررة (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رضيقا) •

ويقول الامام سهل بن عبد الله رضى الله عنه :

أصول مذهبنا (يقصد الصوفية) ثلاثة : (١) الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم (٢) الأكل من الحلال (٣) وإخلاص النية في جميع الأعمال •

وقال سيدي أبو عثمان الحيري رضى الله عنه : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، ويروى السادة الصوفية الحديث الشريف « من أحب سنتي فقد أحبني ، ومن أحبني كان معي في الجنة » •

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه : اعلم أن بركات السنة توصل العبد الى حقائق القربة وتجعله أهلاً لخصائص الرأفة •

ويقول شيخه الامام أبو علي الدقاق رضى الله عنه : من استهان بأدب من آداب الاسلام عوقب بحرمان السنة ، ومن ترك سنة عوقب بحرمان الفريضة ، ومن استهان بالفرائض قبيض الله له مبتدعاً يذكر عنده باطلاً فيوقع في قلبه شبهة •

ويحكى السادة الصوفية أن الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال : كنت يوماً مع جماعة يتجردون ويدخلون الحمام ، فاستعملت خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بمئزر » ولم أتجرد ، فرأيت تلك الليلة في المنام قائلاً يقول لى : أبشر يا أحمد فان الله قد غفر لك باستعمال السنة فقلت من أنت فقال جبريل ، وقد جعلك الله اماماً يقتدى بك • وحكوا عن بعضهم أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت يا رسول الله اشفع لى ، قال : قد شفعت لك ، فقلت : متى ؟ قال : اليوم الذى أحبيت فيه سنة من سنتى وقد أميتت ••

وفى تفسير قوله تعالى (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) يقول السادة الصوفية أن الحكمة هى السنة • وفى تفسير قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) يقولون ان العمل الصالح هو الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم • وفى مناسبة تلك الآية الكريمة حكى لى المرحوم والذى أوسع الله له فى رضوانه أنه حين كان بمكة المكرمة حاجاً (من نحو ثلاثين سنة)

رأى في المنام أن تلك الآية تنلى عليه فقام من نومه مسرورا ومستبشرا بأداء حجه وكرم ربه ، ثم نسى الآية وأخذ يفكر طويلا في تذكرها فلم يستطع أن يتذكرها فأسف غاية الأسف لنسيانها ثم دخل المسجد الحرام وجلس قريبا من الكعبة المشرفة متطلعا إليها ، فإذا بقارىء يجاوره في مجلسه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقرأ على مسمع سيدي الوالد رحمه الله (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا...) فكان سروره بتذكر الآية بالغا للغاية واعتبر ذلك فضلا جديدا من الله عليه ، ولحرصه على دوام تذكرها ، سأل القارىء بعد أن فرغ من قراءته عن سورتها فقال له : هي في سورة فاطر .

وترشدنا الآية الكريمة الى طلب العزة ممن يملكها وحده سبحانه ، بتوحيد الله وطاعته واطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم اذ لا عزة الا عزة الله ، ولا هدى الا هداة . ألا ترى أنه تعالى علمنا في فاتحة الكتاب أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم) ويقول الامام القشيري رضى الله عنه في معناها : مل بقلوبنا اليك ، وأقم هممنا بين يديك ، وكن دليلنا منك عليك ، ويضيف رحمه الله قائلا : وكما يهديهم اليه بحسن التعريف ، يهديهم الى محاسن الأخلاق ومعالي الأمور بحسن التشريف ، قال سبحانه (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

وفي تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) يقول الامام القشيري رضى الله عنه معناه : منور السموات والأرض ، وقيل الهادى لأهل السموات والأرض ، وقيل سمى النور لأن منه النور ، فإذا كان بمعنى المنور فإنما هو منور الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنور القلوب بفنون الدلائل وصنوف الحجج والملاطفات ، ومنور الأبدان بآثار العبادات ، فالطاعات زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والتأبيد بالموافقات نور انظواهر ، والتوحيد بالمواصلات نور السرائر ، وان الله سبحانه يزيد قلب العبد نورا بنور البرهان ثم يمهده بحسن البيان ، قال سبحانه (نور على نور يهدي الله لنوره من ينياء) .

وقد قيل لبعض الصوفية : سل حاجتك ، فقال : من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن أن يكون لغير الله عليه منة ، وقيل لبعضهم : ألك حاجة ؟ فقال : لا حاجة لى الى من لا يعلم حاجتى . وفي مناسبة اسمه

تعالى « ذو الجلال والاکرام » يقول الامام القشيري رضى الله عنه :
 قيل الاجلال أن ترى ما دونه بعيد الاقلال ، أما الاكرام فقريب من معنى
 الانعام الا أنه أخص لأنه ينعم على من لا يقال أكرمه ولكن لا يكرم الا
 من يقال أنعم عليه ، أما ترى كيف كرم موسى عليه السلام حيث سلمته
 اليه أمه كيف رباه في حجر عدوه وكيف صرف عنه كيدده ، أسلمته الى البحر
 متوكلة على الله بالغداة (صباحا) فردده اليها قبل الظهر ، واذا سلمت
 اليه ولدها فرباه في حجر عدوه وصرف عنه كيدده ، فمن سلم اليه قلبه
 حفظه كما في الخبر : القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن ، أى بين
 نعمتين من نعمه ، ترى أنه يضيعه ولا يحفظه ، حاشا لله •

ولما كان للشيخوخة الصوفية مدخل في تربية قلوب المريدين في سلوكهم
 الى الله تعالى ، قال السادة الصوفية أن بر المريدين لشيخوخهم يجب أن
 يكون أكثر من برهم بوالديهم ، وعللوا ذلك بأن الأب يحمى ولده عن آفات
 الدنيا والشيخ يحمى تلميذه عن آفات الآخرة ، والأب يربى ولده بنعمته
 والشيخ يربى تلميذه بهمته • كما أنهم يقولون : من حفظ حق أستاذه
 وشيخه لا يكافأ في حياة الشيخ لئلا يسقط تعظيم الشيخ من قلبه ،
 ومن لم يحفظ حرمة الشيخ لا يعاقب في حياة الشيخ لأن لهم بهم رحمة
 وشفقة فتدخلهم الشفقة عليهم ، بل ينتقم الله منهم ويكافئهم بعد موت
 شيخوخهم ونعوذ بالله من سوء الخاتمة •

ومحبة العبد لربه تقتضى منه لزوم طاعته والانتهاز بأمره والانتهاز
 بنهييه ، كما تقتضى من العبد تعظيمه لربه وهيبته منه ، وكلما كان أكثر
 طاعة له وأشد تعظيما كان أكثر محبة ، ومن كان عاصيا لأمره ومخالفا
 له كان بعيدا من محبته ، وتقتضى محبة المؤمن لربه ايثاره سبحانه على
 كل ما سواه ، ومن ثم لا يترك في مرضاة ربه مجهودا الا بذله ولا ممكنا
 الا استعمله ، وأنشدوا في ذلك :

لئن بقيت في العين منى قطرة
 فأنى اذن في العياشقين دخيل

ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه في الهامه الفورى
 الذى نقلناه عنه :

وعيب على ذى الحب أن يآلف الكرى
 وهل نام من في قلبه كمن الجمر

لقد دار في الحب من كل جانب
الى أن تساوى عندي الليل والفجر

كما يقول رضى الله عنه :

أنا قد خلوت عن الورى وجعلت حبي فيك وحدك
وجعلت ذكرك غاييتى وتبعت بالايمان جندك
وسهرت ليلى بالهدى ورفعت بين الناس حبك
ومشيت أنصح في الملا وأعلم الأصحاب قصدك

ويقول رضى الله عنه :

رأيتك لى من الدنيا كفىلى ولم أر غير ركنك من مقيل
تجنبت الشكوك فما عرتنى وأدركت الحقيقة فى مثولى
وفنتشت العلوم وعارفيها فلم أر كالمحبة من دليل
محبة خالقي مشكاة قلبى على أنوارها ألقى وصولى
وأن الحب أشواق وصبر يعز على المنافق والكسول
ورى الناس من ماء ولكن شراب الحب يذكى من غليلى
ولى من مشرق الايمان علم سموت به على كل الفحول
علومى فى الورى نفحات ربي فما بلغوا مراقى أو شمولى

ولأنه رضى الله عنه رأى فى كفالة ربه ما أغناه عن غيره فقد اكتفى
به سبحانه وسأله حاجاته وخافه ولم يخف سطوة عباده فقال رضى
الله عنه :

مد اليدين اليك أفضل شرعة
ولغير وجهك لا يصح سؤالى
فاجعل هداك شريعتى وذريعتى
واجعل شهودك لى مرة حالى
يارب قلبى قد غسلت من الورى
اذ ليس غيرك ما ذكرت ببالى
بالحب كنت ولا أزال فان أمت
لم تأتزر روى بثوب زوال

ان مر بى عصف الزمان وقصفه
والله لست بما شهدت أبالي
أأحبه وأخاف سطوة غيره
هذا وحقك لا تعيه خصالى
روض المحبة قد شهدت جلاله
وجماله فثبت فى أحلى والى

ومن كلام سيدى الشيخ على رضى الله عنه ندرك أن أهل الله وهم
الأولياء الأصفاء يكتفون بالله ولا يسألون سواه ، لأن شعار الولي
(حسبى الله) أى يكفينى ربى ، وهو الشعار الأكرم الذى اختاره الله
لرسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم حين قال له (فان تولوا فقل حسبى
الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) وهو الشعار
الذى استمسك به سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين ألقى
فى النار فقد قال : حسبى الله فكفاه ربه شر أعدائه وقال للنار (كونى
بردا وسلاما على ابراهيم) *

وقد كان نقش الخاتم الذى يلبسه الامام مالك رضى الله عنه :
« حسبنا الله ونعم الوكيل » وقد سأله فى سبب اتخاذ ذلك الشعار
فقال لهم لأن بعدها (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء)
مشيرا بذلك الى ما حكاه الله عن سادتنا الصحابة الكرام الذين نزل
فيهم قوله تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس ان الناس قد جمعوا لكم
فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا
بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله
دو فضل عظيم) *

والمتوكلون على الله فى أمورهم فى ثقة واطمئنان يكفيهم الله ما أهمهم .
وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « انى لأعلم آية
لو أخذ الناس بها لكنتهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من
حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد
جعل الله لكل شىء قدرا) فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقرأها ويعيدها » *

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه : شعاع البصيرة
يشهدك قربك منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة

يشهدك وجوده لاعدمك ولا وجودك • وفسروا ذلك بأن شعاع البصيرة نور العقل ، وعين البصيرة نور العلم ، وحق البصيرة نور الحق ، فالعقلاء بنور عقولهم شهدوا أنفسهم وشاهدوا ربهم قريبا منهم (أى قرب بالعلم والاحاطة لا بالمسافة) والعلماء بنور علمهم شهدوا أنفسهم عدما فى وجود ربهم ، والمتحققون بنور الحق شاهدوا الحق ولم يشاهدوا معه سواه •

ويقول كذلك رضى الله عنه : لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا ليأسك ، فهو الذى ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد • ويقول سيدى الامام أبو الحسن الشاذلى فى تفويض الأمور الى الله سبحانه : لا تختار من أمرك شيئا ، واختار ألا تختار ، وفر من ذلك المختار ومن فرارك ومن كل شيء الى الله عز وجل (وربك يخلق ما يشاء ويختار) وقوله هذا ينسب لنا قول سيدى الشيخ عبد السلام الوارد فى صدر المقال : فالله لك جميعا كان الأمر ، ويزيدنا سيدى ابن عطاء شرحا فيقول : اذا أعطاك أشهدك بره ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك •

وختاما أقول ما حكاه الله عن سادتنا الصحابة ، وأحب أن يقوله معى كل مؤمن (حسبنا الله ونعم الوكيل) •

حزب الله

« سرت سارية الليل لاهل الليل ، الذين ييغون الجليل ، وليس لاحدهم شاغل عنه ، فهو مع الله ، يسير له الدنيا وهو عنها غافل ، لانه مع الله عاقل ، لا يسأل عن المعاقل ، فهو به واصل ، مسلم لله ، فالبه يرعاه ، لانه يرى أنه غير مالك ، والله مالك المالك » .

تلك سطور من نور جاءت في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني ، نور الله ضريحه ، الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه ، مد الله في عمره ، وأوسع له في كرمه ، وهي تصف عباد الرحمن في اشتغالهم بالله ، في عبودية الفاهمين عن الله ، والعارفين به سبحانه ، لم تلههم عنه دنيا فانية ، أو عرض زائل ، فان ملكت أيديهم من مناعها شيئا أيقنوا أنهم مملكون وليسوا مالكين على الحقيقة ، لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

والعقل عن الله تعالى نعمة لا توازيها نعمة من النعم ، وقد روى عطاء ابن أبي رباح عن أبي سعيد الخدري ، رضى الله عنهما ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قسم الله العقل على ثلاثة أجزاء فمن كن فيه فهو العاقل ، ومن لم يكن فيه فلا عقل له ، حسن المعرفة بالله عز وجل ، وحسن الطاعة لله عز وجل ، وحسن الصبر لله عز وجل » .

وأهل الليل الذين يثير اليهم سيدي الشيخ هم أهل المحبة ، الذين آثروا الله على هواهم ، فسهروا ليلهم شوقا اليه ، وغراما به ، ومناجاة له ، حيث نام غيرهم واشتد غطيظهم ، وقد أنشدوا في ذلك :

وفي الناس من تحلوا له لذة الكرى
وذكرك أحلى في الجفون من الغمض

ويقول سيدي وشيخي الشيخ على عقل في الهامة الفوري الذي نقلناه عنه :

إذا سهرت فما أسهرت عن ملل
لكنه الحب يدعوني وأشهد

ومذ تغزلت في ربي وما الفت
روحي سواء تجاني الجفن مرقده
إذا مددت يدي لله أسأله
مدت الي بمعنى فضله يده

ولا تعجب ان يكون هذا حالهم فان من ذاق شيئاً من محبة الله ألهام ذلك عما سواه ولذلك يقول سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه : ربما وردت عليك الأنوار ، فوجدت القلب محشوراً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت ، فرغ قلبك من الأغيار يملأ بالمعارف والاسرار • وسيدي ابن عطاء الله لا ينفى وجود الآثار انما هو يطالبنا أن نراها كما نرى الظلال في الانهار التي لا تعوقنا عن السير فيها وان بدت على صفحات الماء ، ولذلك يقول :

من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الله ، فان ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم ان يكون أقرب اليك منه ، ولا شيء أقرب من الله ، فرجعت حقيقة الحجاب الى توهم الحجاب •

ويقول الامام القشيري في لطائف الاشارات عند قول سيدنا زكريا عليه السلام (... فهب لي من لدنك وليا • يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) انه لم يرد الولد بشهوة الدنيا وأخذ الحظوظ منها وانما طلب الولد ليقوم بحق الله ، ويرث من آل يعقوب النبوة وتبليغ الرسالة فاستجاب الله له ، وعند قوله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا • وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا) يقول الامام: والقوة هنا ليست قوة يد ولكن قوة قلب ، وذلك خير خصه الله تعالى به وهو النبوة ، أما التقوى فعلى قسمين مجموع ومجلوب يتوصل اليه العبد بتكلفه وتعلمه ، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل اليه العبد بفضل سبحانه •

وقد حجب الله عنا الغيب وطالبنا بالعمل والسعي للآخرة لئلا نفتعل على ما قدره في الازل ، وأرشدنا سبحانه الى أن رحمته قريب من المحسنين فمن أحسن عمله تعرض لرحمته فلا يقول قائل متخلف عن العمل كسلا (يختص برحمته من يشاء) فقد قال تعالى كذلك (ان

رحمة الله قريب من المحسنين) • وقد روى البخاري ومسلم والترمذي الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي وأنا معه ، فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وان تقرب الي شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب ذراعا تقربت اليه باعا ، وان أتاني يمشي أتيته هرولة » •

ويجب تأويل القرب والهرولة بالنسبة له سبحانه لانه لا يتحرك ولا يسكن ولا ينقص ولا يزداد ، وتأويل القرب والهرولة هو موالاة العبد بالنفحات والفيوضات حتى يذوق معرفة الله ذوق الخواص من عباد الرحمن ، وهم الذين قيل فيهم :

جاءت عن الوصف أن تحصي مآثرهم
بطاعة الله في الدنيا مفاخرهم
على البواطن قد دلت ظواهرهم
أحبهم وأداريهم وأوثرهم
بمهجتي وخصوصاً منهمو نفرا

ويقول فيهم سيدي الشيخ علي عقل في الهامه الفوري :

عباد ولكن علا قدرهم
تبارك من لهمو قد خلق
لهم همم كالجبال الرواسي
وهم عند ربك نور العسق
ونارهمو في النعيم المقيم
فيما عجباً جنة في حرق

وقال فيهم مرة أخرى :

قوم خلوا بجلال الله وانتهبوا
نهجا من الصدق كانوا فيه واغينا
ثم اختفوا عن عيون الناس وابتهلوا
لله واجتهدوا في الله هاديننا
وأدركوا أن نور الله مركزه
قلوب قوم لوجه الله ساعينا

والله علمهم بالشرع فهمهم
فسددوا وأقاموها براهينا
وعاهدوا الله في سر وفي علن
أن يلزموا الحق والقرآن والديننا
أعلامهم في سماء المجد قد نشرت
ومكنت من قلوب الناس تمكيننا

وعباد الرحمن في ولىع دائم بالله لا يسكن أنينهم وحنينهم اليه
سبحانه ويبدلون أوقاتهم في مرضاته غير عابئين بملامة اللائمين ، وفي
ذلك يقول سيدي يحيى الرازى رضى الله عنه :

يقولون يحيى جن من بعد صحة
ولا يعلم العذال ما في حشائيا
إذا كان داء المرء حب مليكه
فمن غيره يرجو طبيبيا مداويا
ألا فاهجـرونى وأرغبوا في قطيعتى
ولا تكشفوا عما يجن فؤاديا
كلونى الى المولى وكفوا ملامتى
لأنس بالمولى على كل مايبا

وقد سئل بعض العارفين : متى يتحقق العبد بالعبودية ؟ فقال :
إذا سلم القياد من نفسه الى ربه ، وتبرأ من حوله وقوته ، وعلم أن
الكل له وبه • ويقول الامام المحاسبى رضى الله عنه : الاخلاص اخراج
الخلق من معاملة الله تعالى ، والنفس أول الخلق • ويقول الامام سهل
التستري رضى الله عنه : أهل لا اله الا الله كثير والمخلصون قليل
وقد سئل الامام الجنيد رضى الله عنه : أيهما أتم ؟ الاستغناء بالله
تعالى أم الافتقار الى الله عز وجل ؟ فقال : الافتقار الى الله عز وجل
موجب للغناء بالله عز وجل ، فإذا صح الافتقار الى الله عز وجل ،
كمل الغناء بالله تعالى ، فلا يقال أيهما أتم لانهما حالان لا يتم أحدهما
الا بتمام الآخر ، فإذا صح الافتقار صح الغناء •

وقد سئل سيدي أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه عن معنى قوله
تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير)
فقال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق ، مضطجع
على باب الهيبة ، والمقتصد مضروب بسوط الحسرة ، مقتول بسيف
الندامة ، مضطجع على باب الكرم ، والظالم مضروب بسوط الامل ،
مقتول بسيف الحرص ، مضطجع على باب العقوبة •

وقد سئل سيدي أبو الحسين القرشي رضى الله عنه عن صفاء العبادة
والمعاملة فقال : ان للعقل دلالة وللحكمة اشارة وللمعرفة شهادة ،
فالعقل يدل ، والحكمة تشير ، والمعرفة تشهد أن صفاء العبادات لا ينال
الا بصفاء معرفة أربعة ، فأول ذلك معرفة الله تعالى ، والثاني معرفة
النفس ، والثالث معرفة الموت ، والرابع معرفة ما بعد الموت من وعد
الله ووعيده ، فمن عرف الله تعالى قام بحقه ومن عرف النفس استعد
لخالفتها ومجاهدتها ومن عرف الموت استعد لوروده ومن شهد وعيد
الله تعالى ، ينزجر عن نهيه وينتدب لامره •

فمراعاة حق الله تعالى على ثلاثة أوجه : على الوفاء والادب والمرءة
فأما الوفاء فانفراد القلب بفردانيته ، والثبات على مشاهدة وحدانيته
بنور أزليته والعيش معه ، وأما الادب فمراعاة الاسرار من الخطرات
وحفظ الاوقات ، والانقطاع عن الحسد والعدوات ، وأما المروءة ،
فالثبات على الذكر نطقا وفعلا، وصيانة اللسان ، وحفظ النظر ، وحفظ
المطعم والملبس ، وينال ذلك بالادب ، لان أصل كل خير في الدنيا والآخرة
الادب •

وقد أبدع سيدي وشيخي الشيخ على عقل قدس الله سره في وصف
النفس حين سألها سائل ان يأتى له بأبيات على وزن البيت التالي
وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
دون الذى تعلو به فى ذاتها

فقال فيما قال ، الهاما وارترجالا لوقتته من نطاء الله لاوليائه
واصطفياؤه :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به
كم عالم قد زل من نزعاتها

تنأى عن الإصلاح طوال حياتها
وتواصل الاقبال في شهواتها
وقفت على الدنيا حسن بلائها
فأماؤها عن هديها وهدايتها
قد رحبت بالسيئات مريضة
وتضج ان دعيت الى حسناتها
جهلت طريق الخير وادعت الهدى
كم تكثر الدعوى على قرباتها
ضحكت على جهالها فتوهموا
ان العلاء والفوز في نزواتها
فحما مسيلة النبوة وانتهى
فرعون للتأليه من عثراتها
والنفس ما برحت تضل وما بها
نور يزيل الظلم من ظلماتها
فانصح لنفسك في الأمور لعلها
قد ترزق الانوار في سبحاتها
ترضى تسفلها لكل نقيسة
دون الذى تعلو به في ذاتها

ويقول الامام الغزالي رضى الله عنه : للنفس مراتب ثلاث :

اذا سكنت وزايلها الاضطراب بسبب الشهوات سميت نفسها مطمئنة
واذا اعترضت على الشهوات سميت نفسها نائمة ، واذا اذغنت للشهوات
ودواعى الشيطان سميت نفسها أماراة بالسوء . ويقول سيدي ابن عطاء
الله السكندري رضى الله عنه : حظ النفس في المعصية ظاهر جلي ،
وحظها في الطاعة باطن خفى ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه . . كما
يقول : اذا انتبس عليك أمران فانظر أنقهما على النفس فاتبعه فانه
لا يثقل عليها الا ما كان حقا ويقول كذلك عفا الله عنه : انما تحتاج الى
معالجة نفسك في الإبتداء فاذا ذقت المنه جاءت معالجة النفس اختيارا ،
فالحلاوة التى تجدها في المعصية ، ترجع تجدها في الطاعة .

ويقول كذلك رضى الله عنه : ان الذاكر باسمه تعالى « الله » وهو
الاسم المفرد ، يكون متحققا في ذكره بسبعة أصول : استحقار ما سوى

الله حالا ، والتعظيم لاوامر الله كثفا . وسقوط الاكوان شهودا ،
والفناء في الجمع استغراقا ، وتعلق الهمة بالله دأبا ومراقبة الانفاس
سرا ، ثم حدوث الوله ، بمعنى أن يسترق سر الذكر في وجوده في
حال شهوده ، بحيث لا يرى غير الله ، ولا يحس بشيء سواه . وهو
بذلك يشرح لنا قول سيدي الشيخ عبد السلام الوارد في صدر المقال
فهو به واصل ***

ويقول سيدي الامام أبو علي الدقاق رضي الله عنه : من زين ظاهره
بالمجاهدة زين الله سرائره بالمجاهدة ، قال تعالى : « والذين جاهدوا
فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » .

ويقول سيدي الشيخ علي عقل رضي الله عنه في نصائحه الالهامية :

أننم ليلا ثم ندعى سادة
هذا الضلال البحت وا أسفاه
عودوا بنا ليل نسهر بالهدى
فالليل يكشف للمريد غطاء

وانظر ، رعاك الله ، كيف تحقق شيخنا بربه وتجرد له في عبودية
خاصة حين قال الهاما رضي الله عنه :

يا أيها المغرم الساري لسيد
روح المحبين تحقيق وتجريد
سارع الى الله معتزا برحمته
فالكل عبد ورب الكل معبود
فالوا اتخذك جاها قلت وا عجبى
أغير ربى ايمان وتوحيد
أطوف بالحق صبا في مكارمه
يا رب صب رواء البر والجود
وانما أنا فان في محبته
لكننى في كتاب الحب موجود
ما لذى غير شدى في هواه
وانما أنا مشهود وموعود

وفي صدر رسالة بعث بها الامام الجنيد رضى الله عنه لاحد لحيابه قال : أكرمك الله بطاعته ، وخصك بولايته ، وجللك بستره ، ووفئك لسنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وأطلعك على فهم كتابه ، وأنطقك بالحكمة ، وآنسك بالقرب ، وخصك بالفوائد ، ومنحك الزيادات ، والزمك بابه ، وكفك خدمته ، حتى تكون له موافقا ، ولكأس محبته ذاتقا ، فيتصل العيش بالعيش ، والحياة بالحياة ، والروح بالروح ، فتتم النعمة ، وتسلم من المعتبة ، فتصح العاقبة ، وتكمل السلامة .

وفي صدر رسالة أخرى كتب رضى الله عنه يقول لاحد أحبابه : حاطك الله بحياطته التي يحوط بها المستخلصين من أحبابه ، وثبتك وایانا على سبل مرضاته ، وأولج بك قباب انسه ، وأرقاك في رياض فنون كرامته ، وكلاؤك في الأحوال كلها كلاءة الجنين في بطن أمه ، ثم أدام لك الحياة المستخلصة من قيمومية الحياة على دوام ديمومية أبديته وأفردك عماك به وعما له بك ، حتى تكون فردا به في دوامها ، لا أنت ولا مالك ولا العلم به ، ويكون الله وحده ، وفي كلامه شرح لما أجمله سيندى الشيخ عبد السلام في عبارته التي بدأ بها المقال .

ويقول الامام الدقاق رضى الله عنه : ان العبد يصل بطاعته الى الجنة ، وبالادب في طاعته الى الله . . . ويقول ابن عطاء رضى الله عنه : الادب الوقوف مع المستحسنات ، فقليل وما معنى ذلك ؟ . . . قال ان تعامل الله بالادب سرا وعلنا ، فاذا كنت كذلك كنت أدبيا ، وان كنت أعجميا . وبهذا يبدو لك معنى الحديث الشريف « ادبنى ربى فأحسن تأديبى » ، فكان — صلوات الله وسلامه عليه — مع الله في جميع أوقاته ، وكان يقول : تنام عيناى ولا ينام قلبنى . . . ويخاطبه بعض صوفية الفرس بقوله :

يا ضيف أبيت عند ربى فى جنّة لا ينام قلبنى

ويقول شيخ التصوف الاكبر سيد محبى الدين بن عربى رضى الله عنه فى عباد الرحمن الذين يقومون الليل :

قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » يا ليت شعرى ومن أقامهم من المضاجع حين نوم غيرهم الا هو (يدعون ربهم خوفا وطمعا)

يا ليت شعري ومن انطق السفتهم بالدعاء ؟ .. ومن خوفهم وطمعهم
الا هو ؟ .. أترى ذلك من نفوسهم ؟ .. لا والله ، الا من مفاتيح مكرمه
فتح بها عليهم (ومما رزقناهم ينفقون) فمما رزقهم التجاني عن
المضاجع وعن دار الغرور ، ومما رزقهم الدعاء والابتهاال ، ومما رزقهم
الخوف منه والطمع فيه ، فأنفقوا ذلك كله عليه ، فقبله منهم (فلا تعلم
نفس ما أخفى لهم من قرة عين جزاء بما كانوا يعملون) أى لا تعلم
نفس عالمة ما أخفى الله لهؤلاء الموصوفين بتلك الاوصاف من الجزاء
الذى تقر به أعينهم . فكانت هذه الأعمال عين مفاتيح الكرم والمساهدة
ما أخفى لهم فيهم وفي هذه الأعمال من (قرة عين) فكل ما هو في
خزائن الكرم فان مفاتيحه تتضمنه ، فهو فيها مجمل وهو في الخزائن
مفصل ، فاذا فتح بالأعمال تميزت الرتب وعرفت النسب وجاءت كل
حقيقة تطلب حقها ، وكل علم يطلب معلومه .

ويقول في وصفهم سيدي ذو النون المصري رضى الله عنه :

هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيما لربهم لمعرفتهم بجلاله ، فهم
حجج الله على خلقه ، البسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم
أعلام الهداية الى مواسلته ، وأقامهم مقام الابطال لارادته ، وأفرغ
عليهم الصبر عن مخالفته ، وظهر أبدانهم بمراقبته وطيبهم بطيب أهل
معاملته ، وكساهم حللا من نسج مودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان
مسرته ...

قد اقامهم على باب النظر من قربة ، وأجلسهم على كراسى أطباء
أهل معرفته ، ثم قال : ان اتاكم عليل من فقدي فداووه ، أو مريض
من فراقى فعالجوه ، أو خائف منى فأمنوه ، أو آمن منى فحذروه ،
أو راغب في مواسلتي فممنوه ، أو راحل نحوى فزودوه أو جبان في
مناجرتي فشجعوه ، أو آيس من فضلى فعدوه ، أو راج الاحسانى
فبشروه أو حسن الظن بى فبأسطوه أو محب لى فواظبوه ، أو معظم
لقدرى فعظموه ، أو مسيء بعد احسان فعاتبوه .

ومما يقوله فيهم الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه :

همومهم في الجد والطلب ، وأرواحهم في النجاة والقرب ، يستقلون
الكثير من اعمالهم ، ويستكثرون القليل من نعم الله عز وجل عليهم ،
ان أنعم الله عليهم شكروا ، وان منعوا صبروا ... اذاقهم الله طعم

محبتة ، ونعمهم بدوام العذوبة في مناجاته ، فقطعهم ذلك عن الشهوات وجانبوا الذات ، ودأبوا في خدمة ملك الأرض والسموات ، قد اعتقدوا الرضاء قبل وقوع القضاء ... طاب والله عيشهم ودأب ، نعيمهم سليم ، وغناهم في قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب الى محجوب الغيوب فقطعوا كل محبوب ، وصار الله ، جل جلاله ، هو المنى والمطلوب .

دعاهم اليه فأجابوه بالجد ودوام السير ، فلم يقيم لهم اشتغال اذ استيقنوا دعوة الجبار ، فعندها غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بدواهيها وظهرت أسباب المعرفة بما فيها ، فصار مطيبتهم اليه الرغبة ، وسائقهم الرهبة ، وحاديتهم الشوق من المحبة ، حتى ادخلهم في رق عبوديته وبصرهم عظيم ربوبيته ، فليس تلحقهم فترة في نية ، ولا وهن في عزيمة ، ولا ضعف في خدمة ، ولا تأول في رخصة ، ولا ميل الى داعي غرة .

ومما يقول سيدي الحكيم الترمذي رضي الله عنه في وصف ولي الله :

... قد ذلت نفسه عند ظهور عزته ، وتلاشت عن التكلف عند رؤية نصرته ، فقامت نفسه في خدمته كالعبد المحجور ، أو كالخطر المقهور ، أو كالأسير المأسور ، ثم نظر اليه ربه نظرة رحمة ، فنثر عليه من خزائن الربوبية نثار كرامات الخصوصية ، حتى قام مقام حقيقة العبودية . فأغناه الله تعالى بذلك ، ثم قربته وناداه ، وأكرمه وسماه ، ولطف به ودعاه ، فأثابه حين سمع نداه ، فأيده الله تعالى وقواه ، واكتنفه وآواه . حتى أجابه ولباه ، وفي السر ناداه ، وفي كل وقت ناجاه ، وصرخ الى مولاه ، لا يعرف له ربا سواه ، فأعطاه سؤاله ومناه ، واصطفاه لخدمته . وهده ، ولحبتة ارتضاء ، ولعرفته اجتناب ، وأجرى بين يديه انهيارا من الصدق والصفاء ، والتحقيق والحياء ، والمحبة والرضاء ، والخوف والرجاء ، والصبر والوفاء ، والشكر والقضاء ، والبقاء واللقاء ، والافتقار والافتخار ، والتعظيم وترك الاختيار ، والنظر في الاقدار ومشاهدة العزيز الجبار ، بزيده الله كل وقت من اللطائف ما عجز الواصفون عن وصفه ، وهو في قرب من مولاه ، مستوحش من دنياه ، اشتغل بالله عن النظر في عقابه ، فهو في أرغد عيش مع مولاه .

وهذا التفصيل يكشف لنا الستر عما أجمله سيدي الشيخ عبد السلام في قوله : وليس لاحدهم شاغل عنه فهو مع الله ، يسير له الدنيا وهو عنها غافل ، لأنه مع الله عاقل .

اللهم أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين الذين نسبتهم اليك فشرفتهم بتلك النسبة العظيمة في قولك الكريم : « أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون » •

الأسوة الحسنة

« فإيمانك من نور النبی صلی الله علیه وسلم ، ونور النبی من نور الله ، فأبشر بالإيمان » .

جاءت هذه الكلمات في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني قدس الله سره الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة ، زاده الله من بركاته ونفحاته ، وهي ترينا فضل الله على مولانا رسول الله صلی الله علیه وسلم ، كما ترينا فضل الله علينا في ارساله الينا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، فقد آمنّا بالله على يديه ، وسلكنا طريق الحق على نوره الذي أودعه الله قلبه الشريف وجعله كاشفا للبصائر سبل الرشاد (وكذلك أوحينا اليك رؤيا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا الى الله تصير الأمور) .

ولان هدى الله جاعنا على يد مولانا رسول الله صلی الله علیه وسلم بتقديره سبحانه فقد من الله علينا برسوله العظيم في قوله الكريم (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقد روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلی الله علیه وسلم قال : أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبی انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للاميين أنت عبدی ورسولی سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا اله الا الله ويفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الاحبار وزاد بن اسحق فيه : ولا صخب في الاسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوال للخرأ ، أسدده

لكل جميل ، واهب له كل خلق كريم ، واجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والنتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى امامه ، والاسلام ملته ، واحمد اسمه ، اهدى به بعد الضلالة ، وأعلم بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، واسمى به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، واغنى به بعد العيلة ، واجمع به بعد الفرقة ، وأولف به بين قلوب مختلفة ، واهواء متشتتة ، وأمم متفرقة ، واجعل أمته خير أمة أخرجت للناس .

وفضل الله على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل كبير (ان فضله كان عليك كبيرا) وقد روى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال في كلام بكى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله ان بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله ان أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) .

كذلك جعله الله أمانا ورحمة لأمته فقال سبحانه (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) أى وأنت بمكة قبل الهجرة ، فلما خرج عليه الصلاة والسلام منها وبقي فيها من بقى من المؤمنين نزل قوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وهذا من أبين ما يظهر مكانته عليه الصلاة والسلام ، وقال بعضهم : الرسول عليه الصلاة والسلام هو الأمان الأعظم ما عاش وما دامت سنته باقية فهو باق ، فإذا أُميت سنته فانتظروا البلاء والفتن . وفي قوله صلى الله عليه وسلم « أنا أمان لأصحابي » قيل من البدع وقيل من الاختلاف والفتن . وأى فضل عظيم ناله رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه (ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فقد أبرز الله تعالى فضله صلى الله عليه وسلم بصلاة الله عليه ثم صلاة ملائكته عليه وأمر عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم ، وقد حكى أبو بكر بن فورك ان بعض العلماء تأول قوله عليه الصلاة والسلام « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » أى في

صلاة الله على وملائكته وأمره الامة بذلك الى يوم القيامة • هذا
والصلاة من الله تعالى رحمة ومن الملائكة والمؤمنين دعاء •

ويقول الامام جعفر الصادق رضى الله عنه : من تمام نعمة الله عليه
صلى الله عليه وسلم ان جعله حبيبه واقسم بحياته (يقصد قوله تعالى :
لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) ونسخ به شرائع غيره ، وعرج به
الى المحل الاعلى ، وحفظه فى المعراج حتى مازاغ البصر وما طغى ،
وبعته الى الاحمر والاسود ، وأحل له والامته الغنائم ، وجعله شفيعا
مشفعا ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله
أحد ركني التوحيد (أى لان الاسلام لا يقبل الا بالشهادتين شهادة
أن لا اله الا الله وشهادة ان محمدا رسول الله) ثم قال تعالى (ان
الذين يبايعونك انما يبايعون الله) ببيعتهم اياك يد الله فوق أيديهم
(يريد عند البيعة) قيل قوة الله ، وقيل ثوابه ، وقيل منته ، وقيل
عقده •

أقول ولقد كرمه الله بالقرآن الكريم (ولقد آتيناك سبعا من المثاني
والقرآن العظيم) قيل السبع المثاني السور الطوال الاول والقرآن
العظيم أم القرآن (أى الفاتحة) وقيل السبع المثاني أم القرآن والقرآن
العظيم سائر • وجعل الله رسالته عامة (وما أرسلناك الا كافة للناس
بشيرا ونذيرا) وقال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم
جميعا) فى حين قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين
لهم) فخصهم بقومهم وبعث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم
الى الخلق كافة •

كما أنه سبحانه جعل أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم نافذة فى
أمرته ، وجعل طاعته فيها من طاعة الله ، ومخالفته فيها من مخالفة الله
فقال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقال (وان تطيعوه
تهتدوا) وحذرهم مخالفته تحذيرا شديدا فقال تعالى (فليحذر الذين
يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) وفى قوله
تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أى اتباع أمره أولى من
اتباع هوى النفس •

أما حرمة فقد عظمها الله تعالى فى كتابه الكريم فى كثير من آياته
البيئات فى مثل قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه
أمهاتهم) فلأزواجه الطاهرات حرمة الأمهات فيحرم نكاحهن من بعده

تكرمة له صلوات الله عليه لأنهن أزواجه في الجنة ، وفي مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهسوا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) وفي ذلك من التهديد ما فيه . وانظر كيف مدح الله الحافظين لحرمة في قوله تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) ثم انظر كيف نفى الله العقل عن أكثر من كافوا ينادونه من وراء الحجرات في قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) واعجب كيف علق الله الايمان على ارضا بقضائه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) ويقول الامام سهل التستري رضى الله عنه : من لم ير نفسه في ملك الرسول صلى الله عليه وسلم ولم ير ولايته عليه في جميع أحواله لم يذق خلاوة سنته بحال .

ويقول أمانا الشافعي رضى الله عنه في فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته : لم تمس بنا نعمة ظهرت ولا بطننا ثلثا بها خطا في دين أو دنيا أو دفع عنا بها مكروه فيهما أو في واحد منهما الا ورسول الله صلى الله عليه وسلم سببها . وانما قال أمانا الشافعي ذلك بنور بصيرته ، اما من انطمست بصيرته فلا يدرك تلك الحقيقة ولا يراها وان كان ذا عينين كما قال تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم ألا يبصرون) وقد دخل السلطان محمود الغزنوي على الشيخ أبي الحسن الخرقاني رضى الله عنه وجلس ساعة ثم قال : يا شيخ ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي ، فقال الشيخ : هو رجل من رآه اهتدى ، فقال السلطان وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلص من الضلالة ، فقال الشيخ تعقيبا على هذا الكلام ، ان أبا جهل ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما رآه محمد بن عبد الله يتيم أبي طالب فلو كان رآه رسول الله لدخل في السعادة ، أي لو رآه من حيث هو رسول معلم يهدي إلى الرشاد وإلى طريق مستقيم لسعد بمتابعته على الايمان ولكنه نظر اليه على أنه بشر يتيم ، وهو نظر بسقيم ، لان خصوصية الرسالة في البواطن لا في الظواهر ، وقد خدعتهم الظواهر حين قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) .

ويتركى المؤمن فى دينه على قدر تعظيمه لشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصه على احياء سنته والافتداء به فى التقرب الى ربه بالفرائض والنوافل وفضائل الاعمال وصفاء الاحوال ، لانه صلى الله عليه وسلم هو الاسوة الحسنة للمتقين (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) وانما استنارت بصائر العارفين بصدق الهمة وقوة العزم فى متابعتة صلوات الله وسلامه عليه . وقد كان ابن عمر رضى الله عنهما اذا أسرعت به ناقته شد زمامها وهى فى الطريق الى مكة المكرمة ليضيق خطاها ويقول: لعل خفا يقع على خف ، فانظر كيف رأى سعادته فى ان يقع خف ناقته على خف ناقته رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتابع آثاره الشريفة . وحدث عن شغفه بأقواله واحواله ولا حرج .

وفى هذه المناسبة اذكر انى كنت ذاهبا مع بعض اصدقائى الى المدينة المنورة وحين وقت صلاة العصر فنزلنا من السيارة للصلاة على الرمال فتذكرت قول سيدى الامام ابن دقيق العيد رضى الله عنه :

قف بالمنازل والمناهل من لـسـدن
وادى قباء الى حمى أم القرى
وتوخ آثار النـبى فضـع بها
متشرفا خـديـك فى عـفر الثرى
واذا رأيت منـازل الوحي التى
نشرت على الأفـاق نوراً أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شـبـيـهه
مذ كنت فى ماضى الزمان ولا يرى

وقد حركت تلك الابيات وجدانى فوضعت خدى على الثرى متشرفا بآثاره صلى الله عليه وسلم ، ويقول سيدى وشيخى الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

دع زماننا مضى وعد بى لأرض
شـغـفتنى بنورها المتلالى
بين بـيـداء روعت ووهـاد
وذئـاب تـخـتـال فى اقـبال

ونجوم مثل الحباب على الكأس
تسامت أو كالحلى واللالى
قيل ماذا تريد من هذه الارض
اتبغى البقاء فى جمع مال
قلت والله غير أحمد مالى
بعد رب العباد من آمال
يا حبيبى رضاك دنيا ودين
فهما باتباعكم صالحى

والحق الذى لامرية فيه ان الحجاز يثير فى النفس ذكريات مجيدة ،
وكيف لا والحجاز موطن الميلاد المحمدى وهو اسعد ميلاد عرفتة
البشرية ، وهو كذلك مهبط الوحي ، ومشرق الرسالة ، ومراح البراق ،
ومقر الحرمين الشريفين ، ومثوى الجثمان النبوى الشريف ، والصحابة
الاعلام والشهداء الكرام ، ويرحم الله فيلسوف المسلمين المرحوم
السيد محمد اقبال اذ يقول فيما ترجمه عنه الى العربية صديقى الشيخ
الصاوى شعلان :

اضحى الاسلام لنا ديننا
وجميع الكون لنا وطننا
بنيت فى الارض معابدهنا
والبيت الاول كعبتنا
هو أول بيت نحفظه
بحياة الروح ويحفظنا
يا أرض النور من الحرمين
ويا ميلاد شريعتنا
روض الاسلام ودوحته
فى أرضك نماها دمننا
ان اسم محمد الهادى
روح الآمال لنهتتنا

ومما يقول صديقى الفاضل الحاج عبد الوهاب عرب (وهو من
رجال الطائف الصالحين الكرام وقد تعرفت اليه فى الروضة الشريفة

منذ عشر سنوات) في قصيدته التي اهداها لى في مناسبة تعارفنا
حينئذ :

بلدة قدسها الرحمن اذ
حازت الفخر بخير المرسلين
فهى والبيت العتيق المجتبى
منبع الدين ومأوى اللاجئين
حرم المختار أسى منزلا
بغواذى من قصور المتسرفين
اذ به الروضة قرب المصطفى
كم سعى جبريل فيها للأمين
كم بها من عبرة فياضة
لحب كم بها من صالحين
كم تبارى لثراها هائم
كم علا فيها دعاء الساجدين
كم تلا القرآن فيهنسا مخبت
وسمى للخير سعى الحسين
فلأثار سجود المصطفى
في ثراها طيب عرف الياسمين

ولقد وقفت بين يديه صلى الله عليه وسلم زائراً فتذكرت قول سيدى
العارف بالله الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى قدس الله سره وقلت
ما قال :

بالله صل جبل الرجاء تعطفنا
أنا ضيف جودك يا امام أولى الكرم
جد للضعيف بمبتغاه فانه
ما للضعيف سوى رحابك ملتزم
جدلى فان خزائن الرحمن فى
يدك اليمين وانت أكرم من قسم

ومرة أخرى تذكرت ما قال أمير الشعراء شوقي رحمه الله :

صلى عليك الله ما صحب الدجى حاد
وحننت بالفلأ وحنساء
واستقبل الرضوان في غرفاتهم
بجنان عدن آلك السمحاء
خير الوسائل من يقع منهم على
سبب اليك فحسبى الزهراء

ويقول الامام السهيلي في كتاب التعريف والاعلام ان اسم احمد علم منقول من صفة لا من فعل ، وتلك الصفة افعل التي يراد بها التفصيل فمعنى أحمد ، أحمد الحامدين لربه عز وجل ، وكذلك قال هو صلى الله عليه وسلم في المعنى لانه يفتح عليه في المقام المحمود بمعامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها فهو صاحب لواء الحمد ، وأما محمد فممنقول من صفة أيضا وهو في معنى محمود ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار فمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة كما ان المكرم من أكرم مرة بعد مرة فاسم محمد مطابق لمعناه ، فهو محمود في الدنيا بما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة وهو محمود في الآخرة بالشفاعة فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضى اللفظ *

وأضاف رضى الله عنه قائلا : وانظر كيف انزلت عليه سورة الحمد وخص بها دون سائر الأنبياء ، وخص بلواء الحمد ، وخص بالمقام المحمود ، وانظر كيف شرع له سنة وقرأنا ان يقول عند اختتام الأفعال وانقضاء الامور ، الحمد لله رب العالمين ، قال تعالى (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) تنبيها لنا على ان الحمد مشروع عند انقضاء الامور ، وسن صلى الله عليه وسلم الحمد بعد الأكل والشرب ، وقال عند انقضاء السفر : آيئون تائبون لربنا حامدون *

ويحكى السيد محمد اقبال رحمه الله انه في صغره ضرب بعضا سائلا وقف بباب دارهم وطرقه بشدة ، فتناثر الخبز الذي كان في جرابه فخرج أبوه وعنفه قائلا له : الا ترحم أباك يا ولدى في شيخوخته ، وكيف بأبيك اذا عاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة وقال

له : لماذا لم تؤدب ولدك بالادب الاسلامي فيرحم البائس الفقير ، وكان لهذا الدرس القيم اثره البالغ في نفس الفيلسوف العظيم اقبال وهو بركة عليه من بركات أبيه الذي ود أن يرضى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة •

وكانت السيدة رابعة العدوية رحمها الله تصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة وتقول : ما اريد بذلك ثوابا ولكني أريد أن اسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للأنبياء انظروا الى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم واللييلة • هذا واعلم انه لا طاقة لاحد بالتلقى والشهود بدون واسطته صلى الله عليه وسلم فهو المرأة الكبرى والمجلى الأعظم، وأقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به، والمعرفة لا نهاية لها فما دام الانسان يترقى فيها فهو يعتز من بحرهم صلى الله عليه وسلم ويستمد منه • ويقول سيدي القطب أبو العباس المرسى رضى الله عنه : لو احتجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين •

والصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم طريق الفتح وهى من ذكر الله تعالى الأمر بها (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وصلاتنا عليه (وكذلك صلاة الملائكة) هى دعاء وابتهاال فى ان يزيده الله تكريما على تكريم لقاء هدايتنا الى الايمان والى العمل الصالح لاننا عاجزون عن مكافأته فندعو له صلى الله عليه وسلم حتى يكافئه الله عنا • أما صلاة الله تعالى عليه وعلى المصلين عليه فمعناه افاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم ، وقد ورد فى الحديث الشريف « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرين » •

وقالوا ان الله تعالى يضاعف الصلاة للمصلين عليه صلى الله عليه وسلم ، إلا ان الصلاة عليه ليست حسنة واحدة بل هى حسنات ، اذ فيها تجديد الايمان بالله أولا ثم بالرسول ثانيا ، ثم بتعظيمه ثالثا ، ثم بالعناية بطلب الكرامة له رابعا ، ثم بتجديد الايمان باليوم الآخر خامسا ، ثم بذكر آله سادسا ، وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمتان ، ثم بتعظيم آله ونسبتهم اليه سابعا ، ثم باظهار المودة لهم ثامنا ، ولم يسأل صلى الله عليه وسلم من أمته الا المودة فى القربى ، ثم الابتهاال

والتضرع تاسعا ، والدعاء مخ العبادة ، ثم بالاعتراف عاشرا ان الأمر كله لله وان النبي صلى الله عليه وسلم وان جل قدره فهو محتاج الى فضل الله عز وجل • فهذه عشر حسنات سوى ماورد به الشرع من ان الحسنه الواحدة بعشر امثالها وأن السيئة بمثلها فقط •

وقد دخل الامام الشبلى رضى الله عنه على بعض الصالحين فقبله بين عينيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله فسألته بماذا استحق منك الشبلى ذلك يا رسول الله ؟ فقال انه يقرأ عقب كل صلاة الآيتين الاخيرتين من سورة التوبة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم • فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) ثم يصلى على ثلاث مرات •

وقد رأينا الخير كله من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، بالصيغتين الواردتين فى الطريقة الخليلية لشيخنا الاكبر الغوث سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المنير بالزقازيق والمحقق بمسجده المبارك المعروف هناك • وهاتان الصيغتان هما :

١ — اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه عدد حروف القرآن حرفا حرفا ، وعدد كل حرف ألفا ألفا ، وعدد صفوف الملائكة صفا صفا ، وعدد كل صف ألفا ألفا ، وعدد الرمال ذرة ذرة ، وعدد كل ذرة ألف ألف ألف مرة ، عدد ما احاط به علمك ، وجرى به قلمك ، ونفذ به حكمك فى برك وبحرك وسائر خلقك ، عدد ما احاط به علمك القديم من الواجب والجائز والمستحيل (الواجب وجود الله والمستحيل وجود شريك له والجائز فعل كل ممكن أو تركه كما يشاء سبحانه) اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه مثل ذلك — وهى صيغة نتلوها عقب كل فريضة ثلاث مرات •

٢ — اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما فى علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله — وهى صيغة نتلوها فى النهار قدر الاستطاعة وبحسب الاجتهاد بلا عدد محدود • اما فى الليل فيذكر المريد الاسماء الحسنى حسب الارشاد ، ويذكر الاسم الواحد مائة الف مرة فى المدة المناسبة

لاجهاده من الليالى دون قيد فى الحد الادنى أو الاعلى ، فاذا تمت
المائة ألف انتقل لذكر الاسم الذى يليه وهكذا حتى اذا فرغ من الكل
كرر الكل بذلك الترتيب وهكذا •

الا رضى الله عن شيوخوا العارفين الذين نابوا عن صاحب الرسالة
صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله وتنبيه القلوب الغافلة لبذل
الهمة فى مرضاة الله تعالى بما آتاهم الله من نور البصيرة النافذة
مصادقا لقوله تعالى (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين) •

أهل اليقين

« فمن نعمتك يا الله وخيرك وجودك نسالك بك لك ، ولا نسالك بأحد غيرك ، أن تهبنا الايمان والتوحيد واليقين حتى نلقاك سالمين غانمين طاهرين مع النبی صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » .

جاءت تلك السطور في رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعة مد الله في عمره وبارك له في عمله ، وهو يسأل ربه اليقين ، واليقين مقام عظيم أوله ارتفاع الشك ويتحلى المؤمن بعد ذلك بالثقة بما في يد الله تعالى وليس لزيادته نهاية .

وقد أفنتح الله سبحانه سورة البقرة حنوها بفضل التقوى القائمة على اليقين فقال تعالى (آلم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فدل كلامه الكريم على أن أهل اليقين هم أهل الهدى والفلاح .

ويقول السادة العارفون أن أهل اليقين على درجات ثلاث :

الأولى — درجة الاصاغر ، وهم المريدون والعوام ، وهم الذين زال الشك من قلوبهم .

الثانية — درجة الأوساط وهم الخصوص ، وهم الذين تحققوا باليقين وترقوا فيه من يقين الى يقين حتى يصير اليقين لهم وطنا .

الثالثة — درجة الأكابر ، وهم خصوص الخصوص ، وهم الذين يقطعون كل سبب يحول بينهم وبين الله تعالى ، ومن العرش الى الشرى حتى يكون الله لا غير ، ويؤثرون الله تعالى على كل شئ سواه ، وليس لزيادة اليقين نهاية ، بل كلما تفهموا وتفقهوا في الدين ازدادوا يقينا على يقين .

وقد جاء اليقين في كتاب الله تعالى على ثلاث درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . ولتقريب فهم هذه الدرجات قالوا ان علم اليقين هو أن تعلم مثلاً أن مكة المكرمة مدينة في الحجاز وبها بيت الله الحرام الذي يحجه المؤمنون ، فاذا ذهبت الى الحجاز وجئت الى مداخل مكة بنفسك صرت في عين اليقين ، فاذا سكنت مكة وتنقلت فيها صرت في حق اليقين .

فالمعرفة ثلاث درجات :

- ١ - عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .
- ٢ - قلبية ونورها البيان أو عين اليقين .
- ٣ - كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين .

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه : علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الانوار تتبدد أمام شمس حق اليقين ويقول رضى الله عنه أنه حين قال سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) كان يطلب زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان حاصله من عين اليقين .

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه في لطائف الاشارات: والاشارة من ذبح الطيور أن حياة القلب لا تكون الا بذبح أهواء النفس فمن لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يحيي قلبه بالله ، وفيه اشارة الى البعث بعد الموت فقد قال له قطع بيدك هذه الطيور وفرق أجزاءها ثم ادعهن يأتينك سعياً ، فما كان مذبوحاً بيد صاحب الخلة مقطعاً مفرقاً بيده فاذا ناداه استجاب له كل جزء مفرق ، كذلك الذي فرق الحق وشنته فاذا ناداه استجاب ،

ولو أن فوقى تربة ودعوتنى
لأجبت صوتك والعظام رفات

ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه في قوة يقينه بالله تعالى : لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً ، يعنى عند معاينته لما آمن به بالغيب . ويقول الامام أبو طالب المكي رضى الله عنه : أصول

مقامات اليقين التي ترد إليها هروع أحوال المتقين تسعة : التوبة ،
والمصبر ، والشكر ، والرجاء ، والخوف ، والزهد ، والتوكل ، والرضا ،
والمحبة .

أما التوبة فقد قال تعالى في شأنها « وتوبوا إلى الله جميعا أيها
المؤمنون لعلكم تفلحون » وقد سئل الإمام الحسن البصري رضى الله
عنه عن التوبة النصوح الواردة في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا
توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم
جنت تجري من تحتها الأنهار) فقال : هي ندم بالقلب ، واستغفار
باللسان ، وترك بالجوارح وضمائر ألا يعود إلى الذنب . ويقول الإمام
سهل التستري رضى الله عنه : من يقول إن التوبة ليست بفرض فهو
كافر . ومن رضى بقوله فهو كافر كما قال : ليس من الأشياء أوجب على
الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من ترك التوبة ، وقد جهل
الناس علم التوبة . وقال أيضا : التسائب الذي يتوب من غفلته في
الطاعات في كل طرفة ونفس .

وقد سئل سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه : كيف يصنع التائب
فقال : هو من عمره بين يومين ، يوم مضى ويوم بقى فيصلحهما
بثلاث : أما ما مضى فبالندم والاستغفار ، وأما ما بقى فبترك التخليط
وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين ، والثالثة لزوم تصفية الغذاء
(أى أكل الحلال) والدؤوب على العمل . وقال رضى الله عنه : علامة
صدق التوبة : رقة القلب وغازاة الدمع . ومن حكم السادة الصوفية
قولهم : لا تنتظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها .

وفي قوله تعالى (استعينوا بالله واصبروا) يقول السادة الصوفية
استعينوا به على الطاعة واصبروا على المجاهدة في المعصية . ويقول
إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه أعمال البر كلها إلى جنب
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتفلة إلى جنب البحر ، والأمر بالمعروف
وإنهى عن المنكر إلى جنب الجهاد في سبيل الله كتفلة في جنب بحر ،
والجهاد في سبيل الله تعالى إلى مجاهدة النفس عن هواها في اجتناب
النهي كتفلة في جنب بحر لجى ، وهذا يفسر معنى قوله صلى الله عليه
وسلم « رجعت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة
النفس » .

والغفلة عند الموقنين أصل الكبائر ، وقد سأل سيدنا عمار بن ياسر
إمامنا علياً كرم الله وجهه : أخبرنا عن أكثر على ما بنى ؟ فقال : على
أربع دعائم ، على الجفاء ، والعمى ، والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر
الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمى نسى الذكر ، ومن غفل
حاد عن الرشد وغرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدأ له من
الله ما لم يكن يحتسب ، ومن شك تاه في الضلالة •

ويقول العارفون : العوام يتوبون من سيئاتهم ، والصوفية يتوبون
من حسناتهم يعنى من تقصيرهم في أدائها لعظيم ما يشهدون من حق
الملك العزيز سبحانه ، ومن نظرهم إليها أو نظرهم إلى نفوسهم بها
وهي منة الله الواصلة منه إليهم • وقد سئل الإمام سهل رضى الله عنه
عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال :

أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الانابة ، ثم التوبة ، فالاستجابة
أعمال الجوارح ، والانابة أعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه
وترك الخلق ، ثم يستغفر من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل
بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ، ثم ينقل
إلى الانفراد ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة ، ثم
المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاتة ، ثم محادثة السر وهو الخلعة ،
ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه
والرضا زاده ، والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله
تعالى إليه فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش •

وكان رضى الله عنه يقول : العبد لا بد له من مولاه على كل حال
وأحسن حاله أن يرجع إليه في كل شيء ، اذا عصى يقول : يا رب استر
على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يا رب تب على ، فاذا تاب قال : يا رب
ارزقنى العصمة • فاذا عمل قال يا رب تقبل منى • وبعد التوبة يتعقب
المؤمن الذنب بثمانية أعمال ، أربعة من الجوارح وأربعة من أعمال
القلوب ، ويرجو بذلك كفارة الخطيئة ، أما أعمال الجوارح فهي أن
يصلى ركعتين ثم يستغفر سبعين مرة ويقول : « سبحان الله العظيم
وبحمده » مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ويصوم يوماً ، وأما أعمال
القلوب فهي اعتقاد التوبة منه ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وخوف
العقاب عليه ورجاء المغفرة له ، يحتسب على الله تعالى بحسن ظنه

وصدق يقينه كفارة ذنبه ، فبهذه الاعمال قد وردت بها الآثار أنها المكفرة للزلل والعثار •

وأضاف الامام أبو طالب رضى الله عنه قائلا :

وفي أخبار متفرقة جمعناها : ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات : يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ويا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر : يا ليتهم اذ علموا لماذا خلقوا علموا بما علموا ، وفي بعضها تجالسوا فتذكروا ما علموا ، فيقول الآخر : ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا •

ويقول امامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله وعجبت لمن شك في الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك في النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء • ويقول الامام الغزالي رضى الله عنه : ان العاقل لا يبيع الاثنين بواحد ، فكيف يبيع المؤمن الآخرة بالبقية بالدنيا الفانية •

والصبر عند امامنا على كرم الله وجهه من مقامات اليقين ، فقد قال بنى الاسلام على أربع دعائم : على اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل • وقال أيضا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، لا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمان لمن لا صبر له • ورفع مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبر في العلوم الى مقام اليقين وقرنه به في قوله : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاتته من قيام الليل وصيام النهار • وكذلك قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) كما قال تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) وقال تعالى (انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) فضاعف سبحانه أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء ، فجعله بلا نهاية وبلا حد فدل ذلك على أنه أفضل المقامات •

وكان الامام سهل التستري رضى الله عنه يقول : الصالحون في المؤمنون قليل ، والصادقون في الصالحين قليل ، والصابرون في الصادقين

قليل • وكان رضى الله عنه يقول : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، ويقصد بالعافية النعمة من الصحة أو من غنى المال ، فلا يستعين بها على معصية الله فيبدل نعمة الله كفرا ، وقد مدح الله الذين يتقربون الى الله تعالى بنفقة أموالهم في مرضاته ، فقال تعالى (الذين ينفقون في السراء والضراء) فمدحهم بوصف واحد في الحالين المختلفين لحسن يقينهم وسخاوة نفوسهم ، وحقيقة تقواهم ، وحذر سبحانه وتعالى من الافتتان بالاموال والأولاد فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) لأن الأموال والأولاد ما يسر ويشغل عن ذكر الله •

ويقول العارفون : ان المؤمن لا يصبر الا بأحد معنيين ، مشاهدة العوض والجزاء ، وهو حال أصحاب اليمين من المؤمنين ، أو انظر الى المعوض سبحانه وهو حال الموقنين ومقام السابقين المقربين • كما قالوا ان الصبر أوله ترك الشكوى وهذه درجة التائبين ، وثانيه الرضا بالمقدور ، وهذه درجة الزاهدين ، وثالثه واعلاء المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصادقين من أهل اليقين •

والشكر هو ثالث مقام من مقامات اليقين ، وقد قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الشكر نصف الايمان • ويقول الله سبحانه (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب ، وورد في الحديث الشريف : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » ويقول سبحانه (لئن شكرتم لازيدنكم) وؤن المزيد شهود النعم انها من النعم وبحوله سبحانه وقوته وأوسط المزيد مداومة الطاعة لله تعالى ، وأفضل المزيد قوة اليقين بالله عز وجل •

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : كيف أصبحت قال بخير ، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم السؤال ثانية : كيف أنت ؟ فقال بخير ، فأعاد عليه الثالثة : كيف أنت ؟ فقال : بخير أحمد الله تعالى وأشكره ، فقال : هذا الذى أردت منك أى اظهار الحمد والشكر والثناء •

ويقول العارفون : على الموقن أن يشكر في العطاء والمنع ، اذ قد يكون في المنع العطاء ، ولكن لا يفهم العطاء في المنع الا صديق ، فاذا

شكر المؤمن ربه في العطاء والمنع صار من أهل اليقين ، لأنه اتصف بصفات العبودية ، ورأى أنه عبد تجرى عليه أحكام الربوبية ، وأنه لا يستحق على الله شيئاً ، وإن الله سبحانه يستحق عليه كل شيء ، فالعبد خلقه وصنعه ، والله صانعه ومالكة ومالك أمره . والله تعالى يقول (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) ويقول (وذروا ظاهر الاثم وباطنه) وفي ذلك تنبيه لان يترك المؤمن ظاهر الاثم شكراً لظاهر النعم ويترك باطن الاثم شكراً لباطن النعم .

ومن أروع ما يقول الامام جعفر الصادق رضى الله عنه :

ان الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته فلا تحتقروا منها شيئاً لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه في معاصيه فلا تحتقروا منها شيئاً لعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده المؤمنين فلا تحتقروا منهم أحداً لعله ولى الله تعالى . ويقول العارفون ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، ومن أفضل النعم وأجلها نعمة الايمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ، أما سائر النعم فلا يستطيع العاد حصرها (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فله سبحانه وتعالى الشكر والثناء الحسن الجميل .

وقد حدثوا عن رجل شكى الى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك حزنه ، فقال له السامع لشكواه : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف ، قال لا ، قال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ، قال لا قال : أفما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً ؟

والرجاء هو رابع مقامات اليقين ، ويقول السادة الصوفية في تفسير قوله تعالى (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) ان الله تبارك وتعالى أوحى الى نبيه صلى الله عليه وسلم : تريد أن أجعل حساب أمتك اليك ؟ فقال يارب أنت خير لهم منى ، قال : أذن لا نخزيك فيهم .

ويروى السادة الصوفية أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، انى لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى الا الخمس الا أزيد عليهن ، وليس لله تعالى فى مالى صدقة ولا حج ، ولا أتطوع ، أين أنا اذا مت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فى الجنة ، قال : يا رسول الله : معك ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معى ان حفظت قلبك من اثنين الغل والحسد ، ولسانك من اثنين ، الغيبة والكذب ، وعينك من اثنين ، انظر الى ما حرم الله تعالى وأن تزدري بهما مسلماً ، دخلت معى الجنة على راحتى هاتين .

كما يروون فى الخبر عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه أن الأعرابى قال : يا رسول الله ، من يلى حساب الخلق ؟ قال : الله عز وجل ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، قال فتبسم الأعرابى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مم ضحكت يا أعرابى ؟ فقال : ان الكريم اذا قدر غنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ، الا ولا كريم أكرم من الله عز وجل ، هو أكرم الاكرمين ثم قال عليه الصلاة والسلام فقه الأعرابى .

وخامس مقام من مقامات اليقين هو الخوف ، وفى قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) جعل سبحانه الخوف مقاما فى العلم لان الخشية لا تكون الا من الخوف ، والخوف اسم لحقيقة التقوى ، والتقوى معنى جامع للعبادة بدليل قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) وكفى شرفا لاهل التقوى ان يقول الله تعالى فيهم (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن مزايا الخوف أنه يحرق نار الشهوات مع شدتها وينتهى بصاحبه الى الجنة اذ يقول سبحانه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى) .

لكن ينبغى ألا يخرج المؤمن من خوفه باليأس من رحمة الله ، فان فى ذلك مجاوزة الحد المعقول ، ويجب أن يجمع فى صلته بالله بين الخوف المعاصم من الاستهتار بالشهوات وبين الرجاء الذى لا يقنط به من رحمة الله ويقول فى الجمع بين الخوف والرجاء شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه من الهامة الفورى الذى نقلناه عنه :

لا تياسوا من روحه فاليائسون كفره
أو تأمنوا من مكره فالآمنون فجره
ما بين خوف ورجا تعبد نفس حذره

وقد قال امامنا على كرم الله وجهه لبعض الخائفين الذين أخرجهم الخوف الى القنوط : ما أصارك الى ما أرى ؟ قال : ذنوبى العظيمة ، فقال : ويحك ان رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك ، فقال : ان ذنوبى أعظم من أن يكفرها شيء ، فقال له الامام : ان قنوطك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنوبك •

والمقام السادس من مقامات اليقين هو الزهد ، ومعناه عند السادة الصوفية خروج الدنيا وزينتها من القلب ولو كانت في اليد ، ومن حكمهم في ذلك : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ولكن الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك • وكان يقال لسيدي مالك بن دينار : انك زاهد فكان يقول : انما الزاهد عمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا ومكها فزهد فيها ، فأما أنا ففى أى شيء زهدت •

وفى مناسبة قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا يا رسول الله : هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم التجافى عن دار الغرور ، والانتابة الى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله • وكان سيدي ابراهيم بن أدهم رضى الله عنه يقول : قد حجب قلوبنا بثلاثة أعطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب ، الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح •

والمقام السابع من مقامات اليقين هو مقام التوكل وهو من أعلى المقامات ، وكفى المتوكلين شرفا ان يقول الله تعالى فيهم (ان الله يحب المتوكلين) وأن يقول (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه ومعنيه عن سواه •

ويقول الامام سهل التستري رضى الله عنه : ليس فى المقامات أعز من التوكل ، وقد ذهب الانبياء بحقيقته وبقي منه صباة انتشقتها الصديقون والشهداء ، فمن تغلق بشيء منه فهو صديق أو شهيد • والمتوكل غنى بيقينه فى الله تعالى ، وفى الخبر : كفى باليقين غنى •

ويقول السادة الصوفية : احتجب سبحانه عن العموم بالاسباب فهم يرونها ، وحجب الأسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونه جل وعلا ولا يرونها •

والمقام الثامن من مقامات اليقين هو مقام الرضا ، وقد كان عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القضاء ، ويقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

مذ رأونى اهيم فى الله صبا
ادخلونى فى الحكمة الميـدانا
علمونى كيف المسير الى الله
وقالوا خذ الرضا تيجانا

ويروى السادة الصوفية حديثا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وان رضى اصطفاه » ويقول الامام سهل التستري رضى الله عنه : حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله • وقد قدم سيدنا سعد بن أبى وقاص الى مكة فجاءه الناس يهرعون يسأله كل واحد أن يدعو له لانه كان مجاب الدعوة (حيث دعا له مولانا رسول الله عليه وسلم بذلك حين رمى سعد بأول سهم فى الاسلام فقال صلى الله عليه وسلم « اللهم سدد رميته واستجب دعوته ») فقال له عبد الله بن السائب : يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال : يا بنى قضاء الله عندى أحسن من بصرى ، فانظر رعاك الله كيف بلغ به رضا بقضاء الله •

والمقام التاسع من مقامات اليقين هو مقام المحبة • ويقول العارفون ان المحبة هى ايثار الله تعالى على ماسواه ، كما يقولون : ان ظاهر القلب محل الاسلام ، وان باطنه مكان الايمان ، ومن هنا تفاوت المحبون فى المحبة لفضل الايمان على الاسلام وفضل الباطن على الظاهر • ومن علامة المحبة متابعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاقوال والافعال والاحوال لانه تعالى يقول (قل ان كنتم تحبون الله

فاتتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فانظر كيف قرن سبحانه محبته لعبده بمغفرة الله ورحمته • ومتابعته صلى الله عليه وسلم تقتضى من المؤمن قطع العلائق والعوائق فى سبيل الله • وتستبين المحبة بترك المخالفات ، ولاتبين بكثرة الأعمال وقد قالوا أعمال البر يعملها البار والفاجر ، والمعاصى لا يتركها الا صديق •

ويقول سيدى ابراهيم بن ادهم رضى الله عنه : قلت يارب « ان كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضربى القلق ، قال : فرأيت فى المنام أنه أوقفنى بين يديه فقال : يا ابراهيم أما استحييت منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقاءى؟ وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ أم هل يستروح الحب الى غير مشوقه ؟ قال : قلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاعف عني وعلمنى كيف أقول ، فقال : قل اللهم رضى بقضائك ، وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شكر نعمائك •

اللهم اجعلنا بفضلك ممن قلت فى وصفهم (يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) ••

الذاكرات بين الأحوال والمقامات

« اذا ترقى الذاكر اشد الهامه ، وبترقى بعد الأحوال الى مقامات القرب حتى يتحول في النظر من الدنيا الى الآخرة ، فلا يكون بينه وبين الله حجاب ، بل تكون روحه مع الله تعالى فلا يرى غيره » •

ذلك من بعض ما كتب به سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصديق الصالح المبارك السيد / سالم جمعه مد الله في عمره ، وهى كلمات طيبة تدلنا على فضل ذكر الله تعالى وأثره في أرواح الذاكرين ، كما تكشف لنا عن بداياتهم ونهاياتهم فهم يستمعون قوله تعالى (فاذكرونى) فيتبعونه فيرون حلاوة الاتباع قوله تعالى (أذكركم) وما أحسن البداية وما أسعد النهاية ، وأين ذكرنا من ذكره ؟ وأين عملنا من أجره ؟ فتعالى الله الفعال لما يشاء •

وما أروع ما يقول سادتنا الصوفية ناصحين للمريد — يا هذا حفر النهر اليك ، واجراء الماء ليس عليك ، احفر ساقية (فاذكرونى) الى جنب بحر (أذكركم) فاذا بلغ اليها معول الفكر ، فاضت عليه مياه البحر ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، ألق بذر الذكر فى أرض الخلوة ، وشق اليه ساقية من ماء الفكر لعلها تنبت شجرة : « أنا جليس من ذكرنى » ويقول المحب الذاكر :

يرنحنى اليك الشوق حتى
أميل من اليمين الى الشمال
كما مال المعافر عاودته
حميا الكأس حالا بعد حال
ويأخذنى لذكركمو ارتياح
كما نشط الأسير من العقال

ويذكرنى ذلك قول سيدى وشيخى الشيخ على عقل نور الله ضريحه فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

وقفت على نجوى الاله جوانحى
لذلك قلبي منزل كله ذكر
وأخليت قلبي من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزلله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطق اجلالا وما عاقنى سير
ففى صحتى شوق وفى غفوتى هوى
وفى مشييتى علم وفى وقفى سر

وقد جاء فى الخبر : ان لله فى كل يوم صدقة يمن بها على خلقه ،
وما تصدق على عبد بصدقه أفضل من أن يلهمه ذكره .

وفضائل ذكر الله تعالى أكثر من أن تعد ، وقد حض القرآن الكريم ،
كما حضت السنة الشريفة على الاكثار من ذكر الله سرا وجهرا ، ولذلك
جعل السادة الصوفية - على اختلاف طرقتهم - ذكر الله تعالى منخلا
للتربية الصوفية العالية فجنى منه المريدون أطيب الثمرات فى أسرع
الأوقات ، وقد شاهدنا ذلك عمليا بالتجارب التى رأيناها رأى العين ،
والتصوف يقوم على التجربة والعيان ولا يقوم على الدليل والبرهان .

ويقول سيدى أبو سعيد الخراز ، اذا أراد الله أن يوالى عبدا من عبده
فتح له باب ذكره ، فاذا استلذه فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه الى
مجالس الأنس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ،
وأدخله دار الفردانية ، وكشف له الجلال والعظمة ، فاذا وقع بصره على
الجلال الحق والعظمة بقى بلا هو (أى فنيت مراداته فى مرادات ربه
فرضى بما يختاره له ربه) .

وهذا الذى قاله سيدى الخراز يفسر لنا سر السبق الذى أثبتته مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم للذاكرين فى قوله لأصحابه « سيروا ،
سبق المفردون (بتخفيف الراء المكسورة وتشديدها) قيل : من المفردون ؟
قال المستهيمون بذكر الله (أى المولعون كثيرا بذكره سبحانه) وضع
الذكر عنهم أوزارهم ، يردون القيامة خفافا » ويؤيد هذا الحديث الشريف
قول الله تعالى (.. والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة
وأجرا عظيما) وانك اذا تأملت فى الآية كلها أيقنت أن مقام الذكر توج
كل المقامات التى سبقته فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب (ان المسلمين

والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما (فمع علو المقامات التسعة جاء الذكر فوقها مع أنه عاشر مقام فيها وهو ما يفيد سبق الذاكرين ، كما يفيد أنهم لا يصلون الى مقام السبق الا بعد التحلى بكل تلك المقامات الكريمة التى عددها الآية العظيمة •

ويبدأ المريد تربيته الصوفية بالتوبة ، وهى عند السادة الصوفية ليست باللسان كتوبة العوام الذين يتوبون ثم يعودون لما تابوا منه ، بل استغفارهم هو الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة ، فلاستجابة أعمال الجوارح ، والانابة أعمال القلوب ، والتوبة اقباله على مولاه وترك الخلق ، ثم يستغفر من نقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر ، فعند ذلك يغفر له ربه ويكون عنده مأواه •

ثم ينتقل الى الانفراد ، ثم الثبات ثم البيان ، ثم القرب ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاتة ، ثم محاذئة السر وهو الخلعة ، ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر ثوامه ، والرضا زاده ، والتفويض مراده ، والتوكل صاحبه ، ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش •

هكذا قال الامام سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه ، وكان يقول :

العبد لا بد له من مولاه على كل حال ، وأحسن حالة أن يرجع اليه فى كل شيء : اذا عصى يقول يارب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ، فاذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة ، فاذا عمل قال : يارب تقبل منى •

ويعنى السادة الصوفية فى تربية المريدين بتهوين الدنيا فى قلوبهم ، وان كسبت أيديهم الأموال ، وعندهم أن الدنيا قنطرة ، ولا يمكن استيطان القنطرة ، ويقول قائلهم فى ذلك :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خائته فروج الأصابع

وهم يقتبسون ذلك المشرب من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فان الله تعالى يقول مثلاً في سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا) فما كاد الزرع يخضر حتى يبس وصار هشيماً تذروه الرياح هنا وهناك ، لا دوام له ولا استقرار • وأما السنة فقد ورد فيها قوله صلى الله عليه وسلم : « من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء والزم الله تعالى قلبه أربع خصال : هما لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلا لا يتفرغ منه أبداً ، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً ، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً » •

وبعد التوبة وتهوين شأن الدنيا يعنى المريد بأمر الآخرة ويبدأ بصحبة شيخه المقيد بالشرعية والمؤيد بالحقيقة فيرشده الى ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنی التي يلقنها له ويبين له طريقة ذكرها وأدب الذكر وعدده ، فيذكرها باللسان ويراعى معناها بقلبه فيستثير قلبه شيئاً فشيئاً بأنوارها وخواصها وتقوى رابطة بربه ويشد حبه ويرقى في سلوكه من مقام الى مقام حتى يشهد بربه بعين يقينه ويذوق توحيده ويقول بلسان حاله : الهى أنت مقصودى ورضاك مطوبى •

ويتكلم سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى في كتابه القيم « السيرة الخيلية » على أسرار الذكر فيقول ما خلاصته :

من أسرار الذكر أن الذاكرين يتدرجون في مقامات السلوك والأدب فيجاهدون أنفسهم الامارة وقد قال صلى الله عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ، قال جهاد النفس » فيجاهدون أنفسهم في شهواتها وزغباتها حتى تستيقظ وتتجه الى الهداية فتصير لوامة تلوم نفسها على ما مضى وتثوب الى رشدها وتبوء الى الله تعالى بنعمة الاسلام والايمان ، ثم تصير بصدق العزم على الطاعة روحاً طيبة يلهمها الله فتفرق بين طريق الخير وطريق الشر (فألهمها فجورها وتقواها) وعندئذ يستثير القلب بتعريف من الله سبحانه (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فاذا خشي الذاكر بربه وخاف مقامه ونهى النفس عن الهوى واطمأن الى الله وخافه ورجاه ورجع في كل أحواله اليه واعتمد عليه وسلم له الأمور ، فلا يعرف سواه ولا يخشى الا اياه ، فاذا ذكر خشعت نفسه ، واذا تجلى عليها الحق

انتعشت ، فهي في القهر والبسط لا ترجو سواء فيرضيها برضائه عنها
فتعود مرضية برحمته وبمحض فضله تدخل في عبادة القائمين على ذكره
وترجع في الأخرى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا •

وقد تعرض سيدي الشيخ عبد السلام بعد ذلك للمقامات الشريفة
التي يتقلب فيها الذاكر المداوم على الذكر ، فتكلم عن مقامات المحبة
والاخلاص والمراقبة والخشوع والحياء والخوف والرجاء والتقوى والصبر
والزهد والتوكل والشكر وبسط الكلام على كل مقام منها ثم ختم كلامه
قائلا رضى الله عنه :

ومن صدقت نيته مع الله تعالى وتفكر في مصنوعاته وسلك سبيل
الصواب أورثه الله هذه المقامات فتكون فطرة فيه لا يتكلفها ويصير من
أولى الأبواب ويكون قلبه مصقولا مستعدا للتجليات الالهية وانفحات
الرحمانية متعرضا لها كما ورد في الحديث « ان لله في دهركم نفحات
فتعرضوا لها » •

ثم أضاف سيدي الشيخ قوله :

قال بعض الصوفية : التقلب في أطوار المقامات لعموم المحبين الذين
أنابوا الى الله وجاهدوا فيه فهداهم السبيل ، وطوى بساط الأطوار
لخواص المحبين وهم المحبوبون الذين اجتباهم ربهم فلا تقيدهم المقامات
ولا تحبسهم لأن بواطنهم صافية لا تحتاج الى ما يصفىها قال تعالى
(الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب) •

ويتكلم سيدي الشيخ بعد ذلك عن الأحوال فيقول ما خلاصته :

وإذا سلك العبد مسلك الصالحين وتدرج في مقامات السالكين وعامل
الله معاملة اليقين أصبح قلبه مسلکا للتجليات الالهية والعطايا الدنيوية ،
فقد قيل أن المقامات مكاسب والأحوال مواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب
والمكاسب محفوفة بالمواهب • والأحوال مواهب علوية وبسمائية
والمقامات طرقها — على أن المقامات والأحوال كلها مواهب ، وإنما قال
بعض الصوفية : كل ما كان عن طريق الأخذ بالأسباب بعمل العبد فإنه
كسب ، وما لاح من طريق المواجهات والأحوال فإنه وهب • وقد ذهب

بعضهم الى أن الأحوال لا تكون الا اذا دامت فأما اذا لم تدم فهي
طوالع ولوائح وبواده وهي مقامات الأحوال ويبست بأحوال *

وتعرض سيدي الشيخ بعد ذلك للأحوال من الحب والعشق والشوق
والأنس والبسط والقبض والتوحيد والوجد والجذب *

ويقول سيدي الامام أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه في الرسالة :
الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود
والمقامات تحصل ببذل المجهود ويعرف سيادته الحال فيقول انه معنى
يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن
أو بسط أو قبض أو شوق أو هيبة أو انزعاج أو احتياج * ويضيف أن
الأحوال كاسمها كما تحل في القلب تزول في الوقت وانشدوا :

لو لم تحل ما سميت حالا
وكل ما حال فقد زالا
أنظر الى الفء اذا ما انتهى
يأخذ في النقص اذا طالا

ثم يقول رضى الله عنه : وأشار قوم الى بقاء الأحوال ودوامها وقالوا
انها اذا لم تدم ولم تتوال فهي لوائح وبواده (من بدده اذا فجاها وبغته) *

ويقول العارفون : اذا بلغ المرید بالرياضة والارادة حدا ما عنت له
خلسات من اطلاع نور الحق عليه لذیذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد
عنه وهي التي تسمى عندهم أوقات ، وكل وقت يكسبه وجدا اليه ،
ووجدا عليه ، ثم انه تكثر منه هذه الغواشي اذا أمعن في الارتياض ،
ثم انه ليوغل في ذلك حتى يغشاها في غير الارتياض ، فكلما لمح شيئا
عاج منه الى جناب القدس ، يذكر من أمره أمرا ، فغشيته غاش ، فيكاد
يرى الحق في كل شيء (أى لأن الأشياء من آثار قدرته تعالى) *

ويقول السادة الصوفية : أن قيسا كان يدور في الأزقة ويقول :
أيا ليلي ، فلما أفرط كان يقول : ليلي ليلي ، دائما الا يخلط مع اسمها
شيئا ، واذا كان هذا ثمرة حب ليلي ، فيكف بمجنون الحب برب ليلي ،
ويذكرني ذلك ما قاله أستاذي العارف بالله سيدي الشيخ على عقل
في الهامه الارتجالي على سبيل الرمز :

لما علقت بليلى في مشاهدتى
قالوا بأنك يا مسكين مجنون
أجبتهم لا تلومونى على حرقى
فكانا ان تعشقنا مجانين

وما قاله مرة أخرى :

قالوا بأن الغرام يامن
يجب من شأنه الجنون
قلت أكفوا ليس ذلك حقا
ونحن بالله نستعين
ان كان حبيبى له جنونا
يا حبيذا ذلك الجنون

ويقول أحد الصوفية الأقدمين :

يا من يذكرنى بعهد أجبتى
طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث على من جنباته
ان الحديث عن الحبيب حبيب
ملا الضلوع وفاض عن أجنابه
قلب اذا ذكر الحبيب يذوب
مازال يخفق ضاربا بجناحه
ياليت شعرى هل تطير قلوب

وقال آخر :

خطرات ذكرى تستثير مودتى
وأحس منها فى الفؤاد ديبيا
لا عضولى الا وفيه صباة
فكان أعضائى خلقن قلوبا

واذا داوم المريد ذكر الله تعالى ورث محبته فورثته المحبة بدورها
سرور القلب بشهود جماله وهو ما يعرف فى اصطلاح السادة الصوفية
بالأنس ، فاذا أنس المحب بزبه استوحش مما يقطعه عن رحابه أو يشغله

عن موالاته وفي ذلك يقول أستاذي وسيدى الشيخ على عقل ارتجالا
من الهامه الفورى :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس
وجافيت أنسى فانحدرت الى الأنس
وأدركت بالوجدان سر أجبتي
وعاينت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أحفل بالورى
وكيف وقلبى هام فى مشهد القدس
وما اتخذت روحى سوى الله غاية
فتم الهدى للروح والقلب والحس

واذا تكلم السادة الصوفية عن الرياضة فانما يقصدون بها عدم الوقوع
فى رق المادة الى درجة تصرف المرید عن طلب الآخرة ، ويقدر
ما يطرح المرید الانشغال بالمادة من قلبه ، ثقة بربه الذى كفل الأرزاق ،
بقدر ما تصفو روحه فى جنب الله ، ولذلك قالوا ان الكافر يتمتع والمؤمن
يتزود ، فبينما يصرف الكافر همه للماديات والتقلب فيها ، يسخر المؤمن
المادة فى مرضاة ربه فينفقها فى القربات لا فى الشهوات ، لأنه يملكها
للحقوق لا للمحظوظ ، لأن المؤمنين يضعون فى اعتبارهم على الدوام قوله
تعالى (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) •

واذا عزف المؤمن عن كروب المادة الدنية واتجه بكلياته الى فيحات
الآخرة الرضية عوضه الله تعالى فرق بفضل الله وجدانه واشتد الهامه
وتولاه الله فى جميع أموره وذلك مصداق قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا
اذكروا الله ذكرا كثيرا • وسبحوه بكرة وأصيلا • هو الذى يصلى عليكم
وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) •
وقوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب
ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولا شك أن السادة الصحابة الأطهار
قد بلغوا فى حب الله ورسوله والتزام الطاعة الغاية التى لم يبلغها أهل
الأجيال التى تلتهم ، وقد رأينا أن الله تعالى قد علمهم بعد جهل ، وجمعهم
بعد فرقة وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وكانت كلمات الخلفاء
الراشدين فى خطبهم أو رسائلهم باهرة كأنها من مشكاة النبوة وما زالت
للخلف نبراسا يهتدون به الى الحق فى كدورات الحياة •

ويقول سيدى الامام الكبير الحارث المحاسبى رضى الله عنه وأرضاه
فى وصف سادتنا الصحابة رضى الله عنهم :

« وقد بانوا بفضل المعرفة على غيرهم والزيادة فى العمل بها لله جل
ثناؤه من طهارة القلوب ، وادامة الذكر ، وكثرة التقرب الى الله سبحانه
بالنوافل ، وبذل الطاقة والجهد نصيحة لأنفسهم ، وطلباً للحظوة عند
سيدهم .. فكانوا بذلك عن حركات الطبع متجافين متشاغلين ، وبكل
داع يدعوهم الى غيره مستثقلين ، وعن كل فترة تميل بهم الى الراحة
نافرين والى كل حاد يحذوهم الى الزيادة ساكنين ، وعلى العمل المقرب
لهم الى الله عاكفين .

« أمات العلم بالله لهم أهواءهم ، وغلب لهم أعداءهم ، وجمع لهم
شبهلهم ، وأحكم لهم أمرهم ، وكان التوفيق لهم صاحباً ، وخفى اللطف
من الله دائماً ، والتأييد لهم من سيدهم مرشداً .. فلم يكونوا للأوقات
مضيعين ، ولا باستجلاب ما كفوا متشاغلين ، ولا لما أحب الخلق
من الاستكثار محبين » .

وأنت ترى من ذلك الوصف شرح ما قاله سيدى الشيخ عبد السلام
فى عبارته التى وردت فى صدر المقال ، فان السادة الصحابة ترقوا الى
مقامات التقرب وصارت أرواحهم مع الله فلم يروا غيره سبحانه ،
فشغلهم به غما سواه وكفاهم ما اشتغل الناس به من أمر الدنيا الفانية
(بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) .

واذا كانت ثمار الطاعة الدائمة قد نضجت فى جيل السادة الصحابة ،
فإن الأجيال الذين جاءوا من بعدهم قد انتفعوا من بذور تلك الثمار اليانعة
فنالوا من خيراتها وبركاتها وتشبهوا (ثلة من الأولين . وثلة من
الآخرين) لا بل ان قلة من المتأخرين لحقت بالسابقين المقربين منهم
مصادقا لقوله تعالى (والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى
جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) .

وقد من الله تعالى على من فضله فسلك طريق السادة الصوفية
على مشرب الطريقة الخليلية لصاحبها العلم الأشهر والمجدد الأكبر سلطان
وقته سيدى الغوث الحاج محمد أبى خليل (وضريحه المبارك ملحق

بمسجده المعروف بالزقازيق) وسلكتها على يد خليفته الكامل العارف الربانى سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى (وضريحه المبارك ملحق بمسجده المعروف بقريه كفر تهرمس جيزة فرأيت فى أهمل الطريقة الخليلية تحقيقى ما يقوله سيدى الشيخ عبد السلام فى وصف أهل الله ، وكان هو وتلميذه العارف بالله الشيخ على عقل من أبرز الأمثلة المؤيدة لذلك الوصف وقد كشفت سلسلة « الصوفية فى الهامهم » عن شئ من أنوار النثر والشعر المأثور عنهما وان كانت شمائل رجال الطريقة العالية وصفاتهم الشامخة مستكنة فى جوانحنا بصورتها النورانية التى يحسها الوجدان ويعجز عن وصفها البيان •

وتتميز الطريقة الخليلية بغزارة الالهام فى سالكيها ، والالهام أثر ظاهر بينهم من آثار ذكر الله ذكرا كثيرا ، حيث لا يجد الذكر فيها بحد أعلى وإنما يذكر الذاكر ما وسعه الجهد ولو ذكر فى ليلة واحدة عشرات الألوف ، وليس الالهام عند السالكين وفقا على طائفة المثقفين بل يتعداهم الى غيرهم من غير المتعلمين كما شاهدنا ذلك مرارا ، فكنا نسمع شعرا رقيقا على البديهة من المرحوم السيد / أحمد السخاوى وكان نجارا ، ومما سمعناه منه منشدا على مجلس الذكر الهاما وارتجالا قوله رحمه الله :

يا نسيم الصبح هل خلت رشا
شبه نجار بقادوم يدق
قال انى خلته فوق السماء
يستقى الأسرار من رب الفلق

وكذلك كان مما قال :

فقابلنى المختار فى عالم السما
فقلت عجيبا جئت من أرض طيبة
فقال بلا عجب أنا أصل ذا الورى
ترانى بعين الحب فى كل بقعة

ومن الهام المرحوم السيد رضوان عثمان رحمه الله قوله :

أيها العذال مهلا
اذ رأيتم ما يريب

لو لقيتم ما لقينا
 ما علمتم ما علمنا
 لا ترجعتم من قريب
 خالفنا بالله حال
 سرنا سر عجب
 كل من ينكر هذا
 فهو أعمى لا يصاب
 قم بجنح الليل وأصل
 وأشهد الحق الحبيب
 ثم كن لله أذنى
 قد أتى وقت المشيب
 واستمد الله عفوا
 واسخ بالدمع الصبيب
 واذكر المولى دوامنا
 ثم قل أنى منيب
 كيف يغوى من دعاه
 من دعاه لن يخيب

ومن الهام المرحوم المهندس الزراعى السيد / محمد لطفى خشبة
 رحمه الله قوله :

وعن شيخى أخذت السرغضا
 وجلى لى الكنوز النادرات
 ولم أك غير مزممار وشيخى
 هو الموجى بتلك البساعات
 وعنه كم شسدا غيرى فأشجى
 وجساء بكل أى معجزات
 وإن خاض العلوم تجده بصرا
 تدفق فى المعانى الفائقات
 مواهب للخليل زهت وفاضت
 على الإتبساع غرا فاخرات

ومن الهامه نثرا رحمه الله :

الهي : واجعل علمي بك علم المتأدبين الموفقين لطاعتك . لا علم المتكبرين
المنسلخين بعد رؤية جليل آيتك .

الهي : واحيني بك حياة من أردته لك وخصصته بمحبتك . وكلمته
مع نقصه فاستوى بك دالا على حفي مودتك ، وقربني - رغم عصياني -
اليك لأكون آية ناطقة على كريم منحتك ، ومظهرا من مظاهر جودك
المتدفق ، وبرهانا لأهل الصفو من خاصتك ، وحتى أعلم ويعلموا أن المرد
في وصلك إنما هو بمواصلتك ، وإن التوفيق منك والقبول لا يكون الا
بمشيئتك ، وأن عنايتك اذا تبدت فالشقى سعيد ، ولمحات قربك ان
تجلت وصلت العاني الطريد .

ومن الهام المرحوم السيد / على السيد قوله رحمه الله وكان من حملة
الشهادة الابتدائية :

لله در أبى خليل أنه
شيخ قد ازدانت به الأرجاء
شهد الزمان بفضله وبأنه
هو للنفوس الدرة العصماء
أحيى المكارم والفضائل عصره
وانهل وأبله وفاض الماء
ما دون معرفة الاله سعادة
كلا ولا دون الوصول هناء
صلى الاله على الذى من أجله
خلق الوجود وتمت النعماء

ومن الهام المرحوم الشيخ مساعد بكر وكان رحمه الله من عمد
الريف قوله :

هدانى الهوى حتى وصلت الى الرحب
وهذب قلبي فى مشاهد ربي

ولما ارتقت روحى لحي جنابه
أفاض لها سرا يحققه قلبى
فقلت لأهل الحب هيموا صباية
يفوز بفضل الله من طاف بالغيب
ترانا نؤاخذى الناس لكن قلوبنا
مع الله لا تلهى بأهل ولا صحب
سكارى وما كنا سكارى وانما
نغيب من الاجلال فى ساحة الجذب
سعت بالرضا روحى الى العرش ساعة
لقيت بها عند المهيمن ما يسبى
فعلمنى مما رأيت سرائرا
تفيض لروحي حيث قد رفعت حجبي
فما أنا الا نفحة أحمدية
تجلت باسم الله فى الشرق والغرب
ومن الهام المرحوم الشيخ محمد البسطويسى قوله رحمه الله وكان
مأذونا بالريف :

تفاجيه والأرواح تسجد هيبة
لعزته العليا بعرش الحقيقة
ولى نهضة العشاق فى كل مجمع
ولى نشوة الأشواق فى كل حالة
فلولا هواها ما تولانى الهوى
ولولا رضاها ما رضيت بذلتى
أتية ولاء تحت ظل لوائكم
وفى مشهد النجوى حمدت هدايتى

وإذا علم القارئ العزيز أن مستوى ثقافتهم لم يكن يهيئهم لأن يقولوا
مثل هذا الكلام العذب أدرك أن الهامهم آية من الآيات التى أيد الله بها
شيخ الطريقة وهو سيدى الغوث الحاج محمد أبو خليل رضى الله عنه .
ومع كثرتهم وكثرة من سمعت بنفسى منهم فانى لم أجد ظاهرة الالهام
المتدفق أغزر مما كان يلهم به فى كل وقت من ليل أو نهار سيدى العارف
بالله الشيخ على عقل فكان رضى الله عنه أشهر وأذكر من عرفه الناس
فى هذا المقام فكان كالشمس اذا طلعت، اختفت فى نورها الكواكب وكان

سیدی الشیخ أبو خلیل یمزح معه ویقول له « قول یا علی یا بنی انت
هاتجیب حاجة من بیت أبوک ؟ ویرد سیدی الشیخ علی الفضل الی ربه
ببرکات شیخه فیقول :

کل شیء ینتهی فی موتہ
غیر سر اللہ عندی ما نفع
لی خلیل کلمہ املته
جاءنی الفیض اذا مسح المہدد
کلمہ قد زاغ قلبی قال لی
یا معنی قل هو اللہ أحد

الا رضی اللہ عن سیدی الشیخ أبی خلیل الذی سلك بتابعیه سبیل
الهدی علی منهج الشرع الشریف ، فنأی بهم عن مواطن الضلال والردی ،
فکان له فضل الدلالة والارشاد ، وکان لهم ثمرات السلوک الصحیح ،
جعلنا اللہ من المحسویین علیہ والمنسویین الیه والمحسورین فی زمرته تجت
لواء سید المرسلین يوم یقوم الناس لرب العالمین ویتحقق قوله تعالی :
(يوم ندعو کل أناس بامامهم فمن أوتی کتابه بیمنه فأولئک یقرءون
کتابهم ولا یظلمون فتیلا) •

كل شيء بقضاء وقدر

« ان الله فطر الناس كما يريد ، فسبحان من أَرْضَى العبيد ، له الجنة وله النار ، قوله الحق وله الملك ، وهو على كل شيء قدير ، لا مانع لما أعطى وما منعه الا بما قدر ، » انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . »

جاءت تلك السطور في رسالة بعث بها شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح المبارك الصديق السيد / سالم جمعه زاده الله فضلا وهى تدور حول الرضا بما يجرى به القضاء فى المنع والعطاء لانه تعالى هو الفعال لما يشاء ، وكل شيء عنده بمقدار ، ولا يقع فى ملكه الا ما أراد ، لانه مالك البلاد والعباد ، والضلال والرشاد ، ماشاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وليس للعبد أن يعترض بقلبه أو بلسانه على ماشاء ، لان ايمانه بالله يقتضى التسليم المطلق لصاحب السلطان الذى لا شريك له . وقد جاء فى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول جمعة صلاها بالمدينة المنورة : « قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا اعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ، وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ولا قوة الا بالله ، فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فانه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة الا بالله العلى العظيم . »

وليس معنى التسليم بالقضاء ومواقع المقدور أن يترك الانسان العمل اتكالا على ما جرى به المقدور ، فان الغيب لله طواه عنا ، واستقل بعلمه سبحانه ، فلا يحيط العباد بشيء منه الا بما شاء ، وقد كلفنا جل وعلا أن نعمل ، ويوم القيامة يسألنا عما كلفنا ولا يسألنا عما

قضاء وطواه جنا • فوجب علينا أن نكون كالزارع يبذر البذور ويترك
إليه مآلها أن شاء أنبتتها وأن شاء أمانتها ، وأن شاء بارك ثمرتها وأن شاء
قللها ، وهذا ما يكشف لك عن معنى قوله تعالى (أفأرأيتم ما تحرثون •
أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم
تفكهون • انا لمعرومون • بل نحن محرومون) •

ومن ذلك ندرك أن اتخاذ الاسباب بالعمل واجب على المؤمن ،
ولكن ينبغي أن يقرن هذا الواجب بواجب آخر يستدعيه إيمانه بربه
وهو أن يشهد من وراء حجب الغيب عون الله تعالى وفضله وأثره ،
فلا يعتمد على عمله أو علمه وحده فينتسبه بقارون حين غره ماله الكثير
وأنكر فضل الله عليه بكفره وقال (إنما أوتيته على علم عندي) فكانت
عاقبته كما حكى الله في سورة القصص (فخسفنا به وبداره الأرض
فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين •
وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن
يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح
الكافرون) •

وفي حين يقول تعالى (يختص برحمته من يشاء) بين سبحانه طريق
الوصول إلى رحمته فقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين)
وبذلك أسقط حجة الكسالى الذين يتعللون بقضاء الله وقدره ليعفوا
أنفسهم من العمل جهلاً بالدين الذي فرض علينا العمل ووعدها الأجر
عليه فقال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون
وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) كما
قال الله تعالى (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)
كما يقول سبحانه (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فأولئك كان سعيهم مشكوراً) فيجب أن يكون المؤمن في دينه ذا عينين ،
فينظر بعين الشريعة إلى أوامر الله ونواهيه ، فيأتمر بما أمره الله
وينتهى بما نهاه عنه ، وينظر بعين الحقيقة إلى قضاء الله فيرضى بواقع
المقدور ويسلم لربه فيما قضاء وحكم به ، فلا يصدده الشيطان بالسخط
على المقدور عن العمل بطاعة الله كما يحب الله •

وعن ابن عباس قال ، قال عمر بن الخطاب : قرأت الليلة آية
أسهرتني (أيود أجدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) ما عني ؟

فقال بعض القوم : الله أعلم ، فقال : انى أعلم ان الله أعلم ولكنى سألت ان كان عند أحد منكم علم وسمع فيها بشيء أن يخبر بما سمع ، فسكتوا فرأى وأنا أهمس ، قال : قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك ، قلت : عنى بها العمل ، قال : وما عنى بها العمل ؟ قلت : شيء القى فى روعى فقلته ، فتركنى واقبل وهو يفسرها : صدقت يا ابن أخى ، عنى بها العمل ، ابن آدم أفقر ما يكون الى جنة اذا كبر سنه وكثرت عياله ، وابن آدم أفقر ما يكون الى عمله يوم القيامة ، صدقت يا ابن أخى •

وتلك الآية التى يشير اليها ابن عباس رضى الله عنهما وردت فى سورة البقرة وهى بتمامها (أيود احدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) وقد جرت الآية السابقة عليها هكذا (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأكثت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) ويقول الامام القشيري فى لطائف اشاراته بعد الآيتين الكريمتين :

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والخالق ان أنفق ماله فى سبيل الله ، ولن أنفق ماله فى الباطل ، وهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء لا يحصل لهم فى الحال الا الرد وفى المال الا التلف ، وهؤلاء ظل سعيهم مشكورا وهؤلاء يدعون ثبورا ويصلون سعيرا ، هؤلاء تركوا أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حبطت أعمالهم وخسرت أحوالهم وختمت بالسوء أعمالهم ويضاعف عليهم وبالهم •

ويقول الامام الحارث المحاسبى فى وصف عباد الله المقربين :

ان أنعم عليهم شكروا ، وان منعوا صبروا ، اذاقهم الله طعم محبته ، ونعمهم بدوام العذوبة فى مناجاته ، فقطعهم ذلك عن الشهوات ، وجانبوا اللذات ، وداموا فى خدمة ملك الارض والسموات ، قد اعتقدوا الرضا قبل وقوع القضاء ، طاب والله عيشهم ، ودام نعيمهم ، فعيشهم سليم وغناهم فى قلوبهم مقيم ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب

الى محبوب الغيوب ، فقطعوا كل محبوب ، فصار الله جل جلاله هو
المنى والمطلوب •

ويبين لنا العارفون أن الشريعة كالسفينة ، والطريقة كالبحر ،
والحقيقة كالدر ، والشريعة هي أن تعبد الله ، والطريقة هي أن تقصده ،
والحقيقة هي أن تشهده ، فالشريعة هي اتباع ما أمر الله به ورسوله ،
والطريقة هي اتخاذ النقيض وما يقربك الى المولى ، والحقيقة هي الوصول
الى المقصد ومشاهدة نور التجلي • كما قيل في الصلاة انها خدمة
وقربة ووصلة ، فالخدمة في الشريعة والقربة في الطريقة والوصلة هي
الحقيقة ، والصلاة جامعة لهذه الخصال الثلاثة •

وقال العارفون ان المريد في سفر ، فهو يسافر من النفس الى القلب ،
ومن القلب الى الروح ، ومن الروح الى السر ، ومن السر الى خالق
الكل ، ومسافة هذا السفر بعيدة جدا بالنسبة للنفس وقريبة جدا
بالنسبة الى الله تعالى ، وليس بيننا وبين الله مسافة نقطعها بل هي
حجب اذا زالت عنا غشاوتها أبصرنا الحقيقة من ورائها فوصلنا الى
حضرة نشهد فيها ونتحقق ألا فاعل الا الله • ويقول العارفون ان
طهارة الشريعة بالماء ، وطهارة الطريقة بالتخلية عن هوى النفس ،
وطهارة الحقيقة خلوة القلب عما سوى الله • وهم يقولون بحق : لو
رأيت شخصا يطير في الهواء أو يمشى على البحر أو يأكل النار وهو
يترك فرضا من فرائض الله تعالى أو سنة من سنن النبي صلى الله
عليه وسلم فاعلم أنه كذاب في دعواه وليس فعله كرامات بل هو سحر •
ويقول الامام المرسى أبو العباس رضى الله عنه : ليس الشأن أن تطوى
لك الأرض فتصير في مكة أو غيرها من البلدان ولكن الشأن أن تطوى
لك أوصاف نفسك فتصير مع الله •

ويقول سيدى الامام أبو طالب المكي رضى الله عنه في كتابه القيم
قوت القلوب : الرضا عن الله تعالى من أعلى مقامات اليقين بالله ، وقد
قال تعالى (هل جزاء الاحسن الا الاحسان) فمن أحسن الرضا عن
الله جازاه الله بالرضا عنه ، فقابل الرضا بالرضا ، وهذا غاية الجزاء
ونهاية العطاء وهو قوله عز وجل (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقد
كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول : أصبحت ومالى سرور
الا في مواقع القضاء •

ويقول العارفون : ومن الرضا عند أهل الرضا الا يقول المعبود : هذا يوم شديد الحر والا هذا يوم شديد البرد ، ولا يقول : الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب ، بل يرضى القلب ويسلم ويسكن العقل ويستسلم بوجود حلاوة التدبير واستحسان حكم التقدير . وقد قال سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت ان كان الفقر فان فيه الصبر ، وان كان الغنى فان فيه البذل . وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ما أبالي على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء ، وقد قال مرة رضى الله عنه لأمراته عاتكة رضى الله عنها : والله الاسوأ لك ، فقالت : تستطيع أن تصرفنى عن الاسلام بعد ان هدانى الله له ؟ قال : لا ، قالت : فأى شئ تسوئنى اذن ؟ ويقول سيدي الفضيل بن عياض رضى الله عنه : اذا استوى عند المؤمن المنع والعطاء فقد رضى .

ويروى الامام أبو طالب المكي رضى الله عنه حديثا حسنا كالمسند عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك :

« اذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفه من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاعوا ، قال فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حسابا ، فيقولون : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا الصراط ، فيقال لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : نشدناكم الله ، حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانت فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بغضل رحمته ، فيقولون : وماهما ؟ فيقولون : كنا اذا خلونا نستحي أن نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا » .

وقد قال سيدنا لقمان عليه السلام لابنه في وصيته : أوصيك بخصال تقرئك الى الله وتباعدك من سخطه ، الاولى تعبد الله لا تشرك به شيئا ، والثانية الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت . وفي أخبار سيدنا داود عليه السلام : يا داود : ما لأوليائى والهم في الدنيا ، ان الهم يذهب حلاوة المناجاة من قلوبهم .

وقد جاء في الرسالة الوفية في الرد على منكرى الصوفية ومؤلفها
سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله
عنه أبيات من الشعر لوالده العالم أعارف سيدى الشيخ أحمد الحلوانى
الخليجى يقول فيها رضى الله عنه :

على كل الورى يجرى القضاء
وليس خلاف ما حتم القضاء
فليس يسوقنا الا القضاء
وليس يعوقنا الا القضاء
يحركنا يسكننا القضاء
يجمعنا يفرقنا القضاء
يقربنا ويبعدنا القضاء
يقدمنا يؤخرنا القضاء
يخلىنا ويخيننا القضاء
يعطينا ويمنعنا القضاء
وينطقنا ويسكتنا القضاء
ويطويننا وينثرنا القضاء
ويخفضنا ويرفعنا القضاء
ويقبضنا ويسطنا القضاء
ويحزننا ويبهجننا القضاء
ويكينا ويضحكنا القضاء
ويفقرننا ويعيننا القضاء
ويسقمنا ويشفيننا القضاء
ويلهمننا ويذهلننا القضاء
ويسلمنا وينصرنا القضاء
ويشقيننا ويسعدنا القضاء
ويحييننا ويفنيننا القضاء
وينشروننا ويحشروننا القضاء
 ويفصل بالقضاء فينا القضاء
فان وقع الجفا فهو القضاء
وان حصل الرضا فهو القضاء

فأنت الله منك لك القضاء
ومالسواك ينتسب القضاء
الهي* الطف بنا فيما القضاء
به يجري اذا انحتم القضاء

وقد وقع لى حادث فى شبابى كان له أثر شديد على نفسى ، فلجأت الى الله فى ضعفى أن يخففه بفضله عني ، واعتصمت بكتاب الله الكريم فقرأت ما نيسر منه ، وكان مما قرأته سورة الحديد فلما تلوت قوله تعالى فى تلك السورة (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير • لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) نزل هذا القول الكريم على قلبى بردا وسلاما فخلقت خلقا جديدا فبدل الله خوفى أمنا وجزعى صبورا وألمى أهلا وسبحان القائل (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ومن يومئذ اعتدت أن اتذكر الآيتين المذكورتين كلما نزلت بى نازلة أو أصابنى مكروه فأرضى بقضاء الله وقدره من غير تبرم أو سخط •

أقول ومع ايمان المؤمنين بالقضاء فان الله تعالى تعبدهم بالتكاليف الشرعية كما تعبدهم بالدعاء والالتجاء اليه فى الاضطرار والاختيار فقال تعالى (وقال ربكم ادعوني استجب لكم) كما قال تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء) وقال (واذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بى لعنهم يرشدون) ويقول سيدى الامام القشيرى تعقبيا على تلك الآية الأخيرة فى لطائف الإشارات :

سؤال كل أحد على حاله لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين ولا عن دنيا ولا عن عقبى بل سألوا عنه فقال تعالى (واذا سألك عبادى عني) وليس هؤلاء من جملة من قال (ويسألونك عن الجبال) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن اليتامى) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن المحيض) ولا من جملة من قال (ويسألونك عن الروح) ولا من جملة من قال (يسألونك عن الخمر والميسر) ولا من جملة من قال (يسألونك عن الشهر الحرام) •

هؤلاء قوم مخصوصون (وإذا سألك عبادى عنى) أى اذا سألك عبادى عنى فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وان كنت السفير بيننا وبين الخلق فهذا الجواب أنا أتولاه (فانى قريب) ثم بين أن تلك القربة ما هى : حيث تقدر الحق عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال (أجيب دعوة الداع) وان الحق قريب من الجملة والكافة بالعلم والقدرة والسماع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين بالنصرة واجابة الدعوة ، وجل وتقدر عن أن يكون قريبا من أحد بالذات والبقعة ، فانه احدى لا يتجه فى الاقطار وعزيز لا يتصف بالكنه والمقدار • وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) لم يعد اجابة من كان باستحقاق زهد أو الى زمان عبادة بل قال (دعوة الداع) متى دعانى وكيفما دعانى ، ثم قال (فليستجيبوا لى) هذا تكليف ، وقوله (أجيب دعوة الداع) وكأنه قال : اذا دعوتنى عبدى أجبتك فأجبنى أيضا اذا دعوتك ، أنا لا أرضى برد دعائك فلا ترض عبدى بردى من نفسك ، ثم قال فى آخر الآية (لعلهم يرشدون) أى ليس القصد من تكليفك ودعائك الا وصولك الى ارشادك » •

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

ففى افتتارى وتسالى ومد يدى
أقوى دليل على أن تقضى الاربا
لو لم تردنى لما أرجو وآمله
من فيض جودك ما علمتى الطلاب

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ليس كل امر كما يريد صاحبه ، ما قال لى لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله الا فعلته ، ولا قال فى شيء كان ليته لم يكن ولا لشيء لم يكن ليته كان » كان يقول « لو قضى شيء لكان » • وقد اختلف العارفون فى أى المقامات أفضل : عبد يحب الموت شوقا الى لقاء الله ، وعبد يحب البقاء للعبادة والخدمة ، وعبد قال : لا اختار شيئا بل أرضى ما يختار لى مولأى وان شاء أماتنى غدا ، قال فتحاكموا الى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضل بترك الاعتراض والاختيار ، فقد دخل دار (الدنيا) بغير اختيار ،

وكذلك يكون خروجه منها على معنى دخوله بلا اختيار ، لان مقام الرضا أعلى من مقام التشوق ثم الذى يليه فى الفضل الذى يحب الموت شوقا الى لقاء الله ، وهذا مقام فى المحبة ، وفى الخبر : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والذى يجب البقاء للخدمة وكثرة العبادة هو فاضل بعد هذين ، مقامه قوة الرجاء وحسن الظن فى حفظ الله ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل المؤمنين ايمانا ، أو قال « أكمل المؤمنين ايمانا ، من طال عمره وحسن عمله » لان الاعمال مقتضى الايمان ولان الايمان علم وعمل .

ويقول سيدى سفیان الثورى رضى الله عنه : منع الله عطاء ، لانه يمنع من غير بخل والا عدم ، فمنعه اختيار وحسن نظر ، لان حقيقة المنع انما يكون لمن لك عنده شىء فمنعك ، أو تستحق عليه شيئا فلم يعطك ، فأما من لا تستحق عليه شيئا ولا لك معه شىء فله الحق والأمر ولا يشرك معه أحدا ، والعبد لم يكن شيئا مذكورا ، فكل شىء اختاره فهو عطاء منه ، على تفاوت مقادير وضروب أحكام ، حلو ومر ، ولطف وعنف ، وشدة ورخاء ، فالصبر على الاحكام مقام المؤمنين ، والرضا بها مقام الموقنين (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

ويقول العارفون ان مقام الرضا فوق مقام الصبر والشكر . كما قالوا ان العصمة حال الراضى عن الله عز وجل ، وهى ظاهر الرحمة والرحمة أول الرضا من الله تعالى حيث يقول جل جلاله (ان النفس لأماراة بالسوء الا ما رحم ربه) وقال تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) فالعصمة من الله تعالى لعبده دليل على الرحمة منه ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة وهى رحمة المحبوبين ، ثم ترفعه المحبة الى الرضا .

ويقول سيدى وشيخى العارف بالله الشيخ على عقل طيب الله ثراه فى ذلك من الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

مذ راونى أهيم فى الله صبا
أدخلونى فى الحكمة المبدأنا
علمونى كيف المسير الى الله
وقالوا خذ الرضا تيجانا

نتنـادى الى اليقين هلمـوا
وبهـذا نربـنا نتـدانى
قد نشأنا على اليقين صغارا
وكبرنا وما جهلنا المكانا
وادخـرنا اليقين للحشر ذخرا
وملأنا من الثبات جنانا
ولبسنا من الحياء شعارا
وجعلناه فوقنا طيلسانا
قد علمنا أن المحبة كنز
كل من صانها سما بنيانا
كما قال رضى الله عنه الهاما لوقتـه يعلمنا الصبر على المكروه :
لولا التألم فى الحياة لما بدا
نور التأمل لامرئ قوام
لولا وقود النار فيما ينبغى
ما كان ينضج بعد أى طعام
ويقول السادة الصوفية : رضاء العوام بما قسم الله وأعطى ورضاء
الخواص بما قدره وقضاه ، ورضا خواص الخواص بالله تعالى عن
كل ما سواه • ويقول سلطان الموحدين سيدى على البيومى رضى الله
عنه :

كل له ورد يكون وسيلة
لمعاشته ومعاذة ومعاده
وجعلت وردى فى الخروج عن السوى
وأكون مع مولاي تحت مراده

وقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى أبى
موسى الاشعرى رضى الله عنه يقول : « أما بعد فان الخير كله فى الرضاء
فان استطعت أن ترضى والا فاصبر » • وقد استوى عند أمير المؤمنين
عمر الرضاء والبلاء فقال رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين
ما باليت ايما اركب •

ويعلمنا السادة الصوفية أن الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، ويقصدون بالصبر على العافية ألا يستعمل المؤمن نعم الله من قوة بدن ، أو جاه سلطان ، أو كثرة المال في متابعة هوى النفس ومخالفة أوامر الله ونواهيه ، فإن استعمال النعم في معصية الله كفر بنعمة الله ، والعبد مأمور بشكر الله ، والشكر يقتضى ألا يستعمل نعم الله في معاصيه ، وقد منح الله المنفقين في السراء والضراء فمدحهم بوصف واحد في الحالتين حالة اليسر وحالة العسر ، فلم يخرجوا باليسر عن طاعة الله ومرضاته عز وجل فهم يحرصون على محبة الله تعالى ، والحبيب لا يخالف • ومن حكم العارفين : لا تنظر الى صغر الذنب ولكن انظر الى عظمة من تعصيه •

كما يعلمنا السادة الصوفية ان في معرفة الله تعالى عوضا عن كل العلوم وليس في سائر العلوم عوض عن معرفة الله • وكل علم موقوف على معنومه ، فعلم اليقين معنومه الله تعالى ، ففضله كفضل الله تعالى على ما سواه • ولذلك قال بعض الحكماء : من عرف الله تعالى فماذا جهل ؟ ومن جهل الله تعالى فماذا عرف ، فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء ، لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى والدعوة اليه (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) ويحشرون يوم القيامة مع الأنبياء بدليل قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) •

وقد طلب بعض الناس الى سيدي الشيخ على عقل رضى الله عنه أن يأتي له انهما لوقتته بأبيات على وزن البيت التالي وقافيته :

الله قل وذر الوجود وما حوى
ان كنت مرتادا بلوغ كمال
فقال هورا :

الله قل ، وذر الوجود وما حوى
متأدبا في ساحة الاجلال
سلم لتسلم في حياتك انه
من لازم التقوى بما بظلال
واجعل لنفسك من قضا الله ارضا
حتى تكون موفيق الأعمال

فتشت كل الخلق عن علم فلم
أر لى سوى رب السما من وال
فتركيت كل العالمين وجئته
وجعلت ذكرى ذاته منوالى
ان كنت تحسب ان فى المال الغنى
أنا قد جعلت رضا المهيم مالى

وأطال رضى الله عنه حتى قال آخر الأمر :
فاجعل هداك شريعتى وذريعتى
واجعل شهودك لى مسرة حالى
ان مر بى عصف الزمان وقصفه
والله لست بما شهدت أبالى
أحبه وأخاف سطوة غيره
هذا وحقك لا تعيه خصالى
روض المحبة قد شهدت جماله
وجلاله فثبتت فى أحوالى
يا نفس انى لا ألوذ بغيره
قوى الى حوض الكريم تعالى
سئم لربك أمره وأترك له
أتمداره واحذر من الأقوال
وذر العباد وشأنهم وفعالهم
ان كنت مرتادا بلوغ كمال

ومما نقلناه من انشاده الفورى قوله رضى الله عنه :

أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتى
فلمست كبعض الناس أنسب للترب
وطهرت فى نجواك سر جوانى
فخلصتها من عالم البعد والحجب
رضاء الفتى بالله يشرح صدره
فلن يتأذى بالحوادث والخطب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا
شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب

وكذلك كتبنا عنه من الهامه الفورى :

حياة السورى حلو ومر وانما
حلا المر بالتوحيد من رقة الحس
وانك لسو عظمت دينك عالما
وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس
وكننت على الأحداث بالله راضيا
سواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدت من الدنيا بربك محسنا
ونلت من الأخرى العطاء بلا بخس
إذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى
وان قيل لى اشرب قلت انواره كأسى

وحسبك من هذا الذى قرأته أن تعلم أن السادة الصوفية ينتقلون
بيننا باجسادهم ويكونون مع الله بقلوبهم ، ويتعرضون لما يتعرض
له سائر البشر من البلى والمكاره ، لكنهم يصبرون حيث يجزع غيرهم
ويرضون حيث يسخط غيرهم ، لانهم فهموا عن الله وأدركوا أن القضاء
قضاؤه والحكم حكمه ، فلم يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضاه ،
(أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الأناب) •

الإنسان وعمله

« وكل فرد مسئول عن عمله ، فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون ، الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله ، فلا أنا مسئول عن عمى ابن أبينا آدم ولا خالى أخو بنت أمنا حواء مسئول عنى » *

جاءت تلك الكلمات في رسالة من رسائل سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه وأخى فى الله الصديق الصالح السيد / سالم جمعة متعه الله برضاه ورزقه العفو والعافية ، وهى تشرح لنا معنى قوله تعالى فى سورة الاسراء « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » ولئن كان الناس جميعا من أصل واحد وهو آدم وحواء عليهما السلام الا أنهم افترقوا فى المسالك فمنهم مؤمن وكافر ، ومطيع وعاص ، وسعيد وشقى ، ويوم القيامة يجرى حسابهم وجزاؤهم ، فلا يجرى والد مؤمن عن ولده الكافر ، ولا المولود المؤمن عن والده الكافر ، لأن الانساب لا تنفع مع قطع الأسباب ، والكفر قاطع للأسباب مع قيام الأنساب ، ودليل ذلك واضح فى كتاب الله عز وجل فقد قال سيدنا نوح عليه السلام شافعا لابنه الذى استحب العمى على الهدى « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » فقال تعالى ردا على هذه الشفاعة فى سورة هود « يا نوح انه ليس من أهلِكَ انه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم انى أعظك أن تكون من الجاهلین » قال سيدنا نوح عليه السلام فى أدب المرسلين الكرام « قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » • فكرمه ربه قائلا : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » •

فانظر رعاك الله كيف فرق الله بين مآل الايمان ومآل الكفر ، وكيف قطع الله صلة الذم بالكفر الذى أصر عليه ابن سيدنا نوح فلم يقبل فيه شفاعه أبیه وعلا ذلك بقوله الكريم « انه عمل غير صالح » ، ثم انظر كيف حذرنا الله بهذه القصة فى خطابه الكريم لمولانا رسول الله

صلى الله عليه وسلم فقال بعد ذلك في السورة ذاتها « تلك من أنباء الغيب
نوحينا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة
للمتقين » والتقوى لا تقوم الا على أساس الايمان المتين ، ولقد أسس
المنافقون مسجد الضرار بالمدينة المنورة وظنوا أنهم يستترون بالمسجد من
نفاقهم وسوء طويتهم فكشف أمرهم لمولانا رسول الله ونهاه عن أن يقوم
فيه ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بهدمه ويحكي الله
تعالى في سورة التوبة قصة ذلك المسجد في قوله تعالى « والذين اتخذوا
مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله
من قبل وليحلفن ان أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون • لا تقم
فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه
رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين • أفمن أسس بنيانه على
تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار
به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين • لا يزال بنيانهم الذي
بنوا ريبة في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » •

« ويحكي السادة الصوفية في مقام الايمان أن بعض السلاطين زار
ضريح سيدي أبي يزيد البسطامي رضى الله عنه وقال : هل هنا أحد
من اجتمع بأبي يزيد ؟ فأشاروا الى شيخ مسن كان حاضرا هناك ، فسأله
السلطان : هل تذكر شيئا مما قال أبو يزيد ؟ قال : نعم ، انه قال من
زارني لا تحرقه النار ، فعجب السلطان من ذلك الكلام وقال : كيف يقول
أبو يزيد ذلك وأبو جهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم وتحرقه النار •

فقال الشيخ للسلطان معلما : أبو جهل لم ير النبي صلى الله عليه
وسلم انما رأى « يتيم أبى طالب » ولو رآه رسولا كريما ، صلى الله
عليه وسلم ، ما كان من أهل النار ، فأعجب السلطان بكلام الشيخ ، وفهم
أن العبرة ليست برؤية العين انما هي بالايمان والتصديق والاتباع •

وأفضل النعم وأجلها نعمة الايمان بالله تعالى ، ثم نعمة الرسول
وتصديقه ، ويترتب على التصديق الانتفاع بالكتاب والسنة والجماعة ،
فنكون في أمة الاجابة التي قال تعالى في شرفها « كنتم خير أمة أخرجت
للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » • ويقول
الامام سهل التستري رضى الله عنه •

خص بمعرفة النعم وبمعرفة عظيم حلم الله تعالى وستره الصديقون، وقد قال تعالى وهو أصدق القائلين : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم » فتتمت النعمة بوصفية اللذين هو لهما أهل من المغفرة والرحمة . ثم قال تعالى في الانسان « ان الانسان لظلوم كفار » فالعبد أهل للظلم والكفر الى أن يجود عليه ربه بالتقوى والمغفرة بقديم ما به تولاه ، فبنعمته أطاعه العاملون ، ومن نعمته جازاهم ، وبنعمته ستر على الجاهلين وحلم عنهم ، ومن نعمته اظهر الجميل وستر القبيح ، فلا ندرى أى النعمتين أعظم جميل ما أظهر أو قبيح ما ستر ، وقد مدحه المادحون بالوصفين معا في الدعاء المأثور : يا من أظهر الجميل وستر القبيح .

ويروى الامام أبو طالب المكي عن بعض السلف : يقول الله عز وجل ان عبدا أغنيته عن ثلاث فقد أتممت عليه نعمتي : عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما في يد أخيه . وردت النعمة الى الله من فقه المؤمن بدينه فانه اذا رد النعمة الى الله لم يمن على ربه بعمل صالح يوفق اليه من فضل الله ، وصدق الامام ابن عطاء السكندري رضى الله عنه حين يقول في حكمه : اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب اليك وهو في حكمته هذه يستنير بقوله تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » .

ومن نعم الله علينا أن جعلنا في الايمان مسئولين عن أنفسنا فلا يأخذ الوالد بكفر أبيه ولا يأخذ الوالد بكفر ابنه بل « كل امرئ بما كسب رهين » وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقد اشترك عبداً في اسم المعصية ثم تباينا في الاجتناء والعصمة فتاب الله على سيدنا آدم عليه السلام حيث قال تعالى في نهاية أمره « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » وكانت نهاية ابليس « فأخرج منها فانك رجيم . » وان عليك اللعنة الى يوم الدين « ونعوذ بالله من غضب الله ومن سوء الخاتمة » .

والايمان علم وعمل يزيد وينقص ، وليس المقصود بزيادته ونقصه جوهره وانما متعلقاته من العبادات والمعاملات ، وخير المسلمين ايماناً الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار ، وقد سمي الله المهاجرين باسم الصادقين وسمى الأنصار بالمفلحين ، رضى الله عنهم أجمعين ، وترى

ذلك في سورة الحشر في قوله تعالى « للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون • والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وتدرك من الآيتين ما كان بين الفريقين من مودة وتراحم برابطة الأخوة في الله فقد اجتمعوا على كلمة التوحيد وكانوا أحق بها وأهلها فجعلتهم يدا واحدة وقلبا واحدا على من سواهم كما وصفهم الله في قوله تعالى « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » •

ولم يقف الترابط في الله عند المهاجرين والأنصار بل تعداهم الى من جاءوا بعدهم فقال تعالى في ذلك الترابط الدائم « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » ومن آثار المحبة في الله أن يحسن المؤمن ظنه بأخيه ولا يحسده على نعمة الله بل يشيد بها ، وقد سئل امامنا على بن أبى طالب أن يصف أصحابه ، فقال عن أبيهم تنسأون ؟ قالوا عن سلمان ، قال أدرك علم الأوائل والأواخر : قالوا : فعمار ؟ قال ملئ ايمانا الى مثاشه ، قالوا : وحذيفة ؟ قال صاحب السر أعطى علم المنافقين ، قالوا فأخبرنا عن نفسك ، فقال متحدثا بنعمة الله : اياي أردتم ؟ كنت اذا سألت أعطيت ، واذا سكت ابتدئت ، أى اذا سأل الله أعطاه ، واذا سكت لم يحرمه من فضله •

ومع فضل كلمة التوحيد في الدنيا والآخرة ، فان المؤمن مطالب بعدم الصالحات وترك السيئات والا عرض نفسه للنار التي أعدها الله للكافرين « وانتقوا النار التي أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » • وقد أخرج الطبراني بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم اذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء من أهل القبلة قال انكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الاسلام وقد صرتم معنا في النار ، قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله

صلى عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » انظر • تلك آيات الكتاب وقرآن مبين • ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين •

وقد خاف السادة الصوفية عاقبة المعاصي ، لأنها تعرضهم لغضب الله وهم يرجون رضاه ، ويطمعون في عفوه وحسن جواره وهم لذلك يكثر في حياتهم الدنيا من ذكر الموت وما بعده ، حتى تنتزع بالخوف نفوسهم فتأتمر بأوامر الله وتنتهي بنواحيه سبحانه ، ومن خاف الله في الدنيا أمن من عذابه في الآخرة لأنه تعالى لا يجمع على عبده خوفين ، ولما خاف مقام ربه جنتان ، ولا يتأتى خوف الله إلا بكف النفس عن هواها » وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فإن الجنة هي المأوى •

ويقول سيدي الامام الحارث المحاسبى رضى الله عنه في كتابه « انتههم » مذكرا بالموت وما بعده :

« فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها الا الى الجسر الى ربك ، فتوهم نفسك في نزع الموت وكرهه ، وغصصه وسكراته وغمه وقلقه ، وقد بدأ الملك يجذب روحك من بين قدمك فوجدت ألم جذبه من أسفل قدميك ، ثم تدارك الجذب واستحث النزع وجذبت الروح من جميع بدنك ، فنشطت من أسفلك متصاعدة الى أعلاك حتى اذا بلغ منك الكرب منتهاه ، وعمت آلام الموت جميع جسمك ، وقلبك وجل محزون مرتقب ، منتظر للبشرى من الله عز وجل بالغضب أ والرضا ، وقد علمت انه لا محيص لك دون أن تسمع احدى البشريين من الملك الموكل بقبض روحك ، فبينما أنت في كربك وغمومك وألم الموت بسكراته وشدة حزنك لارتقائك احدى البشريين من ربك ، اذ نظرت الى صفحة وجهه ملك الموت بأحسن الصورة أو بأقبحها ، ونظرت اليه مادا يده الى فيك ليخرج روحك من بدنك ، فذلت نفسك لما عاينت ذلك وعانيت وجهه ملك الموت ، وتعلق قلبك بما يفجؤك من البشرى منه اذا سمعت صوته بنعمته أبشريا ولى الله برضا الله وثوابه ، أو ابشريا عدو الله بغضبه وعقابه ، فتستيقن حينئذ بنجاتك وفوزك ويستقر الامر في قلبك ، فتطمئن الى الله نفسك ، أو تستيقن بعطبك وهلاكك ويحل الاياس قلبك وينقطع من الله عز وجل رجاؤك وأملك •

وينقنا سيدى الامام الحارث المحاسبى بخياله الى هول يوم القيامة
فيقول رضى الله عنه :

« ... فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، فينفرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ، فلا تسمع الا قول نفسى نفسى .
فينا هول ذلك وأنت تتنادى معهم بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه ، فما ظنك بيوم ينادى فيه المصطفى آدم والخليل ابراهيم والكلليم موسى والروح والكلمة عيسى مع كرامتهم على الله عز وجل وعظم قدر منازلهم عند الله عز وجل ، كل ينادى : نفسى نفسى ، شفقة من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم من اشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم وبحزنك وبخوفك ؟

« حتى اذا آيس الخلائق من شفاعتهم لما رأوا من اشتغالهم لانفسهم أتوا النبى محمدا صلى الله عليه وسلم فسألوه الشفاعة انى ربهم فأجابهم اليها ، ثم قام الى ربه عز وجل واستأذن عليه فاذن له ثم خر لربه عز وجل ساجدا ثم فتح عليه من مخامده والثناء عليه لما هو أهله ، وذلك كله بسمعك واسماع اخلائق حتى اجابه ربه عز وجل الى تعجيل عرضهم وانظر في أمورهم ، فبينما أنت مع الخلائق في ظلمات القيامة وشدة كربها تنتظر متوقعا لفصل القضاء والحلول في دار النعيم أو الحزن اذ سطع نور العرش وشرقت الأرض بنور ربها ، وأيقن شباك بالجبار ، وقد أتى لعرضك عليه حتى كأنه لا يعرض عليه أحد سواك ، ولا ينظر الا في أمرك » .

ويوجهنا شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل طبيب الله نراه الى الجمع بين الخوف والرجاء فيقول فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه:

من عاش يدعو ربه	ونفسه مطهره
فأنسه فى حشره	يحمد حسن المغفره
لا تيأسوا من روحه	فاليائسون كفره
أو تأمنوا من مكره	فالآمنون فجره
ما بين خوف ورجا	تعييد نفس حذره

ونقلنا عنه كذلك قوله رضى الله عنه :

أنا مذنّب واحسرتى	أنا ما نسيت حسابيه
بل خائف يأتى الحساب	وما أمنت عذابيّه
يا رب أنت علمتنى	لم تخف منى خافية
سقمى يزيد وانما	آيات عفوك شافية
ان كان جسمى بالفناء	سقفه متداعية
فالروح بعد فناءه	فى الخلد شمس سامية

ونقلنا عنه قوله رضى الله عنه :

يا أيها الناس اتقوا ربكم	فان هول الحشر هول شديد
اعتبروا بمن مضوا قبلكم	فالموت فوق رأس كل العبيد
وكلنا بعد الردى صائر	اما شقى ضائع أو سعيد
والعيش فى الدنيا له منتهى	والعيش فى الأخرى سما بالقلوب
اتركوا غيكم وكونوا جنودا	للذى فى حماه عز الجنود
كل شيء يحد غير هواه	لم تحطه من القلوب حدود

ويرى السادة الصوفية أن ترك المعاصى علامة على صدق العبد فى محبته لربه ومن أقوالهم فى ذلك : أعمال البر يعملها البار والفاجر ، والمعاصى لا يتركها الا صديق . وفى وصية سيدنا أبى بكر لسيدنا عمر رضى الله عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرءى ، والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء ، فان حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدرّك ، وان ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه ، وفى تفسير قوله تعالى « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ، يقول السادة الصوفية ، اذا كنت فى بلد يعمل فيها بالمعاصى فتحول منه الى غيره . كما يقول السادة الصوفية فى الربط بين قوله تعالى « لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم » ان العصمة منه تعالى لعبده من المعاصى دليل على الرحمة منه سبحانه ، ثم تدخله الرحمة فى مقام المحبة .

ويقول السادة الصوفية فى الفرق بين أهل الهدى وأهل الضلال:بعث الله النبيين للناس ليعبدوه ، ففريق عبد الله على نيك وتقربوا ، وفريق

زاغوا عن الحق مبعدين ، فأما الذين عبدوه خاضعين فسيرفعهم الله الى مشهد الضياء ، فيدخلون في صفوف العزة ، ويقدمهم الله بطهارته ، فإذا هم عند الله في النعيم دائمون ، وأما الزائغون فيلقى عليهم الذل وهم على الرؤس تحت حجاب الظلمات ناكسون ، فسبحان الذي برزت له الذوات الصالحات فوهب لها البسطة فأبوا الى قومهم مكرمين .

وعند قوله تعالى في سورة فاطر « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » يقول الامام القشيري رضى الله عنه في لطائف الاشارات :

« من كان يريد العزة بنفسه فليعلم ان العزة بجملتها لله ، فليس للمخلوق شيء من العزة ، ويقال : من كان يريد العزة لنفسه فلله العزة جميعا أى فليطلبها من الله ، وفي آية أخرى أثبت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وقال هاهنا « فلله العزة جميعا » ووجه الجمع بينهما أن عز الربوبية لله وصفا ، وعز الرسول وعز المؤمنين لهم فضلا من الله ولطفا ، فاذن العزة لله جميعا . واستطرد رضى الله عنه يقول : وعزه سبحانه قدرته ، أو يقال العزيز هو القاهر الذى لا يقهر ، فيكون من صفات فعله على أول القولين ، ومن صفات ذاته على القول الآخر .

« .. اني يصعد الكلم الطيب » الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة ، يعنى الشهادتين ، عن اخلاص ، وأراد به صعود قبول . « والعمل الصالح يرفعه أى يقبله » ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . ويقال الكلم الطيب ما يكون موافقا للسنة . ويقال هو نطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب . ويقال هو ما يكون دعاء للمسلمين .. »

وقد حدثنى سيدى الوالد رحمه الله ، وكان من الصالحين ، أوسع الله له في رضوانه ، انه في حجته الاولى رأى في المنام وهو بمكة المكرمة رعاها الله تعالى أن قائلا يقرأ عليه الآية الكريمة « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا .. » فقام من نومه مسرورا مستبشرا وبعد قليل نسى الآية وحاول جاهدا ان يستذكرها فلم يستذكرها ، ثم قصد بيت الله الحرام وهو مشغول البال باستذكار الآية فجلس يشاهد الكعبة الغراء وإذا بقارىء يجاوره يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم

ويقرأ مبتدئاً « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » فكان سروره بالغاً بتذكرها ، ولما ختم القارئ قراءته سأله عن السورة حتى يبحث عنها إذا نسيها مرة أخرى فقال له إنها في سورة فاطر • وكأنما أراء سبحانه وتعالى ان يبشره بالقبول مرتين مرة مناما ومرة في اليقظة وسبحان ربي المنعم المتفضل على عباده •

وتقوى الله هي الباب الموصل لعزة المؤمن التي يتحلى بها من عباد الله الصالحين ولذلك يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل من ألهمه الفؤرى الذى نقنناه عنه طيب الله ثراه :

وليس مقام الناس بالفقر والغنى
ولكنما الاقدار بالعلم والحدّر
يموت الورى ببيان من ذل أو علا
وما ضاع حظا غير من بالورى انتصر
سواء لدى الناس الا أذا اتقى
عبادته تغنيه ان ورد الحفر
وكل فؤاد راقب الله جنة
منابتها الايمان والعلم والبصر
وأغصانها الاخلاص والصدق جذعها
وأثمارها التقوى وأنعم بها ثمر
فحاسب هنا تهنأ هناك منازل
ومن حاسب النفس اجتباء الذى فطر
وما هذه الايام الا راحل
علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة
ومن لم ير الاخرى المراد قد اندثر

ومجاهدة النفس في سبيل الله درجات ، وأول تلك الدرجات مجاهدة التقوى وتكون بالوقوف عند حدود الله خوفا من عقاب الله الذى أنذر به أهل المخالفات والمعاصى • والدرجة الثانية هي مجاهدة الاستقامة وتتقضى كف النفس عن هواها وترك الاخلاق المذمومة وكسب الاخلاق الحمودة التى مدحها كتاب الله وتحلى بها مولانا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، ونحن نطلب في كل ركعة سبيل الاستقامة بقولنا في فاتحة الكتاب « اهدنا الصراط المستقيم » وهو « صراط الذين أنعمت عليهم » وطلبنا الاستقامة في الفرائض سبعة عشر مرة كل يوم ، بخلاف طلبها في السنن ، انما يدل على شرفها وحلاوة ثمرتها ، وتقضى الاستقامة أن نعالج مثلا البخل بالسخاء ، والكبر بالتواضع ، والجزع بالصبر ، والغضب بالحلم وهكذا . والدرجة الثالثة مجاهدة الكشف والاطلاع وتقضى ان تسبقها الدرجتان المتقدمتان ، كما تقضى الاستعانة فيها بشيخ عارف بالله ، خبر المجاهدات وتجلت له أنوار الحق فهو على نور من ربه يمشى به في الناس فيهديهم الى طريق التصوف الصحيح القائم على آداب الكتاب والسنة والجماعة .

ويفرق السادة الصوفية بين العلم والمعرفة ، فالعلم تحصيل والمعرفة مذاق ، ويقول في ذلك الامام جلال الدين الرومي رضى الله عنه : هل قطفتهم وردا من الواو والراء والدال ؟ اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى ، لا تنظروا للقمر في الماء بل انظروا للقمر في السماء . وعند قوله تعالى « كلا والقمر » يقول الامام انقشيري رضى الله عنه في لطائف الاشارات : أقمار العلوم اذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين فانها تزداد حتى اذا صارت الى حد التمام وبلغت الغاية تبدو اعلام المعرفة ثم تأخذ علوم البراهين في النقصان حين تطلع شمس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقا ، كذلك اذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم في النقصان بزيادة المعارف كالسراج في ضوء الشمس .

والعلم مطلوب ، والنتفة في الدين حتم ولازم ، وانما قسام علم الشريعة ليعمل به ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه ، من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ومن حكم السادة الصوفية قولهم : شكر العلم العمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، وما أروع ما يقول شيخى وسيدى الشيخ على عقل في الهامه الفورى الذى نقلناه عنه :

كل روح تشرعت لرضاه	سعدت بالقبول من مساعاه
قبلتني في الصلاة ساعة وقت	كم مصل بعد الصلاة تلاها
انما قبلتني جميع حياتي	هي ذات الاله لن أنساها
فمسايتي مع اليقين نهاري	ونهارى سعادة برضاها

آنس الله مهجتي بعـلوم	مزجتني بها فكنت وعـاها
طنف بي انور فالمعارف بحرى	تلفظ الدر وهى لا تنتـهاى
وارتقاء الارواح فى مورد العلم	يصنى الارواح من دنياها
وانعدام الاهواء والحنس منها	هو معنى السمو فى مسراها
يا سرورى بقوله يا عبادى	انا فى سمعها أنـال رضاها

اللهم اجعلنا يا الهى ممن قلت فيهم « انذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » ♦

بيت الخوف والرجاء

« أسأل الله تعالى أن يلطف بى فى قضائه وأن يجعلنى من عباده الصالحين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ولا يجعلنى من الذين قال فيهم (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتتووا) وهم معرضون » *

جاءت هذه الكلمات فى رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصديق الصالح السيد/ سالم عمر جمعة مد الله فى عمره وبارك له فى عمله ، وقد دعا الشيخ فيها ربه أن يلطف به فى قضائه وأن يجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه * والعارفون بالله يخافون ربهم من فوقهم مع يقينهم أنه أرحم بهم من أنفسهم وآبائهم ، ومبعث خوفهم يأتيهم من علمهم بأنه تعالى يمحو ويثبت وأنه صاحب المشيئة وحده ان شاء رحمهم وان شاء عذبهم وان شاء ثبتهم وان شاء أضلهم قال تعالى فى سورة ابراهيم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال تعالى فى سورة الرعد (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) *

وقد حكوا عن امامنا احمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : سألت ربه عز وجل أن يفتح على بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلى فقلت : يا رب أعطنى على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك عني * وهكذا لطف الله به فى قضائه فخفف عنه بعد شدة * ويحكى العارفون أنه لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيا زمانا طويلا فأوحى الله تعالى اليهما : ما لكما تبكيان كل هذا البكاء ، فقالا : يا ربنا لانأمن منك ، فقال الله تعالى : هكذا كونا ، لا تأمنا مكرى *

فانظر رعاك الله كيف خاف الله فى قضائه أكبر الملائكة قدرا عند الله مع طهارتهما واشتغالهما الدائم بطاعة الله وتسبيحه وتثنيته ، ومعلوم أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فكيف

لا يخاف مقام ربهم البشر وهم خطاءون بجبلتهم البشرية وغرائزهم الفطرية ، كما أنهم مبتلون بالنفس وشهواتها وبالشيطان ومكائده ، وبفتنة الدنيا وزينتها ، ويقول سيدي حاتم الأصم رضى الله عنه : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة وقد لقي آدم فيها ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العبادة ، فان ابليس بعد طول تعبه لقي ما لقي • ويقول الامام الشبلي رضى الله عنه جوابا على من سأله : لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنها عزلت عن مكان التمام فأصفرت لخوف المقام •

ويقول السادة العارفون : وكذا المؤمن اذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه ، لأنه يخاف المقام فاذا طلعت الشمس طلعت مضيئة ، كذلك المؤمن اذا بعث من قبره خرج ووجهه يشرق ، وليس معنى الخوف أن يقطع المؤمن رجاءه في ربه بل يجب عليه أن يرجو ربه ويطمع في كرمه فيحسن ظن به سبحانه ولكن لا يدع العمل اتكالا على الرجاء ، لأنهم قالوا : علامة الرجاء حسن الطاعة • ويؤيدهم في ذلك قوله تعالى في سورة الزمر (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب) •

ويقول سيدي أبو عثمان المغربي رضى الله عنه : من حمل نفسه على الرجاء تعطل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة ويبين لنا العارفون أن رجال الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة ، فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب ، فهو يرجو المغفرة ، والثالث الرجل الكاذب ، يتمادى في الذنوب ويقول : أرجو المغفرة •

ويقول سيدي أبو على الدقاق رضى الله عنه : الخوف على مراتب : الخوف والخشية والهيبة ، فالخوف من شرط الايمان وقضيته قال تعالى (وخافون ان كنتم مؤمنين) والخشية من شرط العلم ، قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) والهيبة من شرط المعرفة ، قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) ، وتروى أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها أنها سألت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت يا رسول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)

أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويخاف ألا يقبل الله منه » .

وحين سأل سيدى الشيخ ربه أن يلطف به فى قضائه لم يكن جازعا مما جرى به المقدور بل كان صابرا على البلاء أجمل الصبر ، فقد بهر عقولنا ما كان يتحلى به من الصبر على المكروه ، وانما قد طلب اللطف مع الرضا بالمقدور فهو لجوء الى رحمة الله التى وسعت كل شيء . وقد شكنا سيدنا أيوب ضره الى ربه ، فقال عليه السلام مستدرا رحمته سبحانه (انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وجاء بعدها فى سورة الأنبياء (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) ولأنه عليه السلام كان راضيا فى قرارة نفسه بمواقع المقدور وكان مسلما لله كل التسليم فى قضائه أمتدحه الله تعالى بالصبر فقال تعالى فى سورة ص (انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) ومن ذلك ندرك أن اظهار البلاء على غير وجه الشكرى والضجر لا ينافى الصبر على البلاء والرضاء بالقضاء . وكذلك حكى الله عن سيدنا يعقوب عليه السلام أنه قال (انما أشكو بثى وحزنى الى الله) فى حين أنه حكى عنه مرة أخرى فى سورة يوسف (فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم) .

وقد شكنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله حين خذله أهل الطائف وآذوه وجاء فى دعائه المشهور : اللهم أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أثبت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ، الى بعيد يتجهمنى (يستقبلنى بوجه كريمة) أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك .

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى الصبر على البلاء وفى الرضا بمر القضاء ، واللجوء الى الله فى الشدة لا ينافيهما ما دام القلب ساكنا تحت مجارى الأقدار ، وانما اللجوء مظهر من مظاهر العبودية ، كما هو مظهر من مظاهر تقديس الربوبية واجلالها

قال تعالى في سورة النمل (أم من يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أله مع الله قليلا ما تذكرون) وقال تعالى في سورة يونس (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) •

وما أروع ما يقول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضى الله عنه :

الهي ان اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك معنا عبادك العارفين بك من السكون الى عطاء واليأس منك في بلاء •

ويقول سيدي ابن عجيبة الحسني رضى الله عنه في شرح تلك الحكمة اختلاف التدبير هو اقامة كل عبد في حكمته على حسب ارادته ومشيئته من فقر أو غنى ، من علم أو جهل ، من عز أو ذل من قبض أو بسط ، من سقم أو صحة أو مرض ، من ايمان أو كفر الى غير ذلك من اختلاف آثار القدرة وتنوع مظاهر الحكمة • وسرعة حلول المقادير هو تبديل تلك الأحوال في أسرع حال من فقر الى غنى ، ومن غنى الى فقر ، ومن علم الى جهل ، ومن جهل الى علم ، ومن عز الى ذل ، ومن ذل الى عز ، ومن قبض الى بسط ، ومن بسط الى قبض ، ومن سقم الى صحة ، ومن صحة الى سقم ، ومن ايمان الى كفر والعياذ بالله ، ومن كفر الى ايمان ، فقلوب الخلق بيد الله الواحد القهار ، يقلبها كيف يشاء ويختار ، ويفعل ما يشاء (الا يسأل عما يفعل وهم يسألون) • فاذا تحقق العبد بهذا امتنع من أن يسكن الى ما أعطاه مولاه ، لأنه قد يسلبه ذلك في ساعة ، وامتنع أيضا أن ييأس من مولاه في وقت شدته وبلواه ، قال تعالى « فان مع العسر يسرا • ان مع العسر يسرا » ودوام الحال من قضايا المحال ، لكن لم يتحقق بهذا ذوقا الا العارفون فلذلك لا يسكنون الى عطاء ، ولا ييأسون في بلاء بل يسكنون الى من بيده المنع والعطاء ، فلذلك لا يزول اضطرابهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم •

« ... وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة يرى فيه ما غاب عن غيره وجلاء القلب لا يكون الا بنور الايمان والايقان ، فعلى قدر قوة الايمان يكون نور القلب ، وعلى قدر نور القلب تكون مشاهدة الحق ، وبقدر مشاهدة الحق تكون المعرفة بأسمائه وصفاته ، وبقدرهما يكون التعظيم

لذاته ، وبقدر التعظيم لذاته يكون كمال العبد ، وبقدر كماله يكون استغراقه في أوصاف العبودية ، وبقدر استغراقه في أوصاف العبودية يكون قيامه بحقوق الربوبية » .

ويقول سيدي ابن عطاء كذلك في مناجاته : . الهى وصفت نفسك باللطف والرافة بى قبل وجود ضعفى ، افتمنعها منى بعد وجود ضعفى ؟ ويقول سيدي الامام الشاذلى رضى الله عنه في مناجاته : « الهى ما أطعك حتى رضيت ولا عصيتك حتى قضيت ، أطعك بارادتك ولك المنة على ، وعصيتك بقدرتك ولك الحجة على ، فبوجود حجتك وانقطاع حجتى الا ما رحمتهنى ، وبفقرى اليك وغناك عنى الا ما كفيتهنى ، اللهم انى لم آت الذنب جرأة منى عليك ، ولا استخفافا بحقك ، لكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ولا حول ولا قوة الا بك ، والعذر اليك ، وأنت أرحم الراحمين ، اللهم ان سمعى وبصرى ولسانى وقلبى وعقلى بيدك لم تملكنى من ذلك شيئا ، فاذا قضيت بشىء فكن أنت وليى ، واهدنى الى أقوم سبيل يا خير من سئل ، ويا أكرم من أعطى ، يا رحمن الدنيا والآخرة ، ارحم عبدا لا يملك دنيا ولا آخرة » .

ثم انظر الى سيدي الشيخ عبد السلام رضى الله عنه حين سأل ربه اللطف في انقضاء أتبع ذلك بأن يجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ولا يجعله من الذين قال فيهم (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقد سأل الله الطاعة لأنها انما تكون بالاتباع والتطبيق ، وانما فرض الله العلم ليعمل به المؤمن لا ليقف عند تحصيله واختزانه في حافظته ، فقد ندد الله ببني اسرائيل فقال تعالى في سورة الجمعة (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) ولا شك أن أحسن القول قول الله تعالى وصدق سبحانه اذ يقول في سورة الزمر (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يصل الله فما له من هاد) فانظر كيف تتأثر قلوب المخلصين الصادقين حين يستمعون لكلام الله تعالى في تدبر وتقدير للكلام والمتكلم جل جلاله ، فأين منهم من قال تعالى فيهم في سورة محمد (ومنهم من يستمع اليك

حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) •

وقد جاء في الحديث : من أراد أن ينظر ما له عند الله فليُنظر ما لله عنده، وفي رواية أخرى: « من أراد أن يعلم منزلته عند الله فليُنظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه ، فان الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد من نفسه » • ونجد مصداق ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في مثل قوله عز وجل في سورة محمد (والذين آهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وفي سورة البقرة (فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) وفي سورة ابراهيم (واذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) وفي سورة الليل (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى • وأما من بخل واستغنى • وكذب بالحسنى • فسنيسره للعسرى) وهكذا •

ويقول سيدى ابن عطاء رضى الله عنه فى حكمه : « خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك » • وقد طلب منا سبحانه امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتقواه فى السر والعلانية ، والاكثار من ذكره ، والصبر على بلائه ، والرضا بقضائه ، والتأسّى فى كل ذلك بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسادة الصوفية يعولون على تربية البواطن ولا ينفذون بالظواهر ، ويقول سيدى أبو سليمان الداراني فى هذا المقام : ليس البكاء بتعصير العيون ، انما البكاء أن تترك الأمر الذى تبكى عليه •

ويقول السادة الصوفية فى التفرقة بين البار والفاجر شعرا :

ليس من بات قـريرا عينه
مثل من أصبح قفرا دارسا
ليس من أكرم بالوصل كمن
ظل يهذى بلعل وعسى
ليس من ألبس أثواب التقى
مثل الذى ألبس ثوبا دنسا
ليس من سـير به مثل الذى
بات يـرعى الحمى مبتـسا
ليس من شـاهد صـبا واضحا
مثل الذى شـاهد ليلا غـلسا

ليس من بسوى روضات الحمى
مثل الذى أسكن قفرا يابسا

ليس من أشبه غصنا يانعا
مثل من أشبه عبودا يابسا

وأنت ترى مما تقدم أن المدار على تقوى القلوب والاقبال على طاعة الله تعالى بهمة وعزم إلا هوادة فيهما ، طلبا للأحسن وتفضيلا له على الحسن الذى يرتضيه عوام المؤمنين ، فإذا خير الخواص بين القصاص من المسيء وبين العفو عنه اختاروا العفو تقربا الى الله تعالى وإن كان القصاص من حقهم ، وهم يفضلون العفو ناظرين الى قوله سبحانه فى سورة الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) والى قوله تعالى فى السورة ذاتها (ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) والساداة الصوفية يأخذون أنفسهم على الدوام بالنعائم دون الرخص تفضيلا لما يبقى عما يفنى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) .

وواجب على المؤمن الصادق اذن أن يستجيب لله وللرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يتخذ الى ربه سبيلا ، فقد دعاه القرآن الكريم لذلك فى مواضع عديدة ومنها قوله تعالى فى سورة الأنفال (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) أى لما يحيى دينكم الذى تحيا به قلوبكم اذ لا حياة لها الا بطاعة الله تعالى فيما أمركم به أو نهاكم عنه . وقد بين تعالى أنه لا يستجيب لله وللرسول صلى الله عليه وسلم الا الذين يسمعون فى تدبر ونقهم وإيمان قال تعالى فى سورة الانعام (انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) .

وقد وضع الله الصراط المستقيم الذى يخب من المؤمن أن يتبعه فى آيات كثيرة ومنها على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة الانعام (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من آملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا

بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون • ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون • وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (فما أعظم هذا البيان الالهي والإرشاد الرباني وما أجمع النصيحة وأنفعها للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه •

وجهاد المؤمن في الطاعة انما تعود ثمرة جهاده عليه لأنه تعالى يقول (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين) واذا وفق المؤمن في الطاعة فلا يمن بها على ربه لأن الله لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه • واذا أطاع المؤمن ربه فانما يطيعه بتوفيق الله ، ولذلك يقول سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه : « لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك ، وافرح بها لأنها برزت من الله اليك » (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ويقول سيدي الامام علي زين العابدين رضي الله عنه : كل شيء من أفعالك اذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لم يقبل ، لأن المقبول مرفوع مغيب عنك ، وما انقطعت عنه رؤيتك فذاك دليل على القبول.

ويقول سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه في حكمه : متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة • والطاعة في ظاهرها هي تطبيق أحكام الشريعة ، والغنى بالله في الباطن من شهود الحقيقة ، فاذا جمع الله فيك طاعة الجوارح في ظاهرك ، والغنى بالله في باطنك فقد تمت عليك نعمة ظاهرة وباطنة • ويقول سيدي الشيخ العروسي رضي الله عنه : ان الدين بستان والشريعة سياجه ، والطريقة رياضة ، والحقيقة ثمراته ، فمن لا شريعة له لادين له ، ومن لا طريقة له لا شريعة له ، ومن لا حقيقة له لا طريقة له •

وشيوخ الطرق الصوفية المتحققين أئمة يدعون الى الله على بصيرة بالقول والفعل والحال ، فهم نواب عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوة الخلق الى الحق ، فاذا رزقك الله امامة واحد منهم فاحمد الله على غضله وتوفيقه ، واستمع لقوله واعمل بإرشاده ونصحه ،

وقيل له ما علمك ربك أن تقوله فيما حكاه عن سيدنا موسى عليه السلام حين قال لسيدنا الخضر عليه السلام (ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) ولا يفوتك ما جاء في الحديث الشريف « من بايع اماما أعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ان استطاع » .

واذا كان سيدنا موسى عليه السلام قد سعى سعيا حثيثا للاجتماع بالخضر عليه السلام طلبا للمزيد من فضل الله بدليل قوله تعالى (لقد آتينا من سفرنا هذا نصبا) فالأولى بنا نحن عوام المسلمين أن نطلب الطريق الى الله تعالى على يد العارفين المتحققين ، لا على يد المدعين المتصنعين ، فان فاقد الشيء لا يعطيه ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز . أنظر بتدبر الى قوله تعالى في شأن سيدنا موسى عليه السلام وفتناه (فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) .

ومما نقلناه من الالهام الفوري الذي كان يرتجله سيدى العارف بالله وشيخى الشيخ على عقل رضى الله عنه قوله :

وعندى ان الأمر ليس كما ترى
فلا بد من سوق القلوب لمن يدرى
إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى
يؤدبها بالروح زاغت عن السير
ولا يعبر البحر الخضم ونوآه
سوى ماهر يدرى الملاحه في البحر
ولولا اتصال الكهرباء بأصلها
على موجة التيار ما نورها يسرى

وهؤلاء الأئمة المتحققون أهل يقين بالله ، وبهذا اليقين جعلهم الله أئمة للمساكين ، قال تعالى في سورة السجدة (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ويحكى سيدى بشر الحافى وهو من أئمة السلف فيقول رضى الله عنه : رأيت النبی صلى الله عليه

وسلم في المنام فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله بين أقرانك ، قلت : لا ، يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لأخوانك ، ومحبتك لأصحابى وأهل بيتى ، هو الذى بلغك منازل الأبرار •

وكما يطلب الأئمة الصوفية لأنفسهم أحسن الأعمال الصالحة وأكمل الصفات العالية وأزكى المسالك الحميدة ، فإنهم يحبون لاتباعهم ما يحبون لأنفسهم • وقد اجتمع الامام شقيق البلخي رضى الله عنه بالخليفة العباسى المأمون ، فقال له المأمون : أنت شقيق الزاهد ؟ فقال : نعم شقيق ولست بالزاهد ، فقال له المأمون أوصنى ، فقال شقيق يوصيه : ان الله قد أجلسك مكان الصديق وانه يطلب منك مثل صدقه ، ومكان الفاروق ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره ، ومكان عثمان ويطلب منك مثل حيائه وكرمه ، ومقام على ، ويطلب منك مثل علمه وعدله • فانظر كيف أراد له أن يتأسى بقيادة الصحابة من سادتنا الخلفاء الراشدين وأن يتأسى بأكرم ما خصهم الله به من السجيا ومكارم الأخلاق •

ويقول الامام القشيري رضى الله عنه فى وصف أولئك الأئمة فى رسالته المباركة :

« جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده ، بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله وسلامه عليه ، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم ، واختصهم من بين الأمة بطوابع أنوارهم ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق ••

« •• رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار ، ولم يبتكروا على ما حصل منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق ، ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل ، وأمره قضاء فصل •

ومع أنه رضى الله عنه توفى الى رحمة الله فى سنة ٤٦٥ هـ أى من نحو ألف سنة الا قليلا فانه بعد ذلك يقول :

« ثم اعلّموا رحمكم الله أن المحققين من أهل هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فانها كخييامهم
وأرى نساء الحى غير نساءها

« حصلت الفترة في هذه الطريقة ، لا بل ، اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضى الشيوخ الذين كان بهم اعتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم ونسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه . »

« وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات .. » .

ثم بين رضى الله عنه أنه ألف الرسالة وذكر فيها سير شيوخ الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترفيقهم من بداياتهم الى نهاياتهم لتكون لمريدي الطريقة قوة ..

واذا كان الامام القشيري قد صور لنا حالة زمانه فيها قال ، فان ذلك التصوير يتفق مع ما جاء في الحديث ، لا يمشى زمان الا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم . ونعوذ بالله من سوء الحال والمسالك . وسوء الحال يدعوننا للحرص على الاصلاح ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، ولاصلاح لآخر الأمة الا بما صلح به أوائها ، وما صلح الأوائل الا باتباع شرع الله قولاً وفعلاً وحالاً . واذا كان أئمة الطريقة في زمن القشيري قد انقضوا ولم يبق الا أثرهم ، فليس معنى هذا أن نياس من الاصلاح ، فان تربة الدعوة ما تزال خصبة وانما ينقصها الري وبذر البذور ، والدعاة الى الله موجودون بحمد الله ومن فضله سبحانه على الأمة المحمدية ولئن لم يبلغوا مستوى أسلافهم فانهم على دربهم ومن سار على الدرب وصل .

فابع جاهدا ، واصدق في سعيك ، في الالتقاء بواحد من هؤلاء الدعاة ، ليأخذ بيدك في طريق الآخرة ، وهو أدق مسلكا وأوعر مرتقى من طريق

الدنيا ، وراع في اختياره أن يكون مقيدا بالشرعية ومؤيدا بالحقيقة ،
 وادع الله في شرك وجهرك أن يدلك على من يدلك عليه فانه تعالى يقول
 (فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) فاذا وفقك الله وعثرت عليه ووزنته
 بميزان الشرعية ولمست فيه أنوار أهل الطريقة ووجدت لقوله رنة في قلبك
 وتأثيرا في روحك فاصحبه على بركة الله ، وأحسن أدبك في صحبته ،
 وانتفع من حسناته ولا تتبع عوراتها ، فانه أعلم بالطريق منك ، ويحمل
 عنك المشقات وينزلك منازل القربات ، ويحميك من فتنة النفس
 والشيطان ، ويعينك على الطاعة بما أقامه الله فيه ، لا يسألك على ذلك
 أجرا ، ولا يريد لك الا خيرا .

ويقول سيدي ابن عجيبة رضى الله عنه في شرح الحكم :

لا يخاف عليك عدم وجود أهل التحقيق ، وانما يخاف قطاع الطريق ،
 لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق ، انما يخاف عليك من قلة الصدق ،
 والله ما حجبهم عنك الا من عدم صدقك ، فلو حسنت ظنك بالله
 وبأوليائه الله لرفع الله الحجاب بينك وبينهم ووجدتهم أقرب اليك من
 أن ترحل اليهم ، فسبحان من سترهم في حال ظهورهم وأظهرهم في حال
 خفائهم .

ويقول سيدي ابن عطاء الله رضى الله عنه في تاج العروس : القلب
 شجرة تسقى بماء الطاعة ، وثمراته مواجيده ، فاذا جف القلب سقطت
 ثمراته ، فان أجذب فأكثر من الأذكار ، ولا تكن كالعليل يقول : لا أتداوى
 حتى أجد الشفاء ، فيقال له : لا تجد الشفاء حتى تتداوى .

أقول ، وطبيب نفسك هو شيخك ، وعلة نفسك كامنة في هواها ،
 وهى أمارة بالسوء الا ما رحم ربي ، فان ذلك الله على أحد أوليائه
 الداعين اليه على بصيرة فقد رحمك ، فاستعن بالله ولا تعجز ، وعالج
 نفسك على يديه ، ولتكن على بالك نصيحة سيدي ابن عطاء الله انتى
 جاءت في لطائف المنن والتي يقول فيها رضى الله عنه :

« من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع ويكشف عن قلبه
 القناع ، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له ، دعى لا نسب له . وليكن
 أيضا على بالك قوله رضى الله عنه في تاج العروس : « انما تحتاج الى

معالجة نفسك في الابتداء ، فاذا ذقت المنّة جاءت معالجة النفس اختياراً ،
فالحلاوة التي تجدها في المعصية ترجع تجدها في الطاعة » .

إلهم انقلنا بفضلك من ذل المعصية الى عز الطاعة واجز عنا مشايخنا
خيراً كثيراً ، فقد أخرجونا من سجن الهوى وسلّكوا بنا سبيل الهدى ،
وقد كانوا فيما رأيناهم بعد طول العشرة لهم ممن قلت فيهم (فبشر عباد
الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك
هم أولوا الألباب) .

التوكل والأسباب

« قال (صلى الله عليه وسلم) : « لو توكلتم على الله حق التوكل، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » .. فالغدو سبب والعطاء من الله ، والطير يغدو ملهما من حيث لا يدري ، فالؤمن اذا توكل على الله مع اتخاذ الاسباب ، كان كالطير ، لا يدري ما يتم به القضاء ، ولا يتحدى نظام الطلب » .

جاءت تلك الموعظة في رسالة بعث بها سيدى وشيخى ، الاعارف بالله ، الشيخ عبد السلام الحلوانى ، طيب الله ثراه ، الى تلميذه الصالح الصديق السيد / سالم جمعة ، مد الله في عمره ، وهو يبين لنا فيها ان التوكل ليس معناه ترك الاسباب التى اراد الله من عباده اتخاذها لتؤتى ثمرتها باذن مسيبيها سبحانه . وهذه المسألة قلما يفهمها الناس فهما صحيحا ، ويظن أكثرهم — خطأ — أن التوكل على الله يقتضى ترك الاسباب ، فلا يسعى على رزقه من أبوابه المشروعة، بحجة أنه من المتوكلين على الله .

والحديث الشريف الذى صدر به سيدى الشيخ عبارته ، وضح لنا فيه مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أن الطير تغدو وتروح ، تغدو خماصا لا طعام في جوفها وتسبح في الفضاء وتسقط على الزروع ملتقطة ما قسم الله لها من الرزق ، وتعود ممثلة البطون فتغذى نفسها وتغذى صغارها ، مما رزقها الله ، وقد ألهمها الله بقدرته أن تتترك عشها ، باحثة عن رزقها ، وان تعود للعش بعد تحصيله لترتاح بعد الكد ، وتستعيد نشاطها لسعى آخر في الغد ، وهكذا ، وهى في حركة السعى متوكلة على ربها الذى بيده رزق مخلوقاته ، وقد تكفل به لكل مخلوق ، بقوله الكريم في سورة هود : « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » .

والتوكل هو حسن الاعتقاد في الله ، والاعتماد على فضله فيما تسعى اليه من أمور كلها ، ومحل التوكل قلبك الذى بين جنبيك ، والله

تعالى مطمع على خلجاتك ، فيعلم صدق التوكل أو زعزعة الشك ، وسعيك في سبيل غايتك لا يتنافى مع حسن توكلك وقوة يقينك ، بل حسن التوكل يدعوك لقوة الحركة التي أمرك بها ربك الذى تتكل عليه وتتجه بقلبك اليه ، فان وصلت الى ما تريد ، فانما تصل بعونه وتوفيقه وتيسيره ، وان تعسر عليك شئ ، علمت أن ذلك انما كان بتقديره ، وقلت ماكان يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « قدر الله وما شاء فعل » .

وآيات التوكل في القرآن الكريم كثيرة جدا وكلها تدعونا الى التحلى بالتوكل ، وعلى سبيل المثال يقول تعالى في سورة الطلاق « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ، أى كافيته ومعنيته عن غير الله ، ويقول تعالى في سورة ابراهيم : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، ويقول تعالى في سورة المائدة : « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » ، ويقول تعالى في سورة آل عمران : « فاذا عزمتم فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » ، ويقول تعالى في سورة هود : « واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه » ، ويقول تعالى في سورة الفرقان : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده » ، ويقول تعالى في سورة الاحزاب « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » الى غير ذلك من آيات الله البينات التى ربطت ربطا أكيدا بين الايمان والتوكل واتخاذ الأسباب المشروعة .

وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : « جاء رجل على ناقه له فقال : يا رسول الله : أدعها وأتوكل ؟ » فقال : أعقلها وتوكل فأمره (صلى الله عليه وسلم) ان يربطها بعقالها ويتوكل على الله في حفظها وبذلك جمع بين التوكل واتخاذ أسباب الحفظ ، فلا يهمل بتركها غير مربوطة ، بحجة أنه متوكل على الله . ويقول الامام سهل التستري رضى الله عنه — : من طعن في الحركة (أى في طلب الرزق بأسبابه) فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل ، فقد طعن في الايمان . ويشرح ذلك — رضى الله عنه — بقوله : التوكل حال النبى (صلى الله عليه وسلم) ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يترك سنته .

ويقول السادة الصوفية — رضى الله عنهم — : التوكل نفى الشكوك والتفويض الى ملك الملوك . كما قالوا : التوكل هو الثقة بما في يد الله تعالى ، واليأس عما في أيدي الناس . وقال الامام الدقاق — رضى

الله عنه — : للمتوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص .

واذا أردت أن تعرف مدى ما تنحى به السادة الصوفية من التوكل ، فانظر فيما قال سيدي سفيان الثوري — رضى الله عنه — حين قال : لو أن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، ثم اهتممت بشيء من رزقى لظننت أنى كافر . وقد قال رجل لحاتم الاصم — رضى الله عنه — : من أين تأكل ؟ .. فقال : « ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » . وقال عامر بن عبد الله : قرأت قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » ، فوالله ما اهتممت برزقى منذ قرأته فاسترحت (أى تأكد أنه رازقه فلم يتزعزع بالشك) .

وقد سأل بعض الأكاسرة حكيمًا فى زمانه : ما بالى أرى العاقل محروما ، والأحمق مرزوقا ؟ .. فقال : أراد الصانع (سبحانه) أن يدل على نفسه ، ولو كان كل عاقل مرزوقا ، وكل أحمق محروما لوقع فى العقول أن العاقل يرزق نفسه ، والأحمق يحرم نفسه ، ففما رأوا الأمر بخلاف ذلك علموا أن الصانع هو الرازق .

ويقول إمامنا الشافعى — رضى الله عنه — فى ذلك :

ومن الدلائل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيىب الأحمق

ويقول (صلى الله عليه وسلم) « ان الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله » ، وهذا ما يقوى يقين المؤمن فى أن رزقه يأتيه عن تقدير العزيز العليم . وقد لزم رجل باب أمير المؤمنين عمر ، فكان يأتيه كل يوم ليسأله عطاءه ، فأراد أمير المؤمنين — رضى الله عنه — أن يرشده ارشادا شرعيا ، فقال له : يا هذا هاجرت الى عمر أو الى الله ؟ .. اذهب فتعلم القرآن فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل وغاب زمانا حتى افتقده أمير المؤمنين وسأل عنه فدلوه عليه : فذهب اليه وقال له قد افتقدتك حتى اشتقت اليك ، فما الذى شغلك عنا ؟ فقال : انى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وعن آل عمر ، فقال له أمير المؤمنين .. رحمه الله — فما الذى وجدت فيه ؟ .. فقال : وجدت فيه

« وفي السماء رزقكم وما توعدون » فقلت رزقى في السماء وأنا أطلبه في الأرض ؟ .. فبكى أمير المؤمنين رضى الله عنه واعتبراهم وعظاه .

وقد قال رجل للامام حاتم الأصم — رضى الله عنه — : من أين تأكل ؟ .. قال من رزق الله ، قال ينزل من السماء ؟ .. قال : لو لم تكن الأرض لنزل من السماء ، قال : ما نسمع منكم الا الكلام ، قال : وهل نزل من السماء الا الكلام ؟ .. قال : أنا لا أقوى على مجادلتك قال : لان الباطل لا يقوى على الحق .

وقال تعالى في سورة الروم: « الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميئتم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون » ، وأنت تتبين من ذلك أن الخالق والرازق والمحيي والمميت هو وحده سبحانه وتعالى ، فيجب أن تركز اليه في رزقك . ولا تركز الى أسباب الرزق ، ولئن كان أبوك سبب وجودك ، فانك لا تقول خلقتنى أبى ، بل تقول خلقتنى ربى ، فنظرت فى خُلقك الى الخالق جل وعلا — ، ولم تنظر الى سبب أببك وأمك . وهكذا يجب أن ترد الفضل فى رزقك الى ربك ، وترد كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة اليه سبحانه ، كما قال سيدنا يوسف — عليه الصلاة والسلام — : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .

والله الذى أجرى عليك رزقك وأنت جنين فى بطن أمك ، هو الذى كفّل رزقك ما دمت حيا ولذلك جاء فى حكم السادة الصوفية: كن كما كنت فى بطن أمك مدبرا (بفتح الباء المشددة) غير مدبر (بكسر الباء) ، مرزوقا من حيث لا تحتسب . كما يقولون : يا هذا حفر النهر اليك وجريان الماء ليس عليك ، ويقصدون أن تسعى على رزقك والله كفيل باعطائك ، فمَنك يكون السعى امثالاً لأمره ، ومنه يكون العطاء انجازاً لوعده . وقد كان مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول فى مناجاته سبحانه : « لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ، فبين لنا (صلوات الله وسلامه عليه) ان الأسباب حركة نتعرض بها للعطاء الربانى ، وليست الأسباب هى الرازقة مهما جد فيها العبد واجتهد ، بل هى قنوات يجرى فيها الينا ما قدره الله من أرزقنا .

وفي وصية سيدنا لقمان — عليه السلام — لابنه : يا بني أردد ربتك الى الله ان شاء أعطاك وان شاء منعك ، فان حيتك لن تزيدك ولن تنقصك من قسمة الله التي قسمك ، واعتبر رزقك بخلقك ، فان استطعت أن تزيد في خلقك بحيلتك ، فانك اذن تزيد في رزقك ، والا فاعلم أن الله هو الذي عدل الخلق وقسم الرزق ، فلن تستطيع أن تزيد في أحد منهما .

والمتدبر في القرآن الكريم يرى أن الله تعالى أقام الأسباب وأثبت تقديره فيها ، فقال تعالى مثلاً في الأسباب : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » ، وقال في تقديره سبحانه : « الله يتوفى الانفس حين موتها » ، وقال سبحانه في أسباب الزراعة : « أفرايتم ما تحرثون » ، ثم كشف عن قدرته في انبات البساتين : « أنتم تررعونه أم نحن الزارعون » ، كما قال في ابراز القدرة العلية الربانية : « فلينظر الانسان انى طعامه » . أنا صببنا الماء صبا • ثم شققنا الأرض شققا • فأنبتنا فيها حبا • وعنبا وقضباً • وزيتونا ونخلا • وحدائق غلبا • وفاكهة وأبا • متاعاً لكم ولأنعامكم » .

ويقول الامام زروق — رضى الله عنه — : أوصاف الربوبية أربعة ، تقابلها أربعة هي أوصاف العبودية : أولها الغنى ، ويقابله الفقر ، والثاني العز ، ويقابله الذل ، والثالث القدرة ، ويقابلها العجز ، والرابع القوة ، ويقابلها الضعف ، فمن استغنى بالله افتقر اليه ، ومن افتقر الى الله استغنى به ، ومن تعزز بالله ذل له ، ومن ذل له تعزز به ، ومن شاهد قدرته رأى عجز نفسه ، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه ، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه ، ومن رأى قوته سبحانه ، علم ضعف نفسه .

وقد تكفل الله بأرزاق عباده ، وأقسم لهم على ذلك في قوله الكريم : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » . فو رب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » وذلك ليزيدهم اطمئناناً على أرزاقهم حتى لا تشتغل نفوسهم بالرزق عن الرزاق الذي خلقهم لعبادته : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . قال ابن عباس — رضى الله عنه — معناها الا ليعرفون ، فمعرفة الله هي أول فرض فرضه الله على عباده ، والمقصود بها معرفة الشهود والمذاق بتعبير الصادقين من العارفين ، وليست معرفة العوام المصحوبة بحجاب الغفلة .

وقد روى الامام أبو طائب المكي - رضى الله عنه - بسنده عن عمرو بن ميمون ، عن النبی (صلى الله عليه وسلم) ، قال :

« أتدرون ما قال ربكم ؟ .. قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : حين استوى على عرشه ونظر الى خلقه : عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدى ، فلا تتعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به ، واطلبوا أرزاقكم منى ، وانصبوا أنفسكم منى ، وارفعوا حوائجكم الى ، اصب عليكم أرزاقكم . اتدرون ماذا قال ربكم ؟ .. قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : عبدي انفق ، أنفق عليك ، ووسع ، أوسع عليك ، ولا تضيق ، فأضيق عليك ، ان أبواب الرزق بالعرش لا تغلق ليلا ولا نهارا ، فأزّل الرزق منها لكل عبد على قدر نيته وعالته وصنفته ونفقته ، فمن أكثر ، أكثر له ، ومن أقل ، أقل له . ومن أمسك ، أمسك عليه ، يا زبير ان الله يحب الانفاق ويبغض الاقتار ، فكل وأطعم ، ولا تقتّر فيقتّر الله عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك ، أطعم الاخوان ، ووفر الاخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، تدخل الجنة بغير حساب ، فهذه وصية الله لى ووصيتى لك . »

ولا ينافى التوكل ان يدخر المؤمن لنفسه ولعاليه تسكينا للنفس وتطيبا للقلوب التى قد تحركها وساوس الشيطان . وقد ادخر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوت سنة ليسن لأمته ذلك مع انه كان سيد المتوكلين . واذا ادخر المؤمن من رزقه شيئا فليجعل ادخاره موقوفا على رضا الله تعالى ، فيؤدى حق الله فيما ادخره ، ولا يبخل على الله الذى رزقه ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى ونحن الفقراء ، وقد هدد سبحانه البخلاء ، فقال تعالى فى سورة « محمد » « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

وقد حض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على كسب العيش فى حديثه : « لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبله فيذهب الى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » . وقد قال شاب للامام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - : انى أريد ان اخرج الى الحج ولا أتزود ، فقال له الامام : ولماذا لا تتزود ؟ .. قال انى

أريد أن أخرج الى الحج متوكلاً ، فسأل الامام : تخرج وحدك أو مع القافلة ؟ •• قال بل مع القافلة ، فقال له الامام : انت لا تتكل على الله ، بل تتكل على اخراج الناس ، وما ابدع ما قال الامام

وفي الجمع بين اتخاذ الاسباب والتوكل يقول بعض الحكماء :

توكل على الرحمن في الامر كله
ولا ترغبن بالعجز يوماً عن الطلب
الم تر أن الله قال لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء ان تجنيه من غير هزها
جنّته ولكن كل شيء له سبب

ويقول السادة الصوفية : ان الله تعالى احتجب عن العموم بالاسباب ، فهم يرونها ، وحجب الاسباب بنفسه عن الخصوص فهم يرونه ولا يرونها • فلا يصح عند السادة الصوفية ان يكون العبد متوكلاً في رزقه على صحة جسمه ، أو يعتقد انه لا يرزق الا من كده ، أو يعتمد على مال عنده وينسى به الثقة بربه — جل وعلا — وقد قال الامام بشر الحافي — رضى الله عنه — : ان العبد ليقراً : « اياك نعبد و اياك نستعين » فيقول الله تعالى : كذبت ما اياى تعبد ، ولا ايساى تستعين ، لو كنت تعبد اياى لم تؤثر هواك على رضاى ، ولو كنت بى تستعين لم تسكن الى حولك ولا قوتك ولا الى مالك ونفسك •

ويقول الامام سهل التستري — رضى الله عنه — : لو ان العبد سأل الله الا يرزقه لم يستجب له ، ولقال له : يا جاهل انا خلقتك ولا بد من ان أرزقك أبداً وقد نقلنا عن شيخى ، العارف بالله ، سيدى الشيخ على عقل — رضى الله عنه — من الهامه الفورى الذى خصه الله به :

كفل الله للبرية رزقها	وتولاهم ثم أسبل سترها
تصبح الطير في الهواء جياعا	يشبع الله بعد ذاك الطيرا
لا تمد اليدين للناس يوماً	مدها للعباد بالشرك أحري
وسؤال العباد شرك خفى	قد حفظناه حين ذقنا السرا
واذا ما اتجهت لله فردا	نلت يا صاحبى من الله خيرا

وكان مولانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا وضعت له مائدة الطعام قال : « بسم الله ، اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة » . وكان إذا فرغ من الطعام يقول : « الحمد لله ، اللهم لك الحمد ، أطعمت فأشبعيت وسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه » . وكان (صلى الله عليه وسلم) يشرب الماء في ثلاث دفعات ، ويسمى الله في كل منها ، وكان يحمد الله في أواخرها ثلاث تحميدات . فانظر رعاك الله كيف علمنا أن نرد الفضل في طعامنا وشرابنا الى الله تعالى غير مفكرين ولا متكرين بفضل عز وجل .

وينبهنا سيدى الشيخ على عقل — رضى الله عنه — في حكمه الملهمة ، الى أهمية اليقين بالله ، فهو الغنى الحق للمؤمن وان قل ما له فيقول :

ان أكن فى الورى فقيرا فانى	أنا أغنى بمن أحب وأقنى
نفقات الغرام تشعل قلبى	من جلال فيه أحيا وأمنى
نحن نرتاد كل صرح فنرقى	بمراقى النفوس حسا ومعنى

وفى الحديث الشريف : « ليس الغنى بكثرة العرض انما الغنى غنى النفس » . ولذلك كان سيدى الامام الشاذلى — رضى الله عنه — يقول فى دعائه . نسألك الفقر مما سواك والغنى بك حتى لا نشهد الا اياك . ويقول امامنا على بن أبى طالب — رضى الله عنه وكرم وجهه — : من أراد الغنى بغير مال ، والكثرة بغير عشيرة ، فلينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة . ويشرح السادة الصوفية عز الطاعة بالمبادرة لامتنال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه . والاكتار من ذكره ، وبذل كل مجهود ممكن فى مرضاته سبحانه .

وقد قال رجل لسيدى ذى النون المصرى — رضى الله عنه — زودنى كلمة ، فقل له ، وما ابداع ما قال :

لا تؤثرن الشك على اليقين ، ولا ترض من نفسك بغير التسبكين ، وان تأتكت نائبة الدهر فتحملها بحسن الصبر ، وارم بآمالك نحو الدائم الخير ، تجده بآمالك قائما ، واغتتم مواصلة الله تعالى فان لله عبادا ألفوه فاستأنسوا به ، وعرفوه فأملوه على معرفته وواصلوه على عين يقين ، فسمت أبصارهم نحو عظيم ، جليل قدرته ، فسقاهم من حلوة

مواصلته ، والعقهم من لاذة مخالسته فلبكائهم حول العرش دوى ،
ولدعائهم حين تتفتح أبواب السماء بسرعة تفتحها لاجابة دعائهم .

وقد حكى الله تعالى عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فقال
سبحانه في سورة القصص « فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب
انى لما أنزلت الى من خير فقير • فجاءته احدهما تمشى على استحياء
قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » فما كاد عليه السلام
يدعو حتى رزقه الله من فضله الطعام • والعمل الذى يكسب منه
رزقه حالاً طيباً ، ومثل هذه القصص انما ساقها الله الينا فى القرآن
الكريم للاتعاط بها وتقوية يقيننا فى كفالة الله تعالى لارزاقنا وتدبيره
لامورنا ومعايشنا وسبحانه من عوف رحيم ورزاق كريم •

ومن أروع الامثال التى ضربها الله لنا فى كتابه المجيد فى مقام اتوكل
عليه عز وجل قصة أم موسى عليهما السلام فقد قال تعالى
فى سورة القصص « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت
عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من
المرسلين » واطمئننا الى وعد الله سبحانه أنقته فى البحر متوكلة على
الله فى حفظه ، ولا شك ان المعتك بينها وبين نفسها وهى أم الرضيع كان
شديداً ، فليس بالامر الهين على الأم أن تقذف الرضيع فى البحر
تتقاذفه الأمواج فى تابوته الى حيث لا تعلم ولكن الله تعالى ثبتها فى
ذلك الموقف اعسير على النفس وهو ما يحكيه قوله تعالى فى سورة
القصص « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن
ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين » وهو ما يعلمنا أن نلجأ الى الله
فى تثبيت نفوسنا عند اضطرابها وقلقها بنحكم جبلتها البشرية •

وقد بر الله بوعده لأم موسى عليهما السلام وهو ما يحكيه قوله
تعالى فى السورة ذاتها « فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن
ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون • ولما بلغ أشده
واستوى آتيناها حكما وعلمنا وكذلك نجزي المحسنين » وقد بدل الله
خوفها اماناً وحزنها سرورا وجعل من جميل صبرها فرجا ومن عسرها
يسرا • والعجب العاجب أن يكون كفيله اعدى أعدائه فرعون الذى
ادعى فى غطرسته وغروره أنه اله من دون الله فأهلكه الله هو وجنوده

فكانوا من المغرقيين وهو ما يحكيه قوله تعالى « وقال فرعون يا أيها الملأ
ما علمت لكم من اله غيرى فأوقد لى ياهايمان على الطين فاجعل لى صرحا
لعلى أطع الى اله موسى وانى لأظنه من الكاذبين • واستكبر هو
وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون • فأخذناه
وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » والفارق فى
هذه القصة واضح بين معاملة الله لاوليائه ومعاملته لاعدائه فقد أخرج
سبحانه وتعالى سيدنا موسى عليه السلام الى بر السلامة وأغرق
فرعون وجنوده فكان البحر عليه عذابا ونقمة بينما كان لموسى عليه
السلام نعمة ورحمة وسبحان من اذا لطف بعبده جعل له المحن منحا
والمصيق فضاء •

ولعلك بعد ذلك تستطيع أن تتذوق دعاء الامام الجنيد رضى الله
عنه الذى يقول فيه :

« الهى وسيدى ومولاى ، من أحسن منك حكما لمن أيقن بك ؟ ومن
أوسع منك رحمة لمن انتاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطايا ورافة
لمن أرادك وأقبل على طاعتك ؟ فكلهم فى نعمائك يتقلبون ، ولك
بفضلك عليهم يعبدون ، سرت همومهم بك انيك ، وانفردت
أرادتهم لديك ، وأقبلت قلوبهم بك عليك ، وفنيت حظوظهم من دونك
 واجتمعت لك وحدك ، فهم اليك فى الليل والنهار متوجهون ، وعليك
فى كل الاحوال مقبلون ، ولك على الاحوال مؤثرون » •

« فأنا أسألك الهى وسيدى ومولاى ان تكون لى بفضلك كاللأ كافييا
عاصما راحما ، فانى اليك لاح ، وبك مستغيث ، واليك راغب ، ومنك
راهب ، وعليك فى أمور الدنيا والآخرة متوكل ، لا اله الا أنت سبحانك
انى كنت من الظالمين » •

ألا رضى الله عن سادتنا الصوفية الذين سبقت لهم من الله الحسنى
وأنزهم كلمة التقوى فساروا الى الله وأعرضوا عما سواه طمعا فى
رضاه فأعزهم بمقام التوكل عليه سبحانه وأحبهم بصدق توكلهم فقال
تعالى « ان الله يحب المتوكلين » • جعلنا الله من المتوكلين المحبوبين
• • آمين •

الشكرون

« الشكر باللسان مأمور به الانسان ، والشكر بالقلب نعمة أنعمها
المنان ، وهو قسمان ، قسم على النعم الظاهرة وقسم على النعم
الباطنة » .

جاءت تلك العبارة في رسالة بعث بها سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام
الحلوانى رضى الله عنه الى تلميذه الصالح التتى الصديق السيد سالم
جمعه زاده الله من نضله وفيها يوجهنا سيدى الشيخ الى الشكرين، الشكر
اللفظى والشكر القلبى ، ويلفتنا الى النعم التى أسبغها الله علينا ظاهرة
وباطنة والتى توجب علينا لله تعالى الشكر الظاهر باللسان والشكر الباطن
بالقلب لوهاب النعم ومفيضها جل جلاله « وما بكم من نعمة فمن الله » .

وقد وجهنا كتاب الله الكريم كما وجهتنا السنة النبوية الى التحلى
بالشكر لأن الشكر مقام عظيم من مقامات أهل اليقين . ويقول العارفون
ان أول الشكر أن يعرف المؤمن أن النعم التى يتقلب فيها هى من الله
وحده لا شريك له فيها « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا
منه » . فاذا عرف المؤمن ذلك أطق لسانه بشكر ربه والثناء عليه، وحمده
على انعامه واكرامه . وفى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال
لرجل : كيف أصبحت ؟ قال : بخير ، فأعاد عليه النبى صلى الله عليه
وسلم السؤال ثانية : كيف أنت ؟ فقال : بخير ، فأعاد عليه الثالثة : كيف
أنت ؟ فقال بخير أحمد الله تعالى وأشكره ، فقال صلى الله عليه وسلم :
هذا الذى أرادت منك ، فوجهه صلى الله عليه وسلم الى اظهار الحمد
والشكر والثناء .

والسادة الصوفية مشرب خاص فى مقام الشكر ، فهم لا يكتفون
بالشكر عند العطاء كعوام المؤمنين ، بل يشكرون ربهم كذلك عند المنع
لأنهم يرون فى المنع العطاء ولكن لا يفهم فهمهم هذا الا الأولياء
والصديقون .. ويوضح لنا ذلك ما وقع بين سيدى شقيق البلخى وبين
سيدى الامام جعفر الصادق رضى الله عنهما ، فقد سأله سيدى شقيق :

ما هي الفتوة في الدين يا ابن رسول الله ؟ فقال الامام ما نقول ما أنت يا شقيق ؟ قال يا ابن رسول الله : اذا وجدنا شكرنا واذا فقدنا صبرنا ، فقال الامام رضى الله عنه : هكذا حال الكلاب عندنا في المدينة المنورة ، فقال شقيق : فما الفتوة عندكم يا ابن رسول الله ؟ فقال الامام : اذا وجدنا آثرنا واذا فقدنا شكرنا ، فانظر رعاك الله الى قول الامام في حال العوام : هكذا حال الكلاب عندنا في المدينة المنورة ، وكيف لم يرض أن يكون شاكرا في العطاء دون المنع ، ولا تعجب فهو من الخواص بل من خواص الخواص وكان الامام أبو حنيفة تلميذا له وقال فيه : ما رأيت أفعه من جعفر بن محمد •

ثم ان السادة الصوفية لا يفهمون الشكر على أنه حمد وثناء فحسب بل يذهبون الى أن الشكر يقتضى منك ألا تعصى الله بنعمه، كما يقتضى منك أن تستعين بنعمته على طاعته، ولا تستعين بها على معاصيه، والا كنت كافرا بالنعمة وغير شاكرا لها ، وهم يستندون في ذلك الى قوله تعالى « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » وذهبوا الى أن معناها استعانوا بنعمه على معاصيه فبدلوا شكر نعمة الله كفرا ، لأنه أمرهم أن يطيعوه بالنعم فخالفوه وعصوه بها ، وحجة السادة الصوفية في هذا التفسير قوية فانهم يقولون أن الخلق لا يقدرون على تبديل نعمة الله عز وجل ، وهذا من المضمحل معناه، لظهور دليله عليه ، ومثله قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » والمعنى شكر رزقكم تجعلونه تكذبيكم برسلك الله تعالى، ويحض السادة الصوفية أتباعهم على ترك المعاصي كلها ظاهرها وباطنها ويقولون في هذا المقام انه تعالى قال : « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ثم قال « وذروا ظاهر الاثم وباطنه » وفي ذلك تنبيه لأولى الأبواب أن يذروا ظاهر الاثم شكرا لظاهر النعم ويذروا باطن الاثم شكرا لباطن النعم • وظاهر النعم هي عافية الأجساد ووجود الكفايات من الأموال ، وظاهر الاثم شهوات الجوارح التي تتفق مع النفس في هواها ، وباطن النعم صفاء القلوب وإخلاص النوايا ، وباطن الاثم سوء النيات والاصرار على الذنوب وسائر أمراض البواطن من الحقد والحسد والسخط على المقدور وسوء الظن والكبر والعجب الخ • وقد علمنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاجتهاد في العبادة والأعمال الصالحة نوع من الشكر ، فانه صلوات الله وسلامه عليه قام الليل وأطال القيام في صلاته حتى تورمت قدماه، وقد قالت له

سيدتنا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : لم تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وهكذا فسر لنا مولانا رسول الله بفعله وقوله قول الله تعالى « اعلموا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » •

وقد مدح الله سيدنا نوحا عليه السلام فقال تعالى « انه كان عبدا شكورا » وجاء فى تفسيرها انه كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أو نفع أو ضرر • وجاء فى الخبر « ينادى مناد يوم القيامة : ليقيم الحمدون ، فيقوم زمرة ، فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل : ومن الحمدون ؟ قال : الذين يشكرون الله تعالى على كل حال » وفى لفظ آخر « على السراء والضراء » •

ومما يعين المؤمن على الشكر أن ينظر فى أمر الدنيا الى من هو أقل منه عطاء ، فتعظم فى نظره نعمة الله عليه فيشكرها ، ثم ينظر الى من هو فوقه فى الدين وينافسه فى طاعة الله والاقبال عليه ، فاذا كان كذلك كان من الشاكرين •

وقد جاء فى الحديث الشريف « من نظر فى الدنيا الى من هم دونه ، ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومن نظر فى الدنيا الى من هو فوقه ، ونظر فى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا » •

ويقول السادة الصوفية : ان أكثر عقوبات الخلق من قلة الشكر على النعم ، وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة ، وسبب الجهل بالنعمة قصور العلم بالله تعالى وطول الغفلة عن المنعم وترك التفكير فى نعمه والتذكر لآلائه ومنه ، وقد أمرنا الله بتذكرها ووعدنا بالافلاح بتذكرها فقال تعالى « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » كما وعدنا رفع العذاب عنا فقال تعالى « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » فقرن الشكر بالايمان ورفع بوجودهما العذاب •

وقد قرن الله الشكر بذكره تعالى فقال عز وجل « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » وحين نزل قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » قال صلى

الله عليه وسلم : تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم ، قالوا : يا رسول الله ، نهيتنا عن كثر الدينار والدرهم ، فماذا نكنز ، قال : ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وامرأة سالحة تعينه على أمر آخرته • وقد نصح صلى الله عليه وسلم سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه أن يقول فى دبر كل صلاة (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) •

ويقول السادة الصوفية أن شكر العامة على المأكّل والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى • وقد شكّا رجل الى بعض أهل المدينة فقره وأظهر لذلك غبه وحزنه ، فقال له المدنى : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : فيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ، قال : لا ، قال : أفما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا •

وحدثوا عن بعض القراء المقربين أنه اشتد به الفقر حتى أحزنه قال فرأى فى المنام كأن قائلًا يقول له : تود أنا أنسيناك سورة الأنعام ، وأن لك ألف دينار ؟ قال : لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، قال فمعك آلاف وأنت تشكو الفقر ، فأصبح وقد سرى الله عنه همه •

ويضع السادة الصوفية فى قمة النعم الايمان به سبحانه وتعالى ، ثم نعمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم نعمة القرآن الكريم ، ثم أن جعلنا من خير أمة أخرجت للناس • وهم يشكرون الله تعالى بأنه لا يقلب قلوبنا فى الزيغ والشك فى العقيدة مع أن جوارحنا تتقلب فى المعاصى ، ولا شك أن ذلك مظهر من مظاهر كرمه واحسانه فلو قلب قلوبنا فى الزيغ والشك كما تتقلب جوارحنا فى المعاصى لكنا من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة والعياذ بالله •

وهذا منهم تقدير لنعمة الايمان ، وتقدير النعمة مدعاة الى شكرها • وقد دخل رجل على الامام سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه وقال له : ان اللص دخل دارى وأخذ متاعى ، فقال له الامام سهل : أشكر الله تعالى ، لو دخل اللص قلبك — وهو الشيطان — وأفسد عقيدة التوحيد ، ماذا كنت تصنع ؟

ولتدرك فضل الله على هذه الأمة في تثبيت الايمان في قلوبهم قارن بين المؤمنين في الأمة المحمدية وبين بنى اسرائيل فان سيدنا موسى عليه السلام اجتاز بهم البحر بمعجزة كبرى فما كادوا يصلون الى البر بعد رؤية المعجزة بأعينهم حتى تقلبوا في الشك ، فانهم وجدوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا « يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة » ونعوذ بالله من الضلال بعد الهدى .

والواقع أننا لا نبلغ حقيقة الشكر مهما شكرنا الله تعالى ، لأن نعمه تعالى لا نستطيع حصرها « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلم كفار » وانما يكون شكرنا مظهرا من مظاهر ولائنا لله واعترافنا بفضلله واقارارا بأننا لا نستحق عليه شيئا ، وانما هو صاحب الفضل والجود والاحسان ، وقد سبق فضله وجودنا ، كما سبقت مغفرته ذنوبنا ، ولا يكون من الكريم الا الكرم ، وصدق القائل :

فان جـددتك ما أوليت من كرم
انى الى اللؤم أولى منك بالكرم

وعجزك عن شكره سبحانه هو غاية ما يصل اليه شكرك ، فلتكن على الدوام الشاكر العاجز عن الوفاء وردد ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم .
سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وتشعورك بأنك عاجز عن الشكر شكر ، واذا وفقك الله لشكره فاشكره على ذلك التوفيق ، وقد قال العارفون : الشكر على الشكر أنتم من الشكر وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر الى ما لا يتناهى ، ولهذا قال سيدنا داود عليه السلام : يا رب : كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجب بدورها الشكر ، فقال تعالى : يا داود الآن عرفتنى وشكرتتنى .

وفي قوله تعالى « ان الانسان لربه لكنود » قيل هو الذى يشكو المصائب وينسى النعم . والخصوص يرون نعم الله فى المصائب، ولذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما من بلاء يصيبني الا وأرى له على فيه أربع نعم ، النعمة الأولى أن البلاء وقع فى دنياي ولم يقع فى ديني ، النعمة الثانية أنه لم يقع أكبر مما وقع ، والنعمة

الثالثة أن الله صبرنى عليه فاحتلمته ، والنعمة الرابعة أن الله ادخر لى ثواب الصبر عليه • كما كان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب • وأنت ترى من ذلك أنه استوى عنده الملاء والرخاء وتلك درجة الصديقين من أهل اليقين •

وقد جاء فى الخبر : الصبر نصف الايمان ، والشكر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله ، وقد قرن الله تعالى بين الصبر والشكر فى قوله تعالى « ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » فذكر الصبر بلفظ المبالغة على وزن فعال ، وذكر الشكر بلفظ المبالغة على وزن فعول ليتحلى المؤمن بالصبر الجميل الذى لا شكوى معه ، وبالشكر الدائم الذى لا جحود معه •

ويقول السادة الصوفية ان المصائب لا تخلو من ثلاثة أقسام وكلها نعم من الله تعالى ، فهى اما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين ، واما أن تكون كفارة وهذا لخصوص أصحاب اليمين والأبرار أو تكون عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فيعجل الله لهم العقوبة فى الدنيا رحمة منه ونعمة ، ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين •

ويرى العارفون أن الايمان الذى كتبه الله فى قلوب المؤمنين نعمة وأن تثبيتته فى القلوب نعمة أخرى اذ لو لم يثبتته الله لا نمحى ورجع القلب الى الكفر ، ولذلك يقول تعالى « يمحو الله ما يشاء ويثبت » أى يمحو ما لا يشاء ثبوته ويثبت ما يجب ثبوته • ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على طاعتك •

وقد من الله علينا فعلنا بعد جهلنا ، وبصرنا بعد غفلتنا فقال تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » فى حين أنه تعالى قال فى وصف الكافرين « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله » وهو ما يدلنا على أن الأسباب وحدها لا تؤتى ثمرتها الا باذن مسببها سبحانه وتعالى •

وقال الامام سهل التستري رضى الله عنه : اذا عمل العبد حسنة فقال : يارب أنت استعملتنى ، شكر الله له ذلك ، فقال : أنت عملت،فاذا

نظر الى نفسه فقال : « أنا عملت ، يقول الله : بل أنا استعملت » وقال
رضى الله عنه : اذا عمل العبد سيئة فقال : أنت قدرت وأنت أردت ،
يقول الله تعالى : أنت ظلمت وأنت عصيت بشهوتك وهواك ، فان قال
العبد : ظلمت نفسي وعصيت بجهلى استحيا الله منه ، فقال : بل أنا قدرت
وأنا قضيت ، قد غفرت لك باعترافك بالظلم على نفسك . ويقول الامام
أبو طالب المكي رضى الله عنه فى تعقيبهِ على كلام الامام سهل رضى الله
عنه : وهذا داخل فى قوله تعالى « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا
صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » قيل هو الاعتراف بالذنوب
عقب العمل السيئ فكان الصالح بعده هو الاعتراف .

والانسان قد يطغى بالنعم ان لم يحفظه الله تعالى من شرها ويؤيد
ذلك قوله تعالى « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ويقول صلى
الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »
ويقول تعالى « وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون » أى من بعد
ما أعطاكم العافية والغنى . فاذا أعطاك الله الصحة والغنى وصانك عن
المعاصى فتلك نعمة النعمة ووجب عليك فيها شكر على شكر .

وعند قوله تعالى فى حق سيدنا نوح عليه السلام « انه كان عبدا
شكورا » يقول الامام القشيري رضى الله عنه فى لطائف الاشارات :
الشكور هو اذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ويقال الشكور
الذى يشكر بماله ينفعه فى سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بنفسه
فيستعملها فى طاعة الله ولا يبقى شيئا من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه
ربه فلا تأتى عليه ساعة الا وهو يذكره .

وعند قوله تعالى فى حق سيدنا ابراهيم عليه السلام « شاكرا لأنعمه
اجتباها وهواه انى صراط مستقيم » قال الامام القشيري رضى الله عنه :
الشاكِر فى الحقيقة يرى عجزه عن شكره ويرى شكره من الله عز وجل
لتحقيقه ان الله هو الذى خلقه ، وهو الذى وفقه لشكره ، وهو الذى رزقه
الشكر ، وهو الذى اجتباها حتى كان بالكلية له سبحانه .

ويذكر سيدي وشيخي الشيخ على عظم طيب الله ثراه فى الهامه
الفورى الذى نقلناه عنه فضل ربه عليه فيقول رضى الله عنه :

أجبه وفؤادى بيت حكته
 ثوب الحياء من البارى تغشاني
 أخافه وهو يهدينى لسدته
 فما خُشيت من العذال والشانى
 وكيف أخشى وفضل الله يدركنى
 وبالهدى والندى مولاي وشانى
 أمسيت منكسرا أضبحت مفتقرا
 والله عن كل هذا الخلق أغنانى
 طاب النسيم وحبى لا ييارحنى
 وقد هدانى الى التقوى فأفنائى
 ان يسكن الناس جنات تطيب بها
 فحب ربهى فردوسى وأفنائى
 ثم هو يستنجد بربه يسأله أن يكون فى عونته وألا يكله الى نفسه
 فيقول رضى الله عنه :

رب هبنا رضاك وانظر اليـنا
 واهدنا يا كريم هدى حنان
 وتعطف على الضعيف بجودا
 ك فانى أتوق للاسـنان
 لا تكلنى لشر نفسى وقتـنا
 ان تكلنى فـقد تكاثر رانى
 رب جنبنا الذنوب جميعـنا
 وارعى بالهدى مع الاخوان
 واسكب العلم واليقين علينا
 وأذقنا موارد الرضـوان
 ويقول رضى الله عنه فى أهل الصدق من عباد الله الصالحين :

هم الجواهر طبعـا لا يغيرهم
 مر الزمان وهم من أهله الدرر
 أن يشبعوا حمدوا أو أفقروا صبروا
 أو يـجـزنوا كنـموا أو يـوهـبوا شكروا

ملائك الله ترعاهم وتتبعهم
والفضل يحضر فيهم أينما حضروا
من أهمهم كان فضل الله غامره
وحيث منزلهم يستتزل المطر

ثم هو يدعوك أن تتمسك بربك وأن تركز اليه على الدوام وتتحدى
بتقواه لتظفر باحسانه واکرامه فيقول رضى الله عنه :

تمسك بالاله تسد حياة
وتحمّد من أياديه الثوابا
فان قالوا اتخذ لك أى جاه
فخذ تقواه جاهك والمآبا
وان قالوا اتخذ لك أى كأس
فخذ من كأس عزته الثرابا

ولعلنا أدركنا من كل ما تقدم أن ما نتقلب فيه من نعم ظاهرة وباطنة
انما هى من عطاء الله وجوده وهو سبحانه الغنى على الدوام ونحن
الفقراء اليه فى الاضطرار والاختيار ، وقد بدأنا بفضلته قبل أن يكون
منا عمل ، فلا منة لنا عليه بل المنّة له علينا ، ولا نستطيع أن نشكره
الا بالعجز عن شكره ، واذا كنا عاجزين عن عد النعم وحصرها فكيف
نستوفى شكرها ، فمنه سبحانه الكثير ومنا التقصير ، نشكره على قدرنا
لا على قدره ونستغفره من تقصيرنا وهو الذى يقبل التوبة عن عباده
ويعفو عن السيئات ، وليقل كل منا ما قاله المؤمن الناضج انراشد
الكامل سيدنا أبو بكر رضى الله عنه (رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى
أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصحب لى فى ذريتي
انى تبت اليك وانى من المسلمين) فنفوز ان شاء الله برضا الله ومغفرته
وندخل الجنة التى أعدها لعباده المتقين وقد قال فيهم بعد الآية السابقة
فى سورة الأحقاف « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز
عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون » •

الحضور والغفلة

« وليس القائم للنائم ، اذ النوم غفلة والقيام يقظة وحضور فان نام الذاكر فهو قائم ، قلبه معلق بالله وليس بلاه ، بل هو يقظ يراقب من يراه سبحانه وهو لا يراه فهو مع الله » •

ذلك من بعض ماكتب سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الحلواني رضي الله عنه الى تلميذه المبارك الصديق السيد / سالم جمعة حفظه الله ورعاه ، وقد بين في تلك الكلمات أن الغفلة عن الله نوم وان كان الجسد في اليقظة ، وان الذكر حضور وان كان الجسد مستغرقا في النوم ، فالذاكر قائم وان نام لانه انما ينام على حب الله ولا يلهيه عنه لاه مما يتلهى به الغافلون •

وهذه المسألة هي القطب الذي يدور عليه التصوف كله ، لان السادة الصوفية انما يثسبوهون في مسلكهم بخاصة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أوصاه الله بهم في قوله الكريم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) فليس لهم غاية من شدة التعلق به سبحانه الا رضاه الذي يغنيهم عن كل عوض من أمور الدنيا والآخرة ، وقد قال تعالى في شأن هؤلاء الخواص (رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) كما يقول فيهم (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم) وقد ورد في الحديث الشريف « ان الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضىتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : اما أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا » وحين أوصى الله رسوله بأهل الصفة قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي لم يمتنى حتى

لمرنى أن أصبر نفسى مع ناس من أمتى، ويعول السادة الصوفية في تربية مريدهم على الأكثار من ذكر الله تعالى ، ويقول سيدي أبو حدين التلمسانى رضى الله عنه ، من دامت أذكاره صفت أسرار ، ومن صفت أسرار كان في حضرة الله تعالى قراره • ويقول سيدي عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : المراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقت في لسان القوم (أى الصوفية) هو شهود العبد أنه بين يدي الله تعالى، فإذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها •

ويقول الامام الشعرانى رضى الله عنه :

ان فوائد الذكر لا تنحصر ، لان الذاكر يصير بجليس الحق تعالى وينال الذاكر من الاسرار والعلوم ما شاء الله كلما ذكر ، لان حضرة الله لا يرد عليها أحد ويفارقها بغير مدد ، لكن مع الحضور فيقال لمن ادعى أنه حضر بقلبه في ذكره مع ربه تعالى ، ماذا أتحنك وأعطاك في هذا المجلس ، فإذا قال : ما أعطاني شيئاً قلنا له : وأنت الآخر لم تحضر معه في ذكره ، فاتخذ لك شيخاً يزيل عنك الموانع المانعة لك من الحضور •

وقال رضى الله عنه كذلك :

والذكر أسرع في الفتح من سائر العبادات ، قال سيدي علي المرصفي رحمه الله تعالى : قد بحث الأسياف فلم يجدوا للمريد دواء أسرع في جلاء قلبه من مداومة الذكر ، فحكم الذكر في الجلاء للقلب كحكم الحمى في النحاس ، وحكم غير الذكر من سائر العبادات كحكم الصابون في النحاس وذلك يحتاج الى طول زمن •

ويقول سيدي الشيخ أحمد الحلوانى طيب الله ثراه (والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه)

وفي الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اعطيت أمتك ما لم تعطه أمة من الامم ، قال : وما ذلك يا جبريل؟ قائلاً قوله (فاذكرونى أذكركم) لم يقل تعالى هذا لأحد غير هذه الامة . وقال رضى الله عنه وفي الخبر « الذى يذكر ربه والذى لا يذكر مثل الحى والميت » رواه الشيخان • وفي تعليقه على قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) يقول رضى الله عنه : قال ابن عباس رضى الله عنهما في الآية

وجهاً : أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه -
والآخر أن ذكر الله أعم من كل عبادة ولبعضهم فيه وجه آخر وهو
أن ذكر لفظ « الله » أعظم من ذكر غيره من الأسماء العلية واليه الإشارة
بقوله سبحانه (وكلمة الله هي العليا) .

ويقول رضى الله عنه :

وفي الصواعق لابن حجر أن الإمام علياً الرضا المدفون بسوس كما
في تاريخها لما دخل سوقها وعليه مظلة لا يرى من ورائها تعرض له
الحافظان أبو زرعة الرازي ومحمد بن أسلم الطوسي ومعهما من طلبه
العلم والحديث ما لا يحصى فتضرعا إليه أن يريهم وجهه ويروى لهم
حديثاً عن آبائه ، فاستوقف البغلة وأمر غلمانهم بكشف المظلة وأقر
عيون تلك الخلائق برؤية طلعتهم المباركة وقال : حدثني أبي موسى
الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين
العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضى الله عنهم
قال : حدثني حبيبي وقرة عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حدثني
جبريل قال : سمعت رب العزة يقول : « لا إله إلا الله حصنى ، فمن
قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابي » ثم أرخى الستار
وسار فعاد أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين
ألفاً ، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه لو قرأت هذا الاسناد
على مجنون لبرىء .

وفي هذه المناسبة أذكر أننى أثناء الحرب العالمية الثانية كان
يدخلنى خوف عند وقوع الغارات وانطلاق المدافع المضادة للطائرات
فشكوت خوفاً لسيدي الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه
فأمرنى أن أقول عند وقوع الغارة : لا إله إلا الله ، دخلنا في حصن
الله ، ثم أضاف رضى الله عنه : اتدرى لماذا اخترت لك ذلك ؟ قلت
لا يا سيدي ، فروى لى الحديث المذكور بسنده ، وقد اتبعت ما أمرنى
به رضى الله عنه فبدل الله خوفاً آمناً بفضله وكرمه ، وصار ذلك القول
من عادتي في كل موطن من مواطن الخوف حيث لمست بركته ، كما أنى
علمته لتلاميذى وأحبائى ، وجزى الله عنى وعنهم سيدي الشيخ خيراً
كثيراً .

والحضور في الذكر لا يتأتى للمريد مرة واحدة (إلا أن يشاء الله) ولكنه يتدرج فيه شيئا فشيئا كلما وإلى ذكر الله وأكثر منه وكانت وجهته صادقة وهمة عالية ، وتابع ارشاد شيخه العارف بدقة وتخيل انه معه أثناء الذكر يشد من أزره وأن روح مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الجلسة ، ذلك بأن الشيخ هو باب المريد الى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو صلوات الله وسلامه عليه باب المؤمنين الى الله ، وهو سبحانه وتعالى يتولى الجميع ، والشيخ نائب في الدعوة الى الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، ولولا أن للشيخ مدخلا في تربية المريد ما جوزوا تخيله ، والطريق تحتاج الى الرفيق والله تعالى يقول (يوم ندعو كل أناس بأمامهم) .

وقد تأتي للمريد أثناء الذكر بعض الوسواس ، فيقول له الوسواس ما فائدة هذه الجلسة وأنت غافل في ذكر الله ؟ وقد حذر السادة الصوفية من ترك الذكر في هذه الحالة وقالوا لا تترك جلسة الذكر متابعة لهذا الوسواس ، بل يجب أن تستمر في ذكر الله لأن الغفلة عن الذكر شر من الغفلة فيه . وقد سمعت سيدي الشيخ على عقل نور الله ضريحه يشرح هذه المسألة ويقول على مسمع المريدين : ان اللسان جارحة فإذا تحركت بذكر الله تعالى وصارت رطبة به جعلت للذاكر قيمة وان لم يبلغ درجة الكمال التي يبلغها أهل القلوب الحاضرة التي لا تشتها الشواغل والوسواس . وضرب لنا رضي الله عنه مثلا فقال لو انك ركبت في عصا رخيصة حلية من ذهب ، لارتفع ثمن العصا كثيرا بقيمة حلية الذهب فكذلك ذاكر الله بلسانه تزداد قيمته بذكر الله ولو كان ذاكرا في غفلة ، لقدسية الاسم الجاري على لسانه الذي حركته به محبة الله .

ويقول سيدي الامام الغزالي رضي الله عنه في كتاب الاحياء : فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أنفع وأفضل من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ، فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق الا بعلم المكاشفة والقدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى وفي الاخبار ما يدل عليه أيضا .

وأضاف رضى الله عنه قائلا :

وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية . والمريد في بداية أمره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس إلى ذكر الله عز وجل ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكر وهذا معنى قول بعضهم : كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة ، ولا يصدر التمتع إلا من الأنس والحب ، ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المكابدة والتكف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعاً ، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف ، هي النفس ما عودتها تتعود ، أى ما كلفتها أولاً يصير لها طبعاً آخر ، ثم اذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع من غير ذكر الله ، وما سوى الله عز وجل هو الذى يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل .

أقول : والصلاة على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر ، وكذلك الاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير . والدعاء وتلاوة القرآن الكريم ، وصلاة الفرض أو النفل من أجمع العبادات للذكر لأن الصلاة يتم فيها كل ما تقدم . ومن ذكر الله التفقه في الدين ، ومدراسة العلوم الشرعية وانتذاكر فيها ، وعلى الجملة تدخل كل العبادات والطاعات فرضاً أو نفلاً في وصف الذكر بصفة عامة . أما ذكر الله تعالى بأسمائه الحسنى فهو المقصود بصفة خاصة في التربية الصوفية .

ويقول السادة الصوفية أن الذكر هو سلم الواصلين من السالكين إلى حضرة رب العالمين ، وهو يحرس الجوارح ويحفظ الوقت ويفتح أبواب الأنس ، ويطبع في النفوس رسوم العبودية ثم يمنحها منشور المعتق ويضمن الخير بكل حال ، ويحدو قوافل السائرين إلى الله ، وهو العبادة التى ظاهراً أجور ، وباطناً حضور ، وباطن باطنها نور على نور .

أقول : وتلك نتيجة طبيعية لأن التعلق بالكريم لا بد أن تظهر آثار الكرم عليه ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ، وشاهد ذلك واضح في كتاب

الله عز وجل ، اذ يقول تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا • وسبحوه بكرة وأصيلا • هو الذى يمسئ علىكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما • تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما) •

أرأيته كيف أخرج سبحانه الذاكرين كثيرا من انظلمات الى النور أى من الكفر الى الايمان ، ومن الغفلة الى الذكر ، ومن الشرود الى الحضور ، ومن الجهل الى العلم ، ومن الخلق الدنى الى الخلق المسنى ومن النقيصة الى الفضيلة الخ هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فأجرهم عظيم كما بينته الآية الأخيرة • ومن عجيب انك اذا تتبععت كتاب الله الكريم وجدت أنه تعالى أمر بكثرة الذكر أو معناها فى أوامره أو ثنائيه على خواصه • فمثلا يقول تعالى فى سورة الأنفال (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ويقول تعالى فى سورة الجمعة (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) وقال تعالى فى سورة البقرة (فاذا قضيتهم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) ويقول تعالى فى سورة طه لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام (اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى) وقال تعالى فى سورة الاحزاب (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وقال تعالى فى سورة الشعراء (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظنوا) وقال تعالى فى سورة آل عمران (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) كما قال تعالى فى السورة ذاتها لسيدنا زكريا عليه السلام (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار) هذا فى حين أنه تعالى وصف المنافقين بقلة الذكر فقال سبحانه فى سورة النساء (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا) •

ولبيان ما قاله السادة الصوفية من ان الذكر عبادة ظاهرها أجور وباطنها حضور وباطن باطنها نور على نور يصف شيخى وسيدى الشيخ على عقل طيب الله ثراه حاله فى الهامه الفورى الذى نقلناه عنه فيقول:

وقفت على نجوى الاله جوانحي
لذلك قلبي منزل كله ذكر
وأخليت قلبي من مناجاة غيره
فأصبح طودا لا يزلله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائما
وأنطق اجلالا وما عاقتني سير
نفى، صحتي شوق وفي غفوتي هوى
وفي مشيتي علم وفي وقفتي سر

وكان رضى الله عنه من الذاكرين الله كثيرا والساهرين الليل كله
في مرضاة ربه ، وقد عاشته عشرين عاما فرأيت منه همة لا تبارى ،
وعزما لا يلين ، وهياما لا يفتقر ، وحركة لا تسكن ، وشوقا لا يهدأ وحبا
في الذروة العليا وهو القائل ارتجالا والهاما :

نجلتي ذكره ونرتاح فيه
فانتهانا في الذكر منه ابتدانا
اذكر الله ثم مل عن سواه
كان عرفان غيره كفرانا
اننا ملكه وموعدنا الحشر
فهل عنده لحظة نتوانى

كما يقول :

أخلى فؤادى له من كل شائبة
ان عشت أو مت أعضائي توحده

وقال ارتجالا في لهفته على لقاء ربه :

أنا لو أشرب البحار جميعا
لم أزل في محبتى ظمــــا
لست أروى الا بقلبياك يارب
فهذا اللقاء أسمى رجائا
نتنادى الى اليقين هموا
وبهذا لربنا نتددانى

كما قال :

أرواحنا قال فيها الحق من قدم
هأهم رجالي وإن المقصد الله
لا أنثنى عن هواه لحظة أبدا
وكيف أسلو وقلبي بيت تقواه
هجرت كل مرام غير رحمته
فأنها حسناتي يوم القاه

وقال :

شهدت روى حمياه وقد
لاح لي نور الحيا واتمل
ان عيدي يوم القاه فمما
لي عيد غير وجه الله جل
ليس عندي أى مال انما
كل مالى فيه علم وعمل
وحياة قد خلا سلطانها
من تقى الله قصاراها الفشل
ليس من ورث عرشا ملكا
أو على الملك تفانى واتكل
انما الملك الذى حد الهوى
وعن اللهو تناءى وعدل

ويفرق رضى الله عنه بين أهل الغفلة وأهل الحضور فيقول ارتجالا:

وغفلة قلب المرء بعد وحسرة
فما نال عقبى ربه غافل القلب
لقد ذل في يوم القيامة غافل
تأخر في يوم الجهاد عن الركب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا
شربنا من الانوار ما ليس بالشرب

ويشجعنا رضى الله عنه على الاكثار من ذكر الله تعالى فيقول :

ان يذكر الرحمن في دار امرىء
 حل الهناء بها ونعم الدار
 والليل بين سواده وسكونه
 بالذكر تكشف ستره الانوار
 لا تسأموا من جبهه لا تسأموا
 من ذكره فهنا العطاء يدار
 قومي اطمئنوا في الحيناة بربكم
 فبذكره تتنعم الابرار
 ان تنصروا الرحمن ينصركم وما
 خابت رجال هم له أنصار

ويقول حاضا على مراعاة الاخلاص في الذكر :

لا تذكر البارى بقصد ولاية
 أو أن تكون على السما لا تنطفي
 اذكر لوجه الله جل جلاله
 من رام غير جنابه لم يشرف
 واذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى
 حافظ على آياته بتلهف
 وانهض بروحك نهضة قدسية
 ولسنة المختار في السير أقتف

ولا تعجب أن تكون تلك حاله فانه تربى في الطريقة الخليلية المباركة
 على يد سيدي وشيخي الشيخ عبد السلام الطواني رضى الله عنه ،
 وهو الرجل الكامل الذي رباه صاحب الطريقة سيدي الغوث الحاج محمد
 أبو خليل ساكن ضريحه الأنور الملحق بمسجده الكبير بالزقاقيق ،
 وهو الامام الربى الذى وصفه تلميذه فضيلة المرحوم الشيخ عبد البارى
 الشرقاوى (كان رحمه الله من علماء الأزهو الاجلاء) فقال فى وصفه :

كان ملكا فلم يزل يترقى
 فى المعالى حتى غدا ملكوتها

ان هذا هو الخليل فقبل
ترب أرض مشي عليها خفوتنا
من يشاهده شاهد الافق الاعلى
وألفى جلاله المنعوتنا

الا رضى الله عن شيوخنا الاجلاء الذين أخذوا بأيدينا في طريق
الآخرة حسبة لوجهه تعالى ، فأيقظونا بالذكر من غفلتنا وسقونا من
شرابهم الطهور مشربا هنيئا سائغا للشاربين ، ذلك الشراب
الذى قال فيه ارتجالا بالهامه الفياض سيدى الشيخ على عقل طيب
الله ثراه •

شراب الحب يعرف بالمداق
وما كل السقااة له بساقي
دعابة الحب أكثر ما تلاقى
وقل الصادقون فما تلاقى
ألا يا ساقى العشاق مهلا
تعال املا كؤوسك من حقاقي
تركت جميع خلق الله دونى
شغلت عن الخلائق باشتياقي
وكيف أحب غير الله يوما
وليس سواه فى الاكوان باقى
ومن عرف المحبة عن يقين
محال أن يميل الى فراق

اللهم اجعلنا يا مولانا فى عبادك الصالحين الذين ظلت فيهم (يجهم
ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا
يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) •

خصال صوفية

« وقد نظرنا اليك نظرة التأمل فيك فاذا لك آداب وانتساب وشيم
وشمم ، وطهر وكرم ، لا تنظر الى برك ، بل تقصد به وجه الله ،
لأنك مملوء بحبه تعالى » .

جاءت تلك الكلمات في رسالة بعث بها سيدي وشيخي الشيخ عبد
السلام الطواني طيب الله ثراه الى تلميذه الصالح التقى المبارك
الصدیق الراحل المرحوم السيد / سالم جمعة ، أوسع الله له في
رضوانه ، وهي شهادة قيمة من الشيخ في تلميذه الموفق ، ولاشك أن
الشيخ يسره أن يرى في مسلك تلاميذه ثمرة تربيته طيبة يانعة ، فانه
يرشدهم في طريق الله ويربهم في جنبه سبحانه ابتغاء وجه الله ، والله
تعالى لا يضيع عمل عامل أخلص دينه لله .

وقد فارقنا قريبا الى دار القرار ذلك الصدیق التقى النقي السيد /
سالم جمعة ، ووري في قبره يوم الجمعة الأول من شهر رمضان
الفائت ، وقد أيد الله بآياته شهادة الشيخ المتقدمة ، فاختر السيد /
سالم الى جواره الكريم في ليلة مباركة هي ليلة الجمعة ، ودفن في يوم
مبارك هو يوم الجمعة ، وفي شهر مبارك هو شهر رمضان الذي أنزل
فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وانا لله وانا
اليه راجعون وسبحان الحي الذي لا يموت .

ولا تعجب أن يكشف الشيخ للمريد ما رآه فيه من خصال الخير ،
فانه لا يكشفها له الا ان أمن عدم اقتتانه بها ، وربما كشفها له ليزداد
استمساكا بها ويسأل الله دوامها ، لانها من خصال السادة الجسوفية
الالتقاء الذين يتحلون بالفضائل ، ويتخلون عن الرذائل ويسعون الى
مرضاة الله ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وها هو ذا الامام جلال الدين
الرومي يصف تلميذه المقرب اليه سيدي حسن حسام الدين في مقدمة

كتابه الشهير « المثنوى » وقد كتبها الامام باللغة العربية بنفسه وقال فيها عن تلميذه المبارك :

« .. لاستدعاء سيدى وسندى ومعتمدى ومكان الروح من جسدى ، وذخيرة يومى وغدى ، وهو الشيخ قدوة العارفين ، وامام أهل الهدى واليقين ، مغيث الورى ، أمين القلوب والنهى ، ودیعة الله بین خلیقته ، وصفوته فى بریته ، مفتاح خزائن العرش ، أمين كنوز العرش ، أبو الفضائل ، حسام الحق والدهن حسن بن محمد بن الحسن المعروف بابن أبى ترك ، ابو یزید الوقت ، جنید الزمان ، صديق ابن صديق ابن الصديق رضى الله عنه » .

وقد كنت أكتب مقالی هذا قبل وفاة الصديق العزيز الراحل السيد / سالم جمعة ، رحمه الله رحمة واسعة ، وكنت أخشى أن يضايقه نشر شهادة شيخه فيه ، لانه طيب الله ثراه كان يجب أن يكون مخبوءا فى فضله وبره ، كما هو شأن كلمة الرجال الصادقين ، وشاء الله أن يتوفاه الله قبل أن ينشر المقال فنشرته فى اطمئنان ابرازا للمثل العليا التى نراها فى مسالك العارفين من السادة الصوفية .

أما الانتساب الذى ورد فى عبارة سيدى الشيخ فهو انتساب الصديق الراحل الى الدوحة النبوية الشريفة ، وحدث عن السادة الاشراف فى سمو مناقبهم والا حرج ، فهم مطهرون عنصرا وطوية ، وهم أهل المكارم . واصحاب الفضائل ، وقد سبقت لهم من الله الحسنى ، فالزمهم كلمة التقوى وكبوا أحق بها وأهلها ، وهم ودائع الله بين خليقته وصفوته فى بنى البشر ، وكفاهم شرفا أن يقول الله تعالى فيهم (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقد استعارت الآية للذنوب كلمة الرجس ، واستعارت للطاعات كلمة التطهير ، واذا أراد الله أمرا ساق أسبابه لانه تعالى فعال لما يريد .

وقد كان المرحوم السيد / سالم من أهل السعة فى المال ولكنه لم ييخل بما آتاه الله بل عطف على الفقراء والمساكين ومد بعونه اليأساء المتعطفين ، وهنيئا له ما قدمت يداه ، والى روح وريحان وجنة نعيم . ويرضى الله عن سيدى الشيخ العارف أحمد الطوانى (والد سيدى وشيخى الشيخ عبد السلام رضى الله عنه) اذ يقول فى قصيدته الخلواء فى مدح بنى الزهراء :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا
وان هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا
هم الدين والدنيا لعمري هو هو
فقل فيهمو ما شئت لاترهبين نكرا
وعال بهم من شئت ان ذكروا العلا
وفاخر بهم من شئت ان ذكروا الفخرا
بدور سمت عن شمس أكرم مرسل
أناروا دياجى الكون بالطلعة الغرا
وبالبر والتقوى وبالعلم والندى
وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى

والبر الذى ورد فى عبارة سيدى الشيخ عبد السلام ليس وقفنا على الصدقات بل هو أعم ، ودليل ذلك من كتاب الله الكريم قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) .

ويتول الامام البيضاوى رضى الله عنه فى تفسيره : ان البر هو التوسع فى الخير من البر وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله تعالى ، وبر فى مراعاة الاقارب ، وبر فى معاملة الاجانب . وقال أيضا أن الآية كما نرى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا بكثرتها وتنوعها منحصرة فى ثلاثة أشياء ، صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس ، وقد أشير الى الأول بقوله (من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) والى الثانى بقوله (وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب) والى الثالث بقوله (وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه واعتقاده ، وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته

للخلق ومعاملته مع الحق ، وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله :
« من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » .

وأهل البر - بهذا المفهوم - الذين يقصدون ببرهم وجه الله تعالى ويخلصون له النية في عباداتهم ومعاملاتهم هم أهل محبة الله سبحانه كما يعلمنا سيدى الشيخ عبد السلام في عبارته التى وردت في صدر المقال ، وإذا أردت أن تقف على تفصيل مسلكهم وتعرف كيف يحسن المرید اسلامه ويكسب محبة الله تعالى فاقرأ ما يقول سيدى الامام أبو طالب المكي رضى الله عنه :

« يكون محبا للخير وأهله ، مجانباً للشر وأهله ، مسارعاً الى ما نذب اليه أو أمر به اذا قدر عليه ، حزينا على ما فات من ذلك اذا أعجزه . تاركا لما يعنيه من الأقوال والأفعال ، بريئا من التكلف ، وهو اجتناب ما لم يؤمر به ولم يندب اليه من ترك وفعل مصليا للخمس في جماعة ، مجتنباً للغيبة ولذكر الناس ، يجب للكافة ما يجب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، مسارعاً الى الخيرات ، مسابقاً الى أعمال البر والتقربات ، طويل الصمت ، لين الجانب ذليلاً للمؤمنين ، عزيزاً على المتكبرين ، لا يمارى في الباطل ولا يداهن في الدين ، ولا يبغض على شيء من الحق وان كان عليه أو من أبعد الناس منه ، ولا يحب على شيء من الباطل وان كان له أو من أقرب الناس اليه ، كارها للمدح ممن يحبه ، قابلاً للنصح ممن يبغضه ، صدوقاً فيما يضره ، سريره أفضل من علانيته ، محتملاً لأذى الخلق ، صابراً على بلائهم ، منفرداً بحاله عنهم » .

وفي تعقيبه على الآية الكريمة (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) يقول رضى الله عنه :

« الشريعة اسم من أسماء الطريق ، وللطريق أسماء كثيرة منها : الصراط المستقيم ، والسبيل ، والمنهاج ، والمحجة ، والمنسك ، والشريعة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة هي جامعة لأوصاف الايمان : فأول ذلك الشهادتان وهى الفطرة ، والصلوات الخمس وهى الملة ، والزكاة وهى الطهارة ، والصيام وهو الجنة (بضم الجيم) ، والحج وهو الكمال ، والجهاد وهو النصر ، والأمر بالمعروف وهو الحجية ، والنهى عن المنكر وهو الوقاية ، والجماعة وهى الالفة ، والاستقامة وهى العصمة ، وأكل

الحلال وهو الورع ، والحب والبغض في الله وهو الوثيقة ، فلا يكون المسلم معتقدا لبدعة ، ولا مقيما على كبيرة ، ولا آكل الحرام ، ولا طاعنا على صالح السلف ، ويكون كاف اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكون ناصحا لجميع المسلمين ، مشفقا عليهم ، يسره ما يسرهم ، ويسوءه ما يسوءهم سيما الائمتهم ، داعيا لجملتهم ، ويكون مخلصا لأعماله كلها لله تعالى » .

ومن أرفع آداب المسلم أن يكون رحيما بالمسلمين . وفي قوله تعالى في الصحابة (رحماء بينهم) يقول ابن عباس رضي الله عنه وعنهم أجمعين يعنى متوادين بينهم ، يدعو صالحهم لطالهم وطالهم لصالهم ، اذا نظر الطالح الى الصالح قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير ، وثبته عليه ، وانفعنا به ، واذا نظر الصالح الى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الآية من حلالكم وحرامكم وفي الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن منع حظه من الرفق منع حظه من الدنيا والآخرة » .

وبر الفقراء والاحسان انهم من أعظم أبواب البر ، وفي الحديث الشريف : سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله أحدهم : « رجل تصدق بصدقة فلم تعلم ثماله ما أعطت يمينه » ، وهذا من المبالغة في الوصف يدل على مجاوزة الحد في الاخفاء فيخفى عن نفسه فكيف لا يخفى عن غيره ، وهذا الاخفاء الشديد يدل على أنه قصد بعبائته وجه الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى .

ويقول سيدى أبو طالب المكي رضي الله عنه : فاذا لم يمكنك على الحقيقة ان تخفى صدقتك عن نفسك ، فاخف نفسك فيها حتى لا يعلم الفقير انك المعطى ، وهذا مقام في الاخلاص فان أظهرت يدك في الاعطاء فاخفها سرا الى الفقير ، هذا حال الصادق ، فقد كان بعض المخلصين يصير الدرهم في ثوب الفقير وهو نائم فلا يعلم من الذي صره ، وبعضهم كان يوصل الى الفقير على يد غيره ويستكنمه ثأنه .

ويبين لنا سيدى الشيخ على عقل رضي الله عنه كيف يكون المؤمن باراً بماله وجهاد نفسه فيما قاله ارتجالاً ومته :

كل شيء يزول عند الممات
 غير حب الاله والصدقات
 فاذا مات لم يكن غير ما قد
 مته صالحا قبيل الوفاة
 تترك المال للوريث ولكن
 تؤنس القبر تركة الصالحات
 خل عنك الدنيا ان من خدمتهم
 خدمتهم والذنب للخدمات
 وتتادى العباد في كل يوم
 احذروني وجانبوا غدراتي
 ان من يفقه الحقيقة يدري
 انها دار دعوة وصلاة
 كان فيها وقلبه ليس فيها
 انما كان كاسب الاوقات
 ذاكرا شاكرا مقدم بر
 ساهرا جانحا عن الشهوات
 مستندرا فيض الاله عليه
 مستقيما ملازم الصنات
 قائما في عبادة الله يقظان
 قوي الفؤاد اهل ثبات
 ذلك الحى في الرجمال عليه
 يوم ان مات اعظم الرحمات
 انا مازلت في ديار التجلى
 صادق العزم صادق القربات
 ساعيا في الهدى اوحى ربي
 اينما كنت شأن كل الساعة

ويقول السادة العارفون : اذا دعا لك مسكين عند الصدقة فأردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاء لدعائه ويخلص لك أجر صدقتك ، والا كان دعاؤه مكافأة على معروفك • وقد كانت السيدتان عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما اذا ارسلتا معروفا الى فقير قالتا لرسولهما احفظ ما يدعوه به ، ثم يردان عليه مثل قوله ويقولان : حتى تخلص لنا صدقتنا ، وفعل ذلك سيدنا عمر وابنه سيدنا عبد الله رضى الله عنهما •

وينبغي للمتصدق أن يجعل صدقته من أطيب ماله ، فان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وينبغي له ان يستصغر ما يعطى ، فان استكثر ما يعطى من العجب ، والعجب يحبط الأعمال ، ويقول السادة الصوفية ان الطاعة كلما استصغرتها كبرت عند الله تعالى ، وان المعصية كلما استعظمتها صغرت عند الله تعالى • كما يقولون : لا يتم المعروف الا بثلاث : تصغيره وتعجيله وستره •

وقد وصف الله تعالى أهل الحاجة من الفقراء باوصاف خمسة في القرآن الكريم فقال سبحانه (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) وقال تعالى (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) وقال تعالى (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) أما السائل فهو الذى يسأل بلسانه ، وأما المحروم فهو المضيق عليه فى رزقه ، وأما القانع فهو الذى يقعد فى بيته ويقنع بما يسوق الله اليه من غير طلب ، وأما المعتر فهو الذى تحمله الحاجة على التعريض فى سؤاله ويمنعه الحياء من التصريح •

وفى الحديث الشريف : « ليس المسكين الذى تدره الكسرة والكسرتان والتمر والتمران ، انما المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفتن له فيتصدق عليه » • وقد كان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى الفقير على قدر العيلة ، فيعطى المتأهل ضعف ما يعطى للأعزب ، ويعطى الرجل على قدر أهل بيته الذين هم فى كتفه • وقد سئل سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن جهد البلاء ما هو ؟ فقال : كثرة العيال وقلة المال •

وقد كان بعض العارفين يؤثر بعطائه فقراء الصوفية عن غيرهم ف قيل له : لو عمت بمعروفك جميع الفقراء ، فقال : لا أفعل بل أؤثر هؤلاء على

غيرهم ، قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن هؤلاء همهم الله سبحانه وتعالى
فاذا طرقتهم فاقة تشتت هم أحدهم ، فلان أرد همة واحد الى الله تعالى
أحب الى من أن أعطى الفا من غيرهم ممن همه الدنيا • فذكروا كلامه هذا
للإمام أبى القاسم الجنيد رضى الله عنه فاستحسنه وقال : هذا كلام
ونى من أولياء الله تعالى ثم قال : ما سمعت منذ زمن كلاما أحسن من
هذا •

أما سيدى عبد الله بن المبارك رضى الله عنه فكان يجعل معروفة
في أهل العلم خاصة ، فقيل له : لو غممت به غيرهم ، فقال : انى الأعرف
بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فاذا اشتغل قلب العالم بالحاجة
أو العيلة لم يتفرغ للعلم ولا يقبل على تعليم الناس ، فرأيت ان
أعينهم وإكفيهم حاجاتهم لتتفرغ قلوبهم للعلم وينشطوا لتعليم الناس •
وصدق سيدى ابن المبارك فيما ذهب اليه فان امامنا الشافعى رضى الله
عنه وأرضاه قال : لو كلفت بصلة ما فهمت مسألة في العلم •

والمتيسر من السادة الصوفية يستبشر اذا قبل العارف الفقير عطاءه •
لان ذلك علامة القبول من الله تعالى وليس قبوله كقبول غيره ولا رده
كرد غيره وذلك لحسن معرفته وقوة صلته بالله تعالى ، وقد قال مولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا وابصة الصحابى رضى الله
عنه : « لستفت قلبك وان أفتاك المفتون » والعارفون بالله يستفتون
قلوبهم في القبول والرد فاذا انشروا صدورهم للقبول قبلوا العطاء
، واذا انقبضت ردوا العطاء على صاحبه •

وقد كان أسلافنا الصالحون يدفعون في فريضة الزكاة المئات ويدفعون
في صدقة التطوع الآلاف ، وكانوا يصلون الفقير بما يخرجهم عن حد
الحاجة والضر ويغنيه ويكفيه • وكانوا يضعون الزكاة في يد الاحوج
فالاحوج ، والأفضل فالأفضل ، من أهل العلم بالله تعالى ، وأهل الطاعة
العاكفين على مرضاة ربهم في همة وصدق ممن قال تعالى في وصفهم
(للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض
يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس
الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) •

ويقول السادة الصوفية : ان أفضل الاعمال العطف على اهل الضعف وهم يستندون في ذلك الى الحديث الشريف : سئل النبي صلى الله عليه وسلم • أى الاعمال أفضل فقال « ان تغيث ملهوفاً أو تنصر أخاك لك • كما قال صلى الله عليه وسلم :

« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » •

وقال أيضا صلوات الله وسلامه عليه : « الخلق عيال الله فأحب الخلق اليه أنفعهم لعياله » •

وأولى الناس بجر المؤمن أبواه ثم الأدنى فالأدنى ، ويبين ذلك جلياً من الحديث الشريف • فقد روى حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : أمك ثلاثاً ثم قلت ، ثم من ؟ قال : أباك قلت ، ثم من ؟ قال : ادناك ادناك ، وفيه « وأختك وأخاك » وروى عنه صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء اثماً أن يضيع من يعول » • وقال رجل : يا رسول الله ، عندى دينار ، قال : أنفقه على نفسك ، قال عندى آخر ، قال : أنفقه على أهلك ، قال عندى آخر حتى عد الخامس ، قال : شأنك به ، وقال : خير الصدقة ما كانت عن ظهر غنى وما أبقت غنى ، وأبدأ بمن تعول » • ويؤيد كذلك قوله تعالى (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) •

أما امتلاء القلب من محبة الله تعالى وهو ما أشار اليه سيدي الشيخ عبد السلام في آخر عبارته ، فلا يتم للمؤمن الا اذا أخلى قلبه من ذكر كل قاطع عن الله فزال عنه كل حاجب يحجبه عنه ، فتم بالله سروره ، وصفا ذكر الله في قلبه ، ودام بالله شغله وطال انيه حنيفة : أنس به واستوحش مما سواه • وقد سمع سيدي ذو النون المصرى برجل صالح يتعبد في جبل المقطم فذهب اليه وبقي عنده ثلاث ليال ثم طلب اليه دعوة صالحة قبل أن يفارقه فقال : آنسك الله بقربه ، قال سيدي ذو النون : زدنى ، فقال : من آنسه الله بقربه أعطاه أربعاً بغير أربع ، علماً بغير طلب ، وغنى بغير مال ، وعزاً بغير عشيرة ، وأنساً بغير جماعة •

والحق أن الصديق الصالح المرحوم السيد / سالم جمعة كان موفقا في ذكر الله وشكره وحسن عبادته كما هو شأن السادة الكرام من آل البيت الاخيار . ولقد أجريت له من نحو عامين عملية جراحية كبيرة بالمستشفى فذهبت لزيارته وصحبت معي صديقي الاستاذ محمد جاد الرب المفتش السابق بوزارة التربية وقلت له : أؤكد لك أننا حين ندخل على السيد / سالم سنجد في يده المسبحة على الرغم من جراحته لانه دائم الشوق لربه ، وماكدنا ندخل الغرفة حتى رأى بعينه صدق ما قلته له قبل الدخول ، وعندما تمت الزيارة وخرجنا قال لى الاستاذ جاد الرب : انى غرت من نشاط هذا الرجل الصالح . وقد استأثرت رحمة الله بالصديق الوفي الاستاذ محمد جاد الرب وكان شاعرا مجيدا فرحم الله الصديقين وطيب ثراهما وسبحان الحى الذى لا يموت .

اللهم ارزقنا الهمة في مرضاتك واجعلنا بفضلك من أهل الفتوة في محبتك الذين قلت فيهم (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) آمين .. (١)

(١) استدراك :

وقع خطأ سهوا في ص ٤٦ بالسطر ٢٣ في الآية « فما أوتيتم ... » وصحته « وما أوتيتم ... » .

فهرس الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة
٥	رجال الله وأثرهم فى التربية الروحية
١٧	ترقى الذاكرين
٢٨	محاسبة النفس وتقوى الله
٣٩	المسبب والاسباب
٤٩	النور والظلام
٦٠	التسوكل
٦٩	الاخلاص عند الصوفية
٧٧	الذاكرون والمحبون
٨٨	آل البيت ووراثه الاخلاق النبوية
٩٧	رحمة الشيوخ الاولياء بتلاميذهم
١٠٥	الاشتغال بالله تعالى
١١٥	التفويض لله تعالى
١٢٤	الركون الى الله تعالى
١٣٥	جهاد النفس والهداية
١٤٦	مسألة الناس ومعرفة الله تعالى
١٥٧	التمسك بالله تعالى
١٦٨	الصبر والشكر
١٧٨	ما شاء الله كان
١٨٦	الفرج بعد الشدة
١٩٧	الحبة فى الله تعالى
٢٠٩	الافتقار الى الله تعالى

صفحة	
٢١٩	نور البواطن
٢٣١	الارزاق مقدره
٢٤٠	حسبنا الله
٢٤٩	حزب الله
٢٦٠	الاسوة الحسنة
٢٧١	اهل اليقين
٢٨٢	الذاكرون بين الاحوال والمقامات
٢٩٦	كل شيء بقضاء وقدر
٣٠٩	الانسان وعمله
٣٢٠	بين الخوف والرجاء
٣٣٣	التوكل والاسباب
٣٤٣	الشاكرون
٣٥٢	الحضور والغفلة
٣٦٢	خصال صوفية

رقم الإيداع ٣٩٠١ / ١٩٩٢

شركة الإعلانات الشرقية / مطابع دار **الجمهورية** للصحافة

